السلم الخلفي

رواية

صبري مدكور

الدار
للنشر والتوزيع
2016

عنـــوان العمـــــل:	السلم الخلفي
نـــوع العمـــــــل:	رواية
تـــــــــــــأليف:	صبري مدكور
تصميـــم الغـــلاف:	أحمد الملواني
الطبـــــــــــاعة:	أتيليه تاتش – المحروسة
النـــــــــــاشر:	الدار للنشر والتوزيع
المـــــدير العـــام:	محمد صلاح مراد
تليفـــــــــــون:	01125800467
البريد الإلكتـرونى:	eddar_press@yahoo.com
فيـــس بــــــوك:	www.facebook.com/eldarpublish
رقـــم الإيــــداع:	2016/2101
الترقيـــم الـــدولى:	I.S.B.N: 978-977-702-104-3

إهـــداء

إلى روح "أمى"

فارقتِ الحياة ولم أراكِ..لكنك لم تفارقى قلبى..إشتقتُ إليكِ كثيراً..يعلم الله كم أفتقدك

(1)

عقارب الساعة تشير إلى التاسعة مساءً، صوت خطوات بطيئة متثاقلة تقترب من نافذة إحدى الشقق وقبل أن تصل، ترتج النافذة وتنفتح فجأة لتدخل قطرات من مياه الأمطار الغزيرة التي تهطل على القاهرة في ليلة شتوية قارسة البرودة، تتطاير معها معظم الأوراق الموجودة على المكتب في كل مكان بالحجرة. يرتجف خالد من لسعة البرد ويمسك سريعًا بالنافذة ثم يغلقها، ويلقي نظرة طويلة شاردة على ضوء البرق الذي يخترق ظلمة الليل، يطلق على أثرها تنهيدة عميقة، يرتمي على أقرب كرسي يجده ويضع وجهه بين يديه لحظات، ليكشف عن وجهه وفي عينيه دمعة حبيسة سرعان ما تسقط على قميصه النبيتي، عاد برأسه إلى الوراء وراح في سبات عميق لتمر أحداث الماضي في رأسه كأنها شريط سينمائي قديم، حتى وصلت إلى خمسة وعشرين عامًا مضت، عندما كان عمره لا يتجاوز عشر سنوات ونشأته في أحد نجوع محافظة سوهاج، كانت الفطرة والبدائية أهم ما يميز الحياة في تلك الفترة حيث المنازل الواسعة التي تتعدى مساحتها القيراط وربما القيرطين، بُني معظمها من الطوب اللبن ولا تتعدى دورين يوجد بها حجرتان أو ثلاث على

الأكثر أسقفها على هيئة قباب أو من البوص، والجزء الآخر عبارة عن حوش كبير لتربية الطيور والمواشي وفرن بلدي كبير.

تجد النخيل يحيط بك أينما ذهبت، سواء في الطرقات والدروب حتى المنازل لا تكاد تخلو من وجوده، ووجوه الرجال السمراء من لفحة الشمس يبدو على قسماتها الشقاء والطيبة الممزوجة بالسذاجة أحيانًا، والشارب الذي (يقف عليه الصقر) كما يقولون ويتباهون بذلك دائمًا، وجلابيبهم التي تميزهم عن غيرهم بأكمامها الواسعة التي من الممكن أن تستوعب معهم شخصًا آخر، والعمامة المزهرة بعناية بالغة، والأطفال يرتدون جلابيب من الكاستور المقلم يهرولون حفاة، وقد تراكمت على أرجلهم طبقات لا بأس بها من الطين، وشعرهم الملبد الذي لا يجري فيه مشط لأسابيع، ووجوههم المتربة، وقد تدلى مخاط أنوفهم على شفاههم يطاردون الكلاب أمام المنازل وهم في غاية السعادة والمرح.

***

كانت ليلة الخميس بمثابة العيد عند خالد، حيث يجهز جلبابه وصندله ليذهب بهما إلى السوق في الصباح مع أبيه.

عندما تصيح الديوك لطلوع فجر يوم جديد يستيقظ مبكرًا كالعادة، يغسل وجهه تحت مياه الطلمبة، ثم يرتدي جلبابه وصندله البلاستيك أصفر اللون، يكون أبوه عندئذ أخرج الحمار ويناديه بصوته الأجش كما يفعل صباح كل خميس: (ياللا يا خالد).

ينطلق خالد كالحمامة ويقفز سريعًا خلف أبيه، ويتشبث بطرف جلبابه خشية أن ينزلق عن مؤخرة الحمار، يسيران في الطريق الضيق المحاط بأعواد الذرة، الذي يكون قد ازدحم بمعظم أهالي النجع، يُخرج خالد لسانه لدهشان ابن عم إسماعيل تظهر على أثرها أسنانه الصفراء التي لم تنظَّف منذ أن جاء على وجه الأرض. دقائق ويصلان.. يصبِّحان على جابر ويتناولان عنده طعام الإفطار، المكون من الفول النابت بالشطة والليمون والفلافل الساخنة والعيش البلدى والبصل الأخضر، عندئذ يكون الزبائن بدأوا الشراء مبكرًا والالتفاف حول الباعة وخاصة الجزارين، عندما يذبحون ويسلخون العجول ويعلقونها على السيبا، وكل من الزبائن ممسك بمنديل من القماش يرميه للجزار ليدس فيه اللحمة له.. وتجد السقائين يحملون قربهم يطوفون بها السوق بحثًا عن الظمآنين.

بعد برم السوق بالكامل يكونون اشتروا كل ما يلزمهم من لحم وخضار وحلاوة طحينية وملوحة صعيدي لزوم الغداء، وهى من الطقوس المعتادة عند أهالى النجع.

عندما يحل الظلام يأكلون اللحمة السمينة المليئة بالدهن، ويحتسون كوب الشاى الصعيدي الأسود (الحبر) اللي يعدل الرأس (وهى كالخمر بالنسبة للأغنياء في المدن).

تستحم النساء ويتزيَّن ويتعطرن، ثم يرتدين قميصا خفيفا يبرز مفاتن أجسادهن. يبل الرجل يده ويبرم شاربه ويهم لمضاجعتها وما

هي إلا لحظات وينتهي كل شيء، ترتخي بعدها أعصابه و"تحما" اللحمة على أنفاسه وينام ويخنفر، وعندما يستيقظ يُكمل، لكن حينها يكون أخف وأنشط ويمتزجان في حالة من الحب والسعادة وكأنهما روحان في جسد.

كان الحاج عبد الرحمن يمتلك فدانًا فى الأرض الزراعية السوداء بالنجع، تحيط به عشرات الأفدنة التي تمتلكها عائلة أولاد علي، وهى كبرى عائلات النجع من حيث الثروة والجاه والنفوذ، وقد حاولوا جاهدين أن يشتروه من الحاج عبد الرحمن، لكنه كان يرفض بإصرار لأنه مصدر رزقه الوحيد وللقيمة الكبيرة التي تحظى بها الأرض في النجع (في الغالب يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد دون أن تمس حتى وإن بلغ الفقر مداه) لكن لا يمانع فى أن يعمل أجيرا عندهم في بعض الأيام، مثل الكثير من فقراء البلد الذين لا يمتلكون قوت يومهم.

كان لدى خالد ثلاثة إخوة، أكبرهم علي وهو الأقرب شبهًا وطباعًا لأبيهُ أُخرج من المدرسة مبكرًا، لكي يعمل ويساعد أباه في الإنفاق على المنزل، كذلك ليساعده في زراعة قطعة الأرض، وهى من العادات المتبعة عند أهل الصعيد حيث يكون الابن الأكبر عكاز أبيه في الحياة.

بمجرد انتهاء سنوات التجنيد استخرج جواز سفر، مثل معظم شباب النجع الذي كان وما زال السفر إلى البلاد العربية أملهم

وحلمهم في تحسين أحوالهم المادية وبناء منازلهم والزواج، وعندما كان يرفض أبوه فكرة السفر لأنه أكبر إخوته كان يقول له: (أنا لازم أسافر علشان أعمل قرشين أتجوز وابني البيت، وآخد على قد تعبي وكفاية شغل عند الناس).

محمد الأخ الثانى، حاصل على دبلوم صنايع يعمل في (الفاعل) مع مقاول من النجع في مدينة الغردقة، كان يعمل ثلاثة أشهر ثم ينزل إجازة إلى النجع ليظل يسرد لأصدقائه حكايات عما رآه من نساء يرتدين مايوهات أو كما يقول (من غير هدوم) وهم ينصتون له في شغف. حينها تكون غرائزهم اشتعلت واحمرت آذانهم، وراحوا يتخيلون العالم الآخر الذي يحكي عنه.

ناهد البنت الوحيدة في الأسرة، ومع ذلك كانت حملاً ثقيلاً على أبيها، حيث يخشى عليها من العنوسة (هاتقعد في أرابيزي يا حميدة) كما يقول لزوجته، سواد بشرتها سبب أساسي في ذلك، (غالبًا ما يكون السود أقل من في النجع حظًا في الزواج)، لم يدخلها المدرسة كما هو متعارف عليه بين أهالي الصعيد في تلك الفترة من عدم تعليم البنات.

كان خالد يرى في الأستاذ عبد الرءوف وكيل النيابة، القدوة والمثل الأعلى له، وذلك للمكانة التي يحظى بها بين أهالي النجع من احترام وتقدير، وأخذ رأيه في كل كبيرة وصغيرة، وذلك ليس لأنه

أحد أبناء عائلة أولاد علي، لكن بفضل علمه الذي جعل منه وكيل نيابة له سيط واسع بين أهالي المحافظة.

لذلك أحب خالد التعليم، واتخذ من كلية الحقوق هدفًا يسعى لتحقيقه، وأدرك أن الثانوية العامة هي المفتاح الذي يمكنه من الالتحاق بها، وعليه أن يجتهد إن أراد الالتحاق بها.

كان يذاكر بالساعات الطويلة، ولا يتوانى في تأدية ما يطلبه أبوه وإخوته من أعمال مرهقة وتأخذ جزءًا كبيرًا من وقته وجهده.. ربما كان لأمية أبيه عامل كبير في ذلك وعندما يزمزق خالد يعقد الحاج عبد الرحمن جبهته وتحمر عيناه ويشخط فيه بحدته المعتادة: (إحنا هناخد إيه من المدارس قوم فز اعمل اللي باقولك عليه).

كان لا يجد إلا في ظلمة الليل خير داعم له، حيث يعم السكون يفترش حصيرة من سعف النخل في مدخل الدار يضع عليها الطبلية ولمبة الجاز ويستغرق في الاستذكار، ولا يلتفت لصياح الديوك أو حتى خروشة الحيات في السقف البوص.

*****

(2)

مرت الأيام والتحق خالد بكلية الحقوق جامعة القاهرة كما أراد، بعد حصوله على مجموع متوسط، كانت توجد عقبة أمامه. (ابنك هايسكن فين في مصر يا عبد الرحمن) قالتها أمه لأبيه الذي قال: (في غرفة عمه محمود اللي مأجرها في عين شمس هو دلوقتي مابيسفرش علشان بيزرع الأرض اللي أخدها في الصحرا قفلها وبيدفع الإيجار أنا هاكلمه عشان خالد يسكن فيها).

على محطة قطار سوهاج يقف خالد في صُحبة أبيه على الرصيف المتجه للقاهرة، وقد أمسك بحقيبة سوداء ضخمة تحتوي على ملابسه التي اشترى بعضها من القيسرية في سوهاج لتلائم ذهابه إلى الجامعة، وبطانية صوف رمادية من مخلفات الجيش، وفي اليد الأخرى سبت من الخوص به الزوادة من جبنة قديمة وملوخية ناشفة وعيش شمسي قراقيش وزجاجة صغيرة معبأة بالمياه، كانت في الأساس معبأة بزيت سيارات.

أمسك الحاج عبد الرحمن بكتف خالد محدقًا في عينيه، وأخذ يشير له بأصبعه ويرص له قائمة طويلة من النصائح والتوجيهات، وما على خالد إلا أن يهز رأسه مطيعًا. أثناء ذلك كان المسافرون

يتوافدون على الرصيف، من عمال تراحيل فواعلية ذاهبين للعمل في القاهرة والإسكندرية ومدن القناة وعساكر مجندين في الجيش، ونساء يحملن أقفاصا مليئة بالطيور وأسبتة مليئة بالخيرات.

عندما توقف القطار في المحطة، أخذ الركاب يتدافعون ويتقاتلون ليظفروا بمقعد خشبي يجلسون عليه، كي لا يضطرون للوقوف أكثر من عشر ساعات على أرجلهم.

كان الحاج عبد الرحمن على علم بذلك، لما لديه من خبرة عريضة في السفر بالقطارات عندما كان عامل تراحيل، لذلك صاح في خالد أن يسرع وبالفعل قفز خالد قفزة فائقة وجد نفسه على أثرها فوق رءوس الناس، دخل القطار وحجز مكانًا بجوار النافذة، ثم نزل لكي يأخذ الحقائب، وودعه أبوه دون أن يبدي أية مشاعر كما اعتاد مع أبنائه، رغم أنه يحبهم كثيرًا إلا أنه يعاملهم بقسوة وغلظة ونادرًا ما يبدي مشاعر حب أو حنان تجاههم، وقد يكون ذلك بسبب العرف الذي نشأ عليه الذي يجعل من القسوة أهم مظاهر الرجولة، وتجعل من الأبناء قادرين على تحمل المسئولية.

عشر ساعات كاملة احتاجها القطار كي يقطع المسافة بين سوهاج والقاهرة، التي كلما اقتربت كبر الحلم داخل خالد.. إنه ذاهب إلى نفس المكان الذي تخرج منه الأستاذ عبد الرءوف قدوته ومثله الأعلى، وابتسم عندما لاحت له القاهرة من بعيد وهو يتمتم: (لا بد أن أكون مثله بل أكبر رأس في النجع).

نزل من القطار وأخذ يتخبط في الناس وهم يهرولون، وكأنهم يفرون من وباء قاتل، عند خروجه من المحطة وقف لحظات صامتًا، وقد اتسعت عيناه من الذهول وكأنه استيقظ للتو من غيبوبة طويلة، تغير خلالها الزمن عندما رأى القاهرة، بأضوائها الساطعة والمحلات الفخمة الكثيرة والسيارات المتراصة، حيث كان النجع عندما يحل الليل يغرق في ظلام دامس، والمحلات والسيارات التي به تعد على أصابع اليد الواحدة، لكن ما أدهشه حقًّا ونال كثيرًا من اهتمامه هي الملابس (المحزَّقة) التي ترتديها البنات والنساء، ووجودهن في ذلك الوقت المتأخر من الليل، كان شبه مستحيل أن يرى بنات غير أقاربه، حيث كانت البنت عندما تبلغ سن العاشرة لا تخرج من البيت، وإن خرجت تكون ملتفة بالبردة (تشبه الملاءة لونها أسود قاتم لا تظهر من المرأة شيئًا).

بالرغم من أن خالد لم يسافر خارج محافظة سوهاج قبل دخول الجامعة، لكن من خلال احتكاكه بالكثير من أقاربه الذين التحقوا بالجامعة أو سافروا وعملوا في القاهرة والإسكندرية وغيرهما من المدن، اكتسب الخبرة الكافية في كيفية تكوين العلاقات داخل الجامعة، ونوعية الملابس التي يرتديها، حتى لكنته الصعيدية حاول قدر الإمكان تغييرها، ومن يتعامل معه لا يشعر أنه قادم للتو من الأرياف، وقد نجح في تكوين صداقات عديدة ومتنوعة في الجامعة،

وفي البداية انضم لشلة تتكون من خُماسي غير متجانس وعلى اختلاف كبير في الثقافة والبيئة الاجتماعية.

****

بقدر ما كانت نادية شوقي تبدو فتاة عادية من الطبقة المتوسطة، لكنها أحيانًا كثيرة تبدو فتاة جميلة لافتة للأنظار من الطبقة الأرستقراطية، ذات قوام ملفوف ووجه خمري مستدير، صدر مكتنز راسخ، شفتان شهيتان، عينان سوداوان واسعتان، وشعر يسترسل خلفها كخيوط من الحرير حتى يكاد يلامس مؤخرتها، وابتسامة ثقة وكبرياء تلازمها ولا تفارقها إلا نادرًا وملابس جميلة متناسقة تبدو غالية الثمن، عندما تمشي تخطف أبصار من تمر بهم.

نادية هي الابنة الصغرى للأستاذ شوقي السيد، الذي كان يعمل موظفًا في هيئة البريد، والحاجة سنية ربة المنزل، لديها أخوان: عماد حاصل على ليسانس آداب قسم تاريخ منذ خمسة أعوام، بعد معاناة طويلة من البطالة والبحث عن وظيفة، عمل في محل بقالة يقضي فيه معظم وقته ويتقاضى أجرًا بالكاد يكفي للمواصلات والسجائر.

أختها لمياء الكبرى زوَّجها أبوها من أحد أقاربه، موظف يكبرها بخمسة عشر عامًا، ورغم ذلك كانت حياتها لا تخلو من وجود المنغصات لانخفاض دخل زوجها، وقد أبدى ندمه على ذلك بعد

التأنيب الذي ناله من الحاجة سنية التي كانت تقول له: (لازم نجوز نادية لواحد مش موظف، كفاية جوازة الندامة اللي جوزناها للمياء).

كانت نادية منذ نعومة أظافرها طامحة متمردة، وجمالها الفتان هو سلاحها لتحقيق أحلامها وتطلعاتها، وانتشالها من الحي الشعبي الذي تقيم فيه، الذي تنظر إلى قاطنيه باحتقار ودائمًا ما تستعلى عليهم، وعلى حياتها وترى أنها خلقت لتسكن القصور وتركب أحدث السيارات، ولمَ لا وهى تمتلك ما لم تمتلكه الكثير من النساء، وأنَّ من هن أقل منها جمالاً يتمتعن بأكثر من هذه المزايا. وكان دخولها الجامعة فرصة مناسبة لكي تبحث عن عريس ثري، يكون السلم الذي تصعد به إلى العالم الآخر الذي تحلم به، وتراه من وراء شاشة التلفاز في المسلسلات والأفلام وتضع نفسها مكان البطلة.

كانت ترفض كل من يتقدم لخطبتها لأنه ينتمي لنفس طبقتها، ويرجع الأمر في تزكية هذه المفاهيم لديها للحاجة سنية، لما واجهته في بداية زواجها من فقر وحرمان ومعاناة ودخل محدود يزيد ملاليم كل سنة، وقبل أن تفكر أو تحلم بشيء لا بد أن تعمل ألف حساب قبل أن تقدم عليه، فكل جنيه في المرتب يتخذ طريقًا محدودًا كل شهر يعرفه جيدًا، وإن حاد عنه كان عليها أن تقضي جزءًا من الشهر في معاناة حتى بداية شهر آخر.

****

الثراء الفاحش الذي ينعم به نادر، جعل منه شابًّا مستهترًا، حياته عبارة عن مجموعة من النزوات، يتباهى دائمًا بالسهرات الحمرات التي يقيمها ومغامراته النسائية التي لا تنتهي، الشيء الوحيد الذي يجيد القيام به هو كيفية إيقاع البنات في شباكه، وجعلهن كالدُّمَى يلهو بهن أينما شاء، وأسلحته في ذلك كثيرة، من هدايا كثيرة وقيمة يغدقها عليهن بدون حساب، وجاذبيته المتمثلة في ارتدائه أغلى وأحدث الملابس، وشعره المصفف بعناية، وجسده النحيل الرياضي.

نادر هو الابن الوحيد لرجل الأعمال سعيد الشيمي، الذي يمتلك أسهمًا عديدة في البورصة، ليداري على اتجاره في المخدرات، التي كون ثروة هائلة من خلالها جعلته في الصف الأول من أثرياء مصر، متجرد من كافة المشاعر الإنسانية والأخلاقية يتمتع بعلاقات كثيرة ومتعددة من رجال أعمال وتجار كبار وسياسيين بارزين ومثقفين وضباط شرطة، مكَّنته من الجمع بين السلطة والمال.

عندما يتواجد في أي مكان لا بد أن يكون النجم الذي يحظى بكل الاهتمام، عندما يتكلم ينصت له الجميع. لم يكمل تعليمه، لذلك كان يرى في نادر حلمه الذي لم يتحقق من دخوله جامعة القاهرة، وقد سعى جاهدًا أن يجعل نادر مثله وقتل أي جانب إنساني وعاطفي لديه، حيث يقول له دائمًا (الطيب يؤكل في هذا الزمن). ولا ينسى نادر أحد المواقف، عندما كان يجلس معه يشاهدان مباراة كرة القدم

وشعر نادر بالعطش، وعندما جاء الخادم وقال له: (كباية ميه يا عم بدر لو سمحت)، ظهر الغضب على وجه أبيه، وقال بحدة: (ليه بتقول لو سمحت؟! هو خدام وبياخد فلوس على خدمته لينا لازم تعرف كدا).

*****

سامي سراج الدين الابن الأكبر بين ثلاثة أبناء للدكتور الجراح سراج شهاب الدين والأستاذة فريال مدرسة التاريخ، كانا يعملان في الخليج منذ وقت طويل، وبعد حصول سامي على الثانوية، اكتفيا بسنوات الغربة الطويلة التي امتدت منذ بداية زواجهما وقد حققا ما يتمنياه من أحلام مادية، ليقررا أن يكمل أبناؤهما تعليمهم في القاهرة وكذلك يستفيد بلدهما بالخبرات التي اكتسباها خلال رحلتهما الطويلة في الخارج.

كان سامي يتمتع بجانب إنساني كبير، من الإحساس بالغير ومساعدة المحتاجين، وهو الجانب الذي اكتسبه من أبيه، الذي كان لا يتوانى عن مساعدة الفقراء وإجراء العمليات لغير القادرين بدون مقابل.

رغم أن سامي يقطن حي المعادى، لكن دائمًا ما كان يقارن بين ما رآه في الخارج وما يراه منذ مجيئه، حيث وجوه الناس الناطقة بالبؤس والشقاء و(طنطيطهم) على مدار أربع وعشرين ساعة، وما يقومون به من معجزات لكي يعودوا آخر اليوم ببعض الجنيهات

القليلة، والذي يدعو للسخرية أنها لا تكفي الحد الأدنى من احتياجاتهم، ورغم نشأة الترف التي تبدو على سامي في مظهره وملابسه وجسده الرياضي، لكنك تلمس التواضع في تصرفاته وبشاشة وجهه.

حصل على مجموع كبير في الثانوية العامة كان يؤهله لدخول إحدى كليات القمة، لكنه فضل الالتحاق بكلية الحقوق ولم يجد معارضة من أبويه اللذين كانا يحترمان كل رغباته إدراكًا بأنه قادر على التخطيط جيدًا لمستقبله.

*****

يقطن سيد عبد النعيم في حارة من حواري الجيزة، لديه ثمانية إخوة، ثلاثة ذكور وخمس بنات، يعمل أبوه عم عبد النعيم فراشًا في المحكمة، ولزيادة دخله عمل في مقهى بعد الظهر، لكن بعد تقدمه في السن أصبح لا يقوى على هذا العمل واكتفى بعمله في المحكمة، وهو ما أدى إلى تردِّي أحوالهم المادية أكثر، كان يستيقظ مع أذان الفجر يصلي ويأتي بالعيش والفول والفلافل الساخنة، ثم يتناول الإفطار مع أبنائه التسعة وزوجه قبل أن يذهبوا إلى المدرسة، بعد ذلك يرتدي بدلته النص كم البيج التي لم يغيرها طيلة مدة خدمته، لتكن شاهدًا على معاناته حتى صارت جزءًا منه، والطاقية الشبيكة البيضاء التي تخفى تحتها الشعيرات القليلة فى رأسه.

كان عم عبد النعيم نموذجًا للمواطن المصري المكافح، الذي يحارب من أجل الحصول على قوت أولاده، عندما تنظر إلى وجهه تلمس في عينيه الضيقة، وتجاعيد وجهه وشاربه الأبيض المتهدل، والأسنان القليلة في فكه، حزنًا عميقًا لما صار إليه حاله من فقر وحرمان، الذي كان سببًا مباشرًا في أنه لم يدخل جميع أبنائه المدرسة، إنما كان يدخل أحدهم ولا يدخل الذي يليه لتقليل النفقات، وقد تسبب ذلك في وجود فجوة وغيرة وحقد فيما بينهم، وفرح كثيرًا عندما التحق سيد أكبر أولاده بكلية الحقوق، وخاصة أنه يليه ثلاث بنات، وصار يضع عليه آمالاً كثيرة بأن يساعده عندما يتخرج ويعمل.

تتكون شقته من حجرتين وصالة لا تتعدى مساحتها خمسة وأربعين متر، حوائطها متآكلة وأثاثها قليل، توجد في الدور الأرضي لمنزل يتكون من خمسة طوابق، قديم ومتهالك مثل ساكنيه يستند عليهم ويستندوا عليه، وكلاً منهما أصبح جزءًا من الآخر لا يستطيع أن يفارقه أو يتخلى عنه، مدخله شبه مهدم تفوح منه أنواع الروائح كافة، الشقة لا تدخلها الشمس، ونظرًا لقربها من الأرض، كان الغسيل يمثل لهم مأساة حقيقية تعيشها الأسرة كل أسبوع، وتنقلهم بين الجيران لتنشير الغسيل. إحدى الحجرتين مخصصة لوالديه، والحجرة الأخرى للخمس بنات، أما سيد وإخوته الذكور فيفترشون الصالة ليلاً، ويتراصون فيها كما يتراص الطوب في الجدار. الفول

والفلافل ضيفان ثقيلان دائمًا على مائدتهم في كل وجبة، وعندما تخطئ اللحمة وتزور منزلهم يحتفلون بها كما يحتفل الأثرياء بأعياد الميلاد. يوجد المنزل في حارة لا يتعدى عرضها ثلاثة أمتار ولا تخلو من مظاهر القذارة والفقر، معظم المنازل فيها متلاصقة ومتلاحمة، حتى إنك لو جلست في الشرفة هربًا من حرارة الجو، ولتشم نسمة هواء وترى نور الشمس، وذلك غالبًا لا يحدث، سترى وبكل وضوح معالم شقة الجيران وكأنك فرد منهم.

لا يوجد شيء اسمه الخصوصية في قاموسهم، وكثيرًا ما كان يستيقظ سيد على صيحات وضجيج إحدى المشكلات، في الغالب تكون على أتفه الأسباب، وإن أردت الحياة بأمان فيجب أن تكون مقاتلاً إن لم يكن بالذراع فباللسان.

كانت الحارة بمثابة البيت الكبير الذي يأوي جميع السكان، حيث تجلس معظم النساء بعد العشاء في فصل الصيف على أعتاب منازلهن، بأجسادهن الممتلئة يتبادلن أطراف الحديث في مجالس النميمة ويتناولن أدق تفاصيل حياتهن وأسرارهن، وتبدو تحت أثوابهن الخفيفة ملابسهن الداخلية الضيقة، التي تحز في أفخادهن المربربة العامرة باللحم والشحم، وعندما يمر عليهن شخص غريب يصوبن نحوه نظراتهن الفاحصة، وكأنه عدو اقتحم عليهن خلوتهن، وعندما يأتي زوج إحداهن حاملاً كيس فاكهة أو بطيخة تتبادل معهن الابتسامة، وترسم على وجهها سعادة غامرة وكأنها امتلكت

الدنيا ونظراتها الفاجرة التي تتباهى وتعلنها صريحة بأنها سترتوي اليوم من الحب.

تجد الأطفال الذين يلعبون الاستغماية بملابسهم المتسخة وشبه عرايا، وقد تسمع منهم ما لا يسرك من أقذر الألفاظ والشتائم، والشباب عندما يحل الظلام يقفون على النواصي يرتدون الأنسيال ويدخنون السجائر، ولا شغلة لهم سوى معاكسة البنات، وبعد منتصف الليل يتوافدون على غرزة سامبو، لتدخين أحجار البانجو ليتصاعد الدخان كما تتصاعد ضحكاتهم واصواتهم، وأحيانًا كثيرة يتشاجرون وترى المطاوي في أيديهم، وكلٌّ منهم يريد أن يثبت أنه أرجل من في الحارة، لكن سرعان ما تنفض ويعودون كما كانوا وكأن شيئًا لم يكن.

*****

في بداية الدراسة الجامعية، كان يوجد بعض من التناغم بين الأصدقاء الخمسة، رغم اختلاف ثقافتهم والتنوع الطبقي بينهم، كان كل واحد منهم يجد في الآخر ما يفتقدة. خالد ونادية وسيد يرون في ثراء نادر حلمهم بأن يتشبسوا بطرف الطبقة الغنية، حتى ولو من خلال صداقة أحد أبناء هذه الطبقة، ويستفيدون كثيرًا من خلال العزومات الكثيرة التي تكون دائمًا على نفقته.

أما نادر فكان يرى فيهم مجموعة من الفقراء الجهلاء الذين يستعرض عليهم ثراءه، ويشعر بينهم بالتميز، ودائمًا ما كان يظهر ذلك لهم من خلال كلامه وتصرفاته ونظرة الاحتقار التي يرمقهم بها.

أما سامي فيُعتبر همزة الوصل بينهم جميعًا، إنهم دائمًا في حاجة إليه وإلى رأيه في المشكلات التي يواجهونها، وهو يتميز بعلاقاته وصداقاته المتعددة مع معظم زملائه بالجامعة، حتى جاء ذلك اليوم الذي افترق فيه الأصدقاء، ولم يجتمعوا أبدًا بعد ذلك بل زاد بينهم الغل والحقد.

داخل الحرم الجامعي كانوا يقفون يتحدثون عن أمانيهم وأحلامهم في المستقبل، حيث بادر نادر بالكلام قائلاً:

- الشهادة مش ح تفرق معايا في حاجة لكن مهمة جدًّا بالنسبة لبابا لدرجة أنه ربط كل حاجة أطلبها بحصولي عليها.

قال سامي:

- أنا باحب العمل العام ودراسة القانون ودا من أسباب دخولي كلية الحقوق ويكون ليا دور في المجتمع وأساعد الناس الغلابة...

ظهر الامتعاض على وجه نادر وقاطعه قائلاً:

- عمل عام إيه يا عم سامي وناس إيه اللي تساعدهم دي ناس عاوز الحرق.

تدخل خالد قائلاً:

– أنا لا عندي بابا يجيب لى اللي أنا عاوزه ولا عاوز أعمل في عمل عام ولا حاجة أنا طموحي أكون وكيل نيابة.

قال نادر في سخرية:

– طموح إيه اللي عندك؟! وكيل نيابة مرة واحدة! اللي زيك عمرهم ما يبقوا حاجة خالص أنت والبني آدم دا (يقصد سيد) انتم تشتغلوا بالكثير في قهوة بلدي دا لو اشتغلتم.

رمقه خالد بنظرة طويلة حادة وقال وهو يحاول أن يتمالك نفسه:

– أنت فعلاً زكيبة فلوس بتلبس أغلى حاجة وبابي بيجبلك كل حاجة لكن أكتر حاجة ممكن تفهم فيها وتقدر تعملها إنك تتريق على خلق الله وتتباهى بفلوس أبوك.. أنت وأمثالك وجودكم أكبر دليل على الفساد اللي إحنا فيه.

أثناء ذلك لم يتكلم سيد أو يرد على إهانة نادر، بل اكتفى بالانسحاب من المكان، وكانت من عاداته التي يتخذها في مثل هذه المواقف، وربما تكون نشأة الفقر والحرمان وإحساسه الدائم بأنه أقل من أقرانه حتى وإن كانوا فقراء، جعلت منه إنسانًا ضعيف الشخصية مهزوزًا فاقد الثقة وكل شيء، وقد تسبب له الكلام في ألم شديد وغادر المكان وهو ينظر إلى الجامعة بحزن وانكسار ومذلة.

قبل أن يتطور الموقف همت نادية بالتدخل قائلة:

– جرى إيه يا جماعة انتم أصحاب وما ينفعش تهينوا بعض كدا.

تبادل خالد ونادر نظرات نارية ثم غادر خالد المكان.

نظر سامي لنادر وهو يهز رأسه، ثم قال:

– أنت يا ابني ماعندكش إحساس! لازم تضايق كل الناس وتتعالى عليهم علشان معاك فلوس؟

غادر سامي أيضًا ولم يأبه لنداء نادية ولم يظل مع نادر سوى نادية، وكأن ما حدث لا يفرق معها في شيء حيث إنها لا تريد أن تخسر نادر.

*****

أثناء سيره في الطريق، أخذ خالد يفكر في المشادة الكلامية التي حدثت مع نادر، ورغم ثقته الكبيرة بنفسه، التي جعلت منه شخصية قوية يصعب جرحها، إلا أن كلام نادر وضع يده على الجرح الذي طالما كان يتجنبه أو يتجاهله، كي لا يحبطه أو ينال من عزيمته ويجعله يتخلى عن أحلامه، إنه من عائلة فقيرة أبوه فلاح بسيط غير متعلم ومستحيل أن يصبح وكيل نيابة، الأستاذ عبد الرءوف لم يكن وكيل نيابة إلا بسبب جاه ونفوذ عائلته التي لها سيط في الصعيد كله. استمر في السير وهو شارد الذهن مغيب الوعي، حتى وجد نفسه في ميدان رمسيس وقد نما بداخله غضبه وسخطه على الأغنياء، كل الأغنياء قد رأى فيهم نادر الشاب المستهتر ابن المليونير، الذي يحصل على كل شيء ويمتلك كل شيء بدون وجه حق، وهو يسمع مثل كثيرين عن اتجار أبيه في المخدرات لكن لا أحد يحاسبه، وما يدعو للسخرية أنه يعامل كنجم من نجوم

المجتمع، الجميع يخدمه ويأتمر بأمره، وأبوه ومن هم على شاكلته من الشرفاء الفقراء، يعيشون في قحط على الهامش وأصبحوا مجرد رقم في خانة بالبطاقة.

*****

(3)

أقام خالد في حي عين شمس، في الحجرة التي يستأجرها عمه في منزل عم حامد، الذي يعيش وحيدًا بعد موت زوجته التي كان يعتبرها سنده في الحياة، لا ينسى حينما وقفت إلى جانبه ولم تتخلَّ عنه، رغم ثبوت أنه عقيم حتى بعد أن خيرها بأن تظل على ذمتة أو يطلقها، لكنها كانت ترفض وبشدة وتقول له بحب وحنان وعيناها تفيض بالدموع:

- أنا هاروح فين بعدك يا حامد إحنا ملناش غير بعض أنت ابني وزوجي وربنا يجعل يومي قبل يومك.

استكملا الحياة سويًّا لقرابة ثلاثين عامًا، كانت فيها الزوج المحبة المخلصة لزوجها لم تشعره يومًا بنقصه، بل دائمًا تشعره بأنها في غاية السعادة، كانت لطيفة المعشر سديدة الرأي مخلصة النصح، وقد زادت وحدته عند خروجه على المعاش منذ فترة قصيرة، وعندما تنظر إلى عينيه الجاحظة ووجهه الشاحب المليء بالتجاعيد وانحناء ظهره، قد تظن أنه تعدى الثمانين عامًا، وكأنه ينتظر الموت بهدوء كما تفعل الأفيال حتى يلتقي بزوجته.

كان إخوته وأولادهم نادرًا ما يعطفون عليه بزيارة في الأعياد، التي ربما يكون سببها الأول الاطمئنان على أنه قد قارب على الموت، لكي يظفروا بالمنزل الذي هو غايتهم وأملهم.

يوجد في الدور الثاني من المنزل، سيد. موظف بالسكة الحديد وزوجه وثلاثة أبناء، الذي يستأجر الشقة بعقد إيجار قديم لا يكلفه أكثر من عشرة جنيهات شهريًّا، رغم محاولات عم حامد المستمرة لزيادتها ولو قليلاً، وقد كانت علاقته بخالد عادية جدًّا لا تتعدى كونه ساكنًا مثله في المنزل.

أما الدور الثالث فتسكن فيه سميرة وزوجها عادل، الذي يعمل نجارًا، ونظرًا لانحصار عمل زوجها وضيق أحوالهم المادية، كان دائم السفر للعمل في الدول العربية، ولحبه الشديد لها كانت النقود التي يتحصل عليها لا تكاد تستقر بين أصابعه إلا لحظات، حيث يرسل لها كل ما يتحصل عليه من أموال أولاً بأول، مما جعل الفرصة سانحة أمامها للبحث عن مغامرات عاطفية، وإشباع احتياجاتها الجسدية ورغبتها الشديدة في الرجل.

كانت مطمعًا لمعظم الرجال في الشارع، لما تتمتع به من جسد ناصع البياض مفعم بالحرارة والرغبة، ووجه متورد بحمرة تضفي عليه مزيدًا من الجمال، ونهدين مكتنزين متوثبين، وشفتين ملتهبتين حمراوين، وعينين واسعتين داعيتين غامزتين، وشعر ناعم

ينسدل على كتفيها بخصلاته السوداء والصفراء، وضحكة مميزة كلها خلاعة ودلال.

على سطح المنزل توجد حجرة خالد، حجرة ضيقة دهان حوائطها من الجير وسقفها من الخشب شبه متآكل، ويعتبر مأوى مناسبًا للفئران وأنواع الزواحف كافة، يوجد بها سرير حديدى صغير وترابيزة خشبية، يضع عليها خالد بعض الكتب والأغراض.

في بداية إقامته في الحجرة، كانت علاقته محدودة بمعظم سكان المنزل والشارع، لكن بعد فترة قصيرة لاحظ نظرات سميرة له، التي كانت تخترق كل حواجز الحياء المعروفة عنده، حيث نشأته الريفية وعدم سنوح أي فرصة لإقامة علاقة عاطفية سواء مع فتاة أو امرأة.

كانت سميرة تشتهر في الشارع بسوء سلوكها وتسلط لسانها، الذي من خلاله يمكنها أن تواجه حيًّا بأكمله من اللئام، ورغم أنها كانت حريصة كل الحرص على ألا تقيم علاقة مع أحد من الشارع أو الحي الذي تسكن فيه، لكن كان ينسج حولها حكايات من الخيال، وما كان عليه خالد من طول قامته وجسد ممشوق وصدر واسع عريض وسمار وعينين ثاقبتين أدخلته سريعًا دائرة اهتمام سميرة، لكن ذلك محفوف بالمخاطر، حيث كان لها منهج ثابت ووجهة نظر صائبة وعين خبير في اصطياد فرائسها، وهى في الغالب لم تُقِم أي علاقة مع أحد يعرفها، بل إن معظم من أقامت معهم علاقة كانوا من محافظات أخرى، كانت تستدرجهم عندما

تذهب إلى زيارة أهلها في مدينة المنصورة، أو عندما تذهب إلى الإسكندرية في الصيف، كذلك لم تستمر علاقتها بأحد إلا أيامًا قليلة جدًّا سرعان ما تنتهي وتنساه وتبحث عن آخر. فكرت كثيرًا قبل أن تقدم على إقامة علاقة مع خالد، الأمر الذي قد يفضح أمرها ويرفضها خالد، وتكون بمثابة ذلة يمسكها عليها وينتشر أمرها بين قاطني الشارع، وعندها لن يتوقف الأمر على حكايات إنما ستكون واقعًا، ولا تنسى عندما كانت تدخل فى مشاجرة مع إحداهن وتلمح بشيء كانت تمسح بكرامتها الأرض (تقول لهن: اللي شاف عليا حاجة من رجالة الشارع يقول)، وما كان يقلقها أكثر أنها كانت ترى خالد جالس في المقهى الصغير الموجود بالقرب من المنزل، مع المعلم أبو النواس صاحب المقهى وبعض أصحاب المحلات.

أرادت أن تختبره في البداية حيث بدأت تعرض عليه أن يساعدها في أمور بسيطة وتبدو عادية لترى رد فعله نحوها، حينها سوف تقرر وتأخذ الخطوة التي تنتظرها بفارغ الصبر.

*****

كانت سميرة تنظر من البلكونة غير معنية بأعين الرجال التي تتفحصها بشراهة ونهم، ولم تحاول أن تخفي ابتسامة أطلت على وجهها، حينما رأت خالد وهو عائد من الجامعة، أسرعت بالدخول وأخذت تستعدل فتحة الصدر في العباءة التي ترتديها، جاذبة إياها لأسفل لتكشف عن معظم صدرها، وتسوي خصلات شعرها الناعم،

لتفتح الباب وقد وقفت على السلم حيث أمسكت بسجادة وتظاهرت بتنظيفها وقبل أن يصعد خالد ألقى عليها التحية، ردت عليه بابتسامة كلها دلال وقد وقف خالد لحظات، لكي يتفادى الغبار الذي أحدثته السجادة، نظرت له بعينها الماكرة والشهوانية وقالت:

- ممكن يا خالد تغير لي لمبة الصالة علشان اتحرقت؟

قال خالد وقد ثبت نظره على الأرض:

- حاضر.

دخل خالد خلفها وهى تمشي أمامه بتسكع وميوعة، لتحضر اللمبة وكرسيًّا يصعد عليه، وبين لحظة وأخرى يخطف نظرة سريعة لمؤخرتها الطرية سرعان ما يستغفر الله عليها ويعاود النظر إلي الأرض.

صعد خالد على الكرسي وهو ممسك باللمبة، وطلب منها أن تسنده، أمسكت بالكرسي وتقارب جسداهما وشعر بأنفاسها الحارة، وكأنها تطلق دعوة مفضوحة ليرتوي من جسدها الساخن، بأعصاب مهتزة وضع اللمبة، وهو ينزل وقعت عيناه على فتحة صدرها، وقد تدلى نهداها خارج فتحة العباءة، تحركت الشهوة بداخله وشعر بوخزة ألم من فرط الشهوة، لكنه لملم ما تبقى لديه من أعصاب وغادر سريعًا، وقال متحاشيًا النظر إليها وكأنه يحلم أو يحاول تكذيب ظنه وما يراه في صوت متقطع:

- أى.. خدمة تانية؟

ببراءة الأطفال قالت وهى تغلق الباب:

– شكرًا يا خالد ربنا يخليك ليا وما يحرمنيش منك.

بمجرد أن أغلقت الباب ارتمت على السرير، وأخذت تتقلب محتضنة الوسادة وقد غمرتها سعادة طاغية، وأدركت بما لديها من خبرة رغبة خالد الشديدة فيها وراحت تحلم بذلك الشاب القوي.

* * * * *

كان سعيد الشيمي متجردًا من كافة المشاعر الانسانية والضمير، وقد احتار منافسوه وأعداؤه كثيرًا في إيجاد طريقة للقضاء عليه، والتخلص منه وإيجاد نقطة ضعف له، وذلك لذكائه الشديد وحرصه الدائم، فهو لا يقدم على أية خطوة إلا ويكون خطط لها جيدًا، لكن ربما تكون نقطة ضعفه الوحيدة علاقاته النسائية المتعددة، التي امتدت لتشمل جميع الطبقات والفئات العمرية، بداية من بنات ليل متمرسات وراقصات وسيدات مجتمع وزوجات بعض أصدقائه وبنات في الجامعة، حتى الخادمات والفلاحات لم يُرحمن من استغلاله وانقضاضه عليهن، سواء كان برضاهن أو إجبارهن على ذلك، المهم أنه لم يترك امرأة اشتهاها إلا ونالها، لكن مع ذلك لم تمتد علاقته ومضاجعته لإحداهن أكثر من مرتين أو ثلاث على الأكثر إلا فيما ندر، وكان يحرص على ذلك وكأن كل هدفه مضاجعة أكبر عدد ممكن من النساء.

كان لديه جيش من أفراد الحراسة المدربين، الذين يستخدمهم للمظاهر أو لإضفاء شيء من الرهبة والهيبة على كل منافسيه أو لحراسة القصر أو في موكب الحراسة الذي لا يستطيع أن يخرج من دونه، وكان أهمهم ماهر الحارس الشخصي ويده اليمنى، أينما يوجد سعيد باشا لا بد أن يوجد ماهر ولا يفترقان إلا عند الذهاب إلى الحمام أو في غرفة النوم، بل نستطيع أن نقول إنه مقيم دائم معه في القصر. يتمتع ماهر بطول فارع وعضلات مفتولة وبراعة مطلقة في أساليب القتال وضرب النار، كان سعيد باشا يستخدمه في تيسير أعماله كافة، وفي القضاء على كل من أزعجوه من المنافسين، ومن بين هؤلاء سلامة بهنس صديقه وشريكه أيام الشباب والضياع.

بدآ الاتجار سويًّا في المخدرات عندما كان سعيد باشا في الخامسة والعشرين من عمره، كان عاطلاً يتنقل من مقهى إلى آخر في الإسكندرية، يتسكع في الشوارع ويقوم ببعض السرقات والنشل، حتى تعرف على سلامة في إحدى الغرز ومن حينها أصبحا لا يفترقان أبدًا، حيث مارسا السرقة بالإكراه وبعض عمليات النصب، وبعد أن أصبحا مطلوبين من الشرطة اتجها إلى ترويج العملة المزيفة لصالح بعض تجار العملة.

كانت دائرة علاقات سلامة أوسع نسبيًّا من سعيد، وبعد أن تعرف على تاجر مخدرات في القاهرة، قرر أن يغير نشاطه وألح كثيرًا على سعيد، كي يشاركه وكان يرفض، لكن مع تضييق الخناق

عليهما من قبل الشرطة في الإسكندرية، وافق واتجه الاثنان إلى القاهرة. في البداية كانا يوزعان البانجو لصالح أحد التجار لكن سرعان ما تركاه وعملا لحسابهما، وزادت أرباحهما وتحسنت أحوالهما المادية كثيرًا وادخرا مبلغًا من المال لا بأس به، عندها قرر سلامة أن يتوقف، وحاول كثيرًا مع سعيد قائلاً:

– كفاية علينا كل اللي عملناه وكسبناه نفتح مشروع بالحلال وأنت عارف أن البوليس مش ح يسيبنا في حالنا ولو اتقبض علينا حندخل السجن ونخسر كل حاجة.

لكن سعيد رفض بإصرار بعد أن رأى المكسب الكبير والسريع، والحق يقال أن سعيد كان لديه شجاعة وذكاء أكثر من سلامة، وما لبثا أن اقتسما المال وافترقا بعد صداقة دامت أكثر من عشر سنوات ومضى كلٌّ منهما فى طريقه، حيث أكمل سعيد الاتجار في البانجو، وكان يقول دائمًا: (لو أمسكت بطرف الخيط سوف أكون مليونيرًا)، وقد كان. بعد فترة تحول للاتجار في الحشيش، وهو كيف له زبائنه من فئات المجتمع كافة الغني والفقير الرجل الكبير والشاب الصغير، بالإضافة أن مكسبه أعلى وأكثر أمنا من البانجو، الذي كان يفرض عليه التعامل مع فئات معينة، حتى تعرف على بابلو أحد كبار جالبي الهيروين إلى مصر والشرق الأوسط، وأقنعه بالتحول إلى الهيروين، لأن مكسبه أعلى بكثير من الحشيش والبانجو بالإضافة إلى أن مخاطرة أقل بكثير، ويسبب الإدمان السريع لمن يتعاطاه

وزبائنه من أغنى وأرقى فئات المجتمع. كان قد اتفق معه على أن يكون هو منفذه في مصر، بعد أن ضاق ذرعًا من التعامل مع عوض البيومي الذي يمتلك سوق الهيروين خاصة والمخدرات عامة في مصر، وبالفعل بعد اتجاره في الهيروين، استفحلت ثروته ومن ثم اتسعت دائرة علاقاته بل تخطت كل الحدود، وصار له نفوذ هائل جعل منه نجمًا لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه، والآن أصبح يستأثر بالنصيب الأكبر من تجارة الهيروين والمخدرات في مصر. أما سلامة بهنس فأخذ نصيبه وفتح مطعم فول وفلافل في أحد الأحياء الشعبية، لكنه لم يدم طويلاً حيث فشل وخسر فيه كل ما ادخره، وذاق الأمرين بعد ذلك في عدة أعمال مؤقتة ليستقر به الحال عاملاً في إحدى شركات القطاع الخاص براتب ضئيل، وبعد أن دارت الأيام وذاع صيت سعيد وأصبح من كبار رجال الأعمال، تذكر سلامة صديقه والأيام الخوالي، وأنه كان سببًا في هذا النجاح، وقرر الاستفادة من هذه الصداقة، وإن لم يكن لا يجد غضاضة في أن يبتزه ليحصل على مبلغ من المال.

*****

بذل سلامة جهدًا مضنيًا لكي يحصل على عنوان القصر الذي يقطن فيه سعيد باشا، وقد حزن كثيرًا عندما ألمَّ بمدى الوضع الذي آل إليه سعيد، وأخذ يلوم نفسه، لماذا فارقه ولم يرضخ لرغبته بأن يظلا شريكين، وإن استمرا في تجارتهما وجازفا فلن يخسرا شيئًا،

حتى وإن ألقي القبض عليهما فقد سبق وأن دخلا السجن لأسباب عديدة، وها هو قد نجح بالفعل لكن بمفرده، والآن صارت النواحي المادية تقاس بينهما بالسنوات الضوئية.

كان قصر سعيد باشا يقع في حي المعادي، محاطًا بسور أسمنتي ارتفاعه لا يقل عن مترين، يقف في حراسته فردا أمن.

اقترب سلامة من القصر بحذر وقبل أن يتكلم بادر أحد أفراد الأمن قائلاً:

– عاوز إيه؟

– عاوز اقابل صاحب القصر.

حدق الحارس في سلامة وأخذ يتفحصه؛ حيث ارتاب في أمره وقال في لهجة حادة صارمة:

– الباشا ما بيقابلش حد من غير ميعاد.

– ممكن تقول له سلامة بهنس صديقك.. عاوز يقابلك في حاجة مهمة.

قهقه الحارس وقال في لهجة أكثر حدة وصرامة وقد اقترب من سلامة:

– باقولك الباشا مش فاضي وامشي من هنا.

– أنا مش هامشي وأنت هاتقوله اللي قولتهولك ودا علشان حاجة مهمة.

أخرج الحارس جهاز لاسلكي واتصل بماهر يخبره بالأمر.

كان سعيد باشا يجلس في حديقة القصر الشاسعة في حالة استرخاء تام، وهى من الطقوس المعتادة التي يحرص عليها صباح كل يوم حيث اقترب منه ماهر قائلاً:

– في واحد اسمه سلامة بهنس يا باشا عاوز يقابلك.

لم يسمعه ليكرر ماهر الكلام ثانيةً:

– واحد اسمه سلامه بهنس يا باشا طالب يقابلك.

انتبه سعيد باشا ثم نظر إليه في دهشة، وقال في صوت خافت:

– مين سلامة بهنس ومن امتى بقابل حد من غير ميعاد؟!

وفي حدة:

– أنت نسيت شغلك واللا إيه يا ماهر؟

– آسف يا باشا لكن بيقول إنه كان صديقك وعاوز يقابلك ضروري.

نظر إليه نظرة طويلة، ثم قال:

– بتقول اسمه إيه؟

– سلامة بهنس يا باشا.

أخيرًا تذكر هذا الاسم، إنه صديقه. وأخذ يحدث نفسه ما هو الموضوع الضروري الذي يريد أن يقابله لأجله بعد كل هذه السنوات.

قام ماهر بتفتيش سلامة جيدًا قبل أن يدخل، وكانت هذه من الإجراءات الضرورية عند دخول أي شخص غريب القصر، وقد انتابت سلامة حالة من الذهول والانبهار عندما رأى القصر من

الداخل، حيث بدا له مثل قصور ألف ليلة وليلة، وشرد فيما سيقوله أثناء سيره في الممر الطويل المتعرج المؤدي إلى حمام السباحة المحاط بالخضرة والورد من الجانبين، ليجد نفسه أمام سعيد باشا وراح يدقق النظر إلى جسده الضخم الممتلئ وكرشه البارزة قليلاً ووجهه "الملظلظ" ورأسه الصلعاء وعينيه الحادتين وقد أحيطتا بهالة من السواد وحاجبين كثيفين وشارب عريض تدلى على شفته العليا، وسريعًا انطلق مادًا يده ليصافحه لكن سعيد باشا أظهر عدم اهتمام.

قال في هدوء وهو لا يزال يجلس في حالة استرخاء:

– إيه اللي جابك؟!

في سرعة ولهفة:

– أنت نسيت يا سعيد أيام زمان!

– باقولك إيه اللي جابك؟ أنا معنديش وقت أضيعه معاك.

– أنت نسيت إن أنا السبب في اللي انت فيه دا؟ والدنيا لطشت معايا عاوزك تساعدني.

فى نبرة يشوبها حدة:

– بتقول إيه؟ أساعدك! هو أنا فاتحها سبيل واللا جمعية خيرية؟

– يعنى تقدر تقول نصيبى.

قام سعيد باشا ثم جلس ورفع النظارة ونظر في حدة إلى سلامة، ثم قال:

- نصيبك!! يا ترى نصيبك اللي أنت عاوزه يبقى كام؟

- نص مليون.

نظر إليه سعيد باشا باحتقار وأطلق ضحكة عالية وقال في صوت جوهري حاد:

- اخرج بره ومش عاوز أشوف وشك مرة تانية فاهم؟

- أنا هاخرج وحاديلك مهلة أسبوع لو ما أخدتش الفلوس أنا حاتكلم وأقول كل حاجة وأنا عندي صور ومستندات... وأنت طبعًا فاهمني.

ظهرت ملامح شيطانية على وجه سعيد باشا سرعان ما أخفاها وقال في برود:

- يعني يا سلامة لو أخدت الفلوس حاخد الصور والأوراق ومش حاشوف وشك تانى.

- أكيد يا باشا دا أنا خدامك.

- تمام يا سلامة بكره حابعتلك الفلوس مع ماهر بس يا ريت تقوله على العنوان وتتفق معاه على ميعاد يروح لك فيه بالفلوس.

غادر سلامه يملأه شعور بالنشوة والسعادة، غدًا سيصبح لديه نصف مليون جنيه، تنتشله من الضياع بعد أن بدد كل ما كان يكتسبه من أموال على العلاقات المحرمة التي أدمنها منذ أن كان مراهقًا، وبسببها لم يتزوج إلى الآن حتى صار يصارع الوحدة والفقر والحرمان.

**

في الموعد المحدد تمامًا طرق الباب، تهلل وجه سلامة عندما فتح الشُراعة ورأى ماهر يحمل حقيبة، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء ويرفع الحقيبة.

فتح سلامه الباب، وقبل أن يتكلم عاجله ماهر بعدة طلقات من مسدس كاتم للصوت، أزاح الجثة بقدمه ثم أخذ يبحث بصبحة اثنين عن أي شيء يحتفظ به، وله صلة بسعيد باشا، وبعد عناء وقد بعثر كل محتويات الشقة وجد الأوراق والصور، ثم أخرج من الحقيبة مادة سريعة الاشتعال وبعثرها في كل ركن من أركان الشقة وأشعل النار.

*****

بعد كثير من التثاؤب والتقلب يمينًا ويسارًا، نهضت نادية من الفراش في الثامنة صباحًا كما هو معتاد عند ذهابها إلى الجامعة، أخذت حمامًا دافئًا لتخرج وقد أصبحت مثل الوردة المتفتحة ذات الرائحة العطرة التي تنتظر من يقطفها ليستمع بجمالها. أمام مرآتها أخذت تداعب خصلات شعرها الناعم وهي تنظر لها بتمعن، ارتدت كل ما يكشف مفاتن جسدها ويبرزها، ثم أعطت قبلة لوالدها الذي كان يقرأ الجريدة كما يفعل صباح كل يوم منذ خروجه على المعاش المبكر، وقد أعطاها مصروفًا كبيرًا، وقال وهو يبتسم: (علشان تاخدي تاكسي لحد الجامعة)، وهي من المرات القليلة التي ترحم من

زحمة المترو والمواصلات، وما يترتب عليها من أفعال يقوم بها بعض الشباب، من مد أحدهم يديه ولمس مؤخرتها خلسة في الزحام ومن يصطنع المرور خلفها وحك جسده في جسدها، ونادرًا ما كانت تسلم من هذه الأفعال.

رغم توطد الصداقة بين نادر ونادية وكونهما ملازمين لبعضهما داخل الجامعة وخارجها، في ذهابهما إلى النادي أو السينما والكافيهات وحتى في الإستاد لمشاهدة مباراة كرة القدم، وهي تشجع بحرارة النادي الذي يشجعه، نستطيع أن نقول إنهما كانا لا يفترقان إلا عند عودتهما للمنزل، وقد استنفد نادر كل الطرق من كلمات رقيقة ومداعبة وإغداقها بالهدايا القيمة والثمينة لكي ينال منها شيئًا لكن هيهات جميعها باءت بالفشل، ولم يأخذ منها أكثر من إمساك يدها، وهو ما يبدو متناقضا لما تبدو عليه نادية وما ترتديه من ملابس (محزقة)، حيث يظن البعض إنها فتاة مستهترة سهلة المنال، لكنها تخفي وراءها فتاة قوية صلبة تعرف جيدًا ما تريد وتأخذ أكثر مما تعطي، وكما يقول بعض الشباب (إنها تسخن ولا تبردشي). أما نادر فلم ييأس من اقتناصها، وقد اهتدى تفكيره إلى حيلة شيطانية لاستدراجها إلى شقته في مصر الجديدة (شقة المزاج) كما يسميها أو الوكر الذي يستخدمه في قضاء الليالي الحمراء، كما يفعل سعيد باشا عندما تكون فى صحبته إحداهن، لا يذهب بها إلى القصر وإنما إلى هذه الشقة، ولا يمكن للشجرة

الخبيثة أن تطرح شيئًا طيبًا. كان نادر يعرف الموعد الذي يقوم فيه أبوه بتلك المغامرات التي غالبًا ما تكون ليلة الخميس والجمعة من كل أسبوع.

دعاها للتنزه معه كالمعتاد ولا مانع من مداعبتها ببعض الكلمات التي تطرب لها وتدغدغ مشاعرها، وأمام بناية في مصر الجديدة أوقف السيارة لتنظر له نادية في دهشة وتقول:

- إيه اللي وقفك؟

- عاوز أجيب حاجة من الشقة.

- ايدا هو انتم عندكم شقة هنا كمان؟

- طبعا يا بنتي هو أنت فاكره ايه.

ثم استطرد في براءة:

- إيه رأيك تطلعي معايا عشان عاوز آخد رأيك في التجديدات اللي عملناها والديكورات الجديدة وأنتِ عارفة رأيك يهمني قد ايه.

نظرت له نادية نظرة طويلة، ولم تتكلم وكأنها تقول له إنها تفهمه وتكشف نواياه هزت رأسها بالموافقة وهي تقول: أتفرج بس عشان أنت عارف إن ما ينفعش نقعد في شقة لوحدنا.

لكن نادر بمنتهى الخبث أوحى لها بأنها من الممكن أن تكون شقة الزوجية. صعدت نادية وقد اضطرت لتلبية رغبته خشية أن تغضبه وتفقد حلمها في أن تتزوجه.

أعطى نادر المعلوم لبكري البواب، وهي العادة التي يتبعها عندما تكون في صحبته إحداهن، وكان بكري يستفيد جدًّا من هذه الشقة حيث يتولى تنظيفها وإحضار الطلبات وطبعًا الخنصرة من وراءها.

أمام الباب توقفت نادية وكأنها ندمت وقد ترددت في الدخول ليقول نادر سريعًا وليقطع عليها كل سبل التردد والتفكير:

– أنتِ خايفة واللا ايه؟! ادخلي يا بنتي هو في إيه اعتبريها زي أي كافيتريا بنقعد فيها.

دخلت في خطوات حذرة متعلثمة كطفل يتعلم المشي حديثًا، وقد انبهرت للحظات بالشقة حيث مساحتها الواسعة التي تكاد تقارب خمس شقق مثل شقتهم، ومن الأثاث الفاخر والديكورات الرائعة والبار الصغير الذي لم تره إلا في أفلام الأبيض والأسود، وراحت تتخيل نفسها تمتلك هذه الشقة. نعم إنه المكان الذي تحلم به بل وأكثر منه. اتجه نادر إلى الثلاجة وأحضر زجاجة بيرة وأخذ يشرب، وما زالت نادية تنظر وتتمعن في كل ركن من أركان الشقة، حتى أفاقت على صوت نادر اللاهث وهو يقول:

– خدي اشربي.

استدارت نادية إليه ونظرت إلى عينيه اللامعة، في ريبه وقالت:

– أنت قلت إنك هاتجيب حاجة ونتفرج على الشقة وننزل، وأنا خلاص اتفرجت.. أنا حانزل علشان ما اقدرش أقعد أكثر من كده.

اقترب منها ثم قال:

- إيه يا بنتي دي بيرة!

حاولت نادية الابتعاد عنه، لكنه أمسك بها محاولا تقبيلها، قاومته وحاولت الفرار منه وقد وجدت صعوبة في ذلك حتى اختل توازن نادر لتدفعه بقوة ويرتطم بأحد الكراسي، تناولت حقيبتها وجرت نحو الباب وغادرت، وقد استيقظت من الحلم الذي كانت تعيش فيه وأملها في الزواج منه تبدد وأصبح سرابًا، مستحيل أن ينظر لها على أن تكون زوجته إنها بالنسبة إليه رغبة وشهوة لا أكثر إن نالها ستصبح بلا قيمة.

*** * * * ***

كان سيد يشعر بالغربة داخل الجامعة الشخص غير المرغوب فيه وسط الشلة بل في الجامعة، حيث نمت داخله عقدة النقص والحرمان والغيظ، ملابسه دائمًا ما تفضح فقره، وكان وجود نادر كفيلاً بأن يزيد من إحساسه بتلك العقدة وتضييق الخناق عليه بالتهكم أحيانًا والسخرية أحيانًا أخرى، ورغم وجود من هم على شاكلته إلا أن حقده وغيظه من الأغنياء جعله يكره كل شيء داخل الجامعة وشيئًا فشيئًا يهجرها تمامًا، وانعزل عن الجميع وظل ملازمًا للبيت أياما وأسابيع.

لم يرحم خلالها بكاء أمه وحزن أبيه، وتوسلات أشقائه للذهاب إلى كليته وممارسة حياته، حتى وجد ضالته، حيث بدأ يواظب على الصلاة بعد أن كان لا يصلي إلا الجمعة، والذهاب إلى المسجد

الكائن في الحي لأداء الصلوات الخمس بانتظام والرجوع إلى المنزل وقراءة القرآن الكريم، وقد فرح أبواه كثيرًا بذلك ظنًّا بانصلاح حاله، وبمرور الوقت انجذب إلى دروس الشيخ عابد الحاصل على دبلوم زراعة ونظرًا لحفظه أجزاء من القرآن الكريم، وبعض الأحاديث النبوية الشريفة، ما كان إلا أن اتخذه أهالي الحي الطيبون إمامًا لهذا المسجد كذلك إعطاء دروس شبه يومية بين المغرب والعشاء.

كان أكثر شيء يلفت النظر في الشيخ عابد لحيته الكثة الطويلة السوداء، وتجهم وجهه الذي يخفيه أحيانًا بابتسامات ليست من القلب، وقد يزداد تجهمًا من خلال نبرة صوته العالية والانفعال الزائد من فرط الحماس. وسريعًا انسجم سيد في هذا العالم حيث وجد مبتغاه في حلقات دروس الشيخ عابد، ومن يحضرونها وهم تقريبًا في مستوى مادي وفكري واحد، لا يوجد بينهم من يشعره بفقره أو يتعالى عليه ويسخر منه، بل إنهم يتعاملون معه باحترام وود شديد ويسمعونه ويقدرون رأيه وكلامه جيدًا، وهو الشيء الذي كان يفتقده في الجامعة بين زملائه لكن في المسجد يتعاملون مع بعضهم كإخوة في الله، لا فرق بين الغني والفقير كلهم سواسية وعلو المكانة والمنزلة يكون على قدر العلم والالتزام بأمور الدين.

وكان عليه تنفيذ الخطوات الثابتة من إعفاء لحيته وتقصير الجلباب أو البنطلون وتقليد الشيخ عابد في تجهم وجهه، وراح

يحلل ويحرم كل شيء، وكان منزل أبيه المكان الوحيد الذي يستطيع من خلاله ممارسة تلك السلطة.

*****

هيأت سميرة نفسها تماما لاستقبال صيدها الجديد، ما كانت تسعى إليه وجدته وتأكدت من رغبة خالد القوية فيها، وقد اهتدت إلى حيله لتجعله يأخذ المبادرة حيث كانت بين الحين والآخر تستعين به لمساعدتها في بعض الأشياء التي تبدو عادية.

كان خالد يقوم بإعداد وجبة العشاء ويدندن بأغنية أم كلثوم (الحب كله) وقد شرد ذهنه في نادية وإحساسه بالسعادة عندما يراها أو يتحدث معها، من غير المعقول أن تكون هذه مشاعر زميل تجاه زميلته، لا يعرف هل يحبها؟ أحيانًا ينتابه إحساس بأنه فعلاً يحبها، لكن حب من طرف واحد؛ إنها تتعامل معه على أنه زميل دراسة أو صديق لا أكثر، بل إنه يلاحظ انجذابها لنادر وهما يقضيان معظم اليوم سويًّا ونادرًا ما يفترقان، حينها يشعر بنار الغيرة تأكله والحقد والغضب يملآنه، إنها الفتاة التي تمناها وفكر كثيرًا أن يصارحها بمشاعره، وليكن ما يكون، لكنَّ شيئًا ما كان يوقفه، ربما يخشى من أن تجرح كرامته التي يعتز بها دائمًا، إنه نادر عدوه الذي يأخذ كل شيء والآن زادت أسباب بغضه وكرهه له.

أفاق على صوت سميرة تناديه بدلال، ارتدى ملابسه ونزل سريعًا وقد ازدادت دقات قلبه، وجد الباب مغلقًا وبعد لحظات من التردد طرق الباب، وذهل وسابت أعصابه عندما فتحت...

*****

سطع نجم سامي في كلية الحقوق بالاشتراك في العديد من الأنشطة الطلابية مع بعض زملائه وتأسيس أسرة الرواد، المسئولة عن الأنشطة الثقافية والرياضية والاجتماعية والترفيهية في الكلية وكتابة بعض المقالات فى مجلة الجامعة، حيث كانت منفذًا مهمًّا للتواصل فيما بين الطلبة، وقد نجح سامي في أن ينال ثقة زملائه وأساتذته ويرأس اتحاد الطلبة في الجامعة.

أظهر سامي موهبة في تلك المقالات نالت إعجاب هيئة التدريس، إلى أن كتب مقالاً رائعًا عن انعدام الحريات في دول العالم الثالث وأسبابها في تأخر هذه الدولة، ونال المقال إعجاب رئيس تحرير جريدة مستقلة، وطلب من سامي أن يكتب في الجريدة، ورحب سامي كثيرًا واعتبرها أولى خطواته على الطريق الصحيح، رغم أنه لم يخطط له وكانت بداية كاتب موهوب.

*****

كانت سميرة ترتدي قميص نوم أحمر شفاف يكشف عن ملابسها الداخلية وجسدها الأبيض الناعم، وبعد لحظات من الصمت قال خالد وهو يحدق فيها ويتمعن في جسدها غير مصدق ما يراه:

- بتنادي عليا؟

قالت محاولة إخفاء الرغبة في عينيها في لهجة تبدو جادة:

- ممكن تصلح لي فيشة الغسالة؟

أمسك خالد بالفيشة وقد وجد بها قطعًا يبدو مفتعلاً، انحنت لتمسك شيئًا على الأرض، لامست يده مؤخرتها عن غير عمد.

كانت رغبته فيها قد تأججت، نظرت له وأظهرت غضبًا مصطنعًا، جذبها بالقوة محاولا الإمساك بها.

قالت في صوت لاهث متهدج وبدأت أعصابها تهيج وأنفاسها تتلاحق لتمتزج بأنفاسه:

- لا يا خالد أنا باعتبرك أخويا...

جرت من أمامه ولم يخيِّب ظنها حيث جرى وراءها وكأنه أسد جائع يطارد فريسته دخلت غرفة النوم وارتمت على السرير، ارتمى عليها وقام بتمزيق ملابسها. لم يتركها إلا وكل قطعة في جسدها تئن بالألم.

متعة ولذة لم تكن تحصل عليها من قبل، رغم كثرة من ضاجعها، وقد أحست كأنها طائر يحلق في الفضاء حيث وجدت سميرة في خالد الرجولة والفحولة القادرة على إشباع غرائزها المتأججة. طلبت منه أن تظل علاقتهما سرية ولا يفشي بها لأحد مهما كان حتى أقرب أصدقائه.

عاد خالد إلى حجرته وقد خارت قواه، نام على السرير وأخذ يحدق في السقف ينتابه شعور بأنه يسبح داخل حلم جميل، لكنه سرعان ما أفاق منه ليستيقظ على ضميره الذي أخذ يأنبه على ما فعله وانجرافه نحو الرذيلة، إنه لم يغضب الله من قبل، بل كان يحرص كل الحرص على إرضائه، لكنها الشهوة التي تغلبت عليه أخذ يضرب رأسه في الحائط وهو يبكي بحرقة.

*****

(4)

بعد أن توفي أبواها في حادثة وهي لا تزال في الخامسة من عمرها أقامت سحر مع خالتها في مدينة المنصورة، وبعد أن تلطمت بين أهل أبيها، لم تجد منهم إلا النذالة والجفاء، أخذها أحدهم إلى خالتها التي كانت تعاملها بحنان وعطف وتعتبرها بمثابة ابنتها وهي في مثل عمرها تقريبًا، لكنها كانت تعيش في مشكلة كبيرة اسمها عوني زوجها، الذي يعمل موظفًا في هيئة السكة الحديد، حيث كان شديد القسوة سيئ الخلق، يرى في سحر تلك الطفلة الصغيرة، حِملاً كالجبل يحمله على أكتافه.

كان شديد القسوة يعاملها بعنف وفظاظة لا مثيل لهما، عندما يوجد في المنزل لا يرتاح أو يهدأ إلا عندما يراها وهي تؤدي عملاً ما، ومن الأشياء التي تسعده حينما ينفخ دخان الشيشة في وجهها وهي تضع الفحم على الحجر.

عندما يراها تأكل يشعر وكأنها تأكل في آخر زاده وسيعاني بعدها من مجاعة، أو كأنها تمسك بخنجر وتسدد له مجموعة من الطعنات مع كل لقمة تضعها في فمها، كانت خالتها ضعيفة منكسرة قليلة الحيلة أمامه، والتهديد بالطرد أسهل شيء إن أبدت أي اعتراض

على أفعاله، لم يرضخ لتوسلاتها بإدخال سحر المدرسة حيث كان يقول بعد أن يحتد عليها: (هو إحنا قادرين نأكل نفسنا علشان ندخلها المدرسة كفاية إننا بنطفحها هو أنا خلفتها ونسيتها).

عانت سحر من مرارة اليتم المبكر وقسوة زوج خالتها، وبعد مرور عدة سنوات عاشت فيها في شقاء وحرمان، كانت كالخادمة لم ترتدِ ملابس جديدة قط، إنما كانت تحصل على ملابس ابنة خالتها القديمة، لو شعرت بالجوع لا تستطيع أن تفتح باب الثلاجة لتخرج شيئًا تأكله إنما تنتظر أن يأذن لها وكثيرًا ما كانت تقتات على بقايا الأكل مثل القط في أي منزل، كل شيء كانت تحصل عله بحساب.. الأكل.. النوم.. الكلام.. الضحك.. مشاهدة التليفزيون.. حتى النفس كان بحساب.

بعد نضوج وفوران جسدها السريع وهي لم تتعدَّ خمسة عشر عامًا أصبحت سحر محط أطماع عوني، الذي كان يتفحصها بنظراته الشيطانية، لم يتوانَ عن أن يتحين الفرصة ليتحرش بها من وقت لآخر ولا يجد غضاضة في مد يده ولمس صدرها أو جسدها حتى حانت له الفرصة لينقض عليها، عندما أجرت ابنته عملية جراحية وكانت أمها تقيم معها بعض الليالي في المستشفى.

*****

حددت نشأة خالد الريفية جانبًا كبيرًا من شخصيته، رغم علاقته المحرمة مع سميرة، كان سرعان ما يسترد طباعه الريفية ويشعر

بالندم، وكما كان يجلس في النجع مع من هم أكبر منه، والإنصات بشغف إلى الحكايات التي يرونها وأفاده ذلك كثيرًا في حياته.

عندما أقام في القاهرة منذ قدومه للدراسة لم يكن ليقطع هذه العادة، حيث كان يجلس مع بعض قاطني الشارع، الذين صاروا يألفونه بسبب روحه المرحة وقدرته الفذة على مخاطبة أي شخص بحميمية وود واكتساب صداقته بسرعة مدهشة.

كان يحرص على زيارة عم حامد بين الحين والآخر الذي كان يسعد كثيرًا بهذه الزيارات التي تخرجه ولو قليلاً من الوحدة التي صارت تتملكه بعد وفاة زوجته.

لا ينسى خالد أول مرة دخل فيها شقة عم حامد التي تبدو كأطلال منزل قديم من القرون الوسطى، الأثاث القديم جدًّا الذي يفوح منه عبق الماضي، لكنه يبدو بحالة جيدة كأن لم يجلس عليه أحد من قبل، والصور الأبيض والأسود الكثيرة التي تشعرك بأنك ما زلت في الزمن الجميل أو ممثل في فيلم أبيض وأسود.

كانا أحيانًا يجلسان معًا ويشاهدان التلفاز الذي كان يفتخر به عم حامد قائلاً: (أنا أول واحد أشتري تليفزيون في الحي كله)، وبينما هما يشربان الشاي الذي أعده خالد قال عم حامد في صوت ضعيف:

– والله يا ابني زيارتك دي بتسعدني...

أكمل والدموع تكاد تسقط من عينيه:

– أحسن من اخواتي وأولادهم اللي بالشهور ما أشوفش وشهم ولا حتى يتصلوا.. وعاوزني أموت النهاردة قبل بكرة عشان يورثوني.

– ما تزعَّلش نفسك يا عم حامد مفيش حاجة تستاهل.

– أنا زعلان من الدنيا اللي وصل حالها كده.. زمان كان فيه ود وحب صادق بين الناس، الجيران كانوا عيلة واحدة لو جارك عامل أكلة كويسة يجيب لك منها والعكس، لكن الأيام دي الجار بالعافية يقول لك صباح الخير، وكل حاجة كان فيها بركة وخير كتير أنا كنت باخد اتناشر جنيه مرتب، لكن كنت عايش كويس وباشتري كل حاجة نفسي فيها وبأدخر منهم، دا أنا اشتريت البيت من المبلغ اللي ادخرته، لكن أيامكم دي كل حاجه بقت غالية والناس عايشة على الطعمية اللي بتتقلى بزيت زي زيت العربيات والفول المسوس. دا إحنا في أيام ما يعلم بيها إلا ربنا.

*****

فقدت نادية الحلم الذي راودها وطالما سعت إليه، لم تقتنع مطلقًا بنادر لم ترَ فيه الرجل الذي تحلم به، حيث كانت في داخلها تحتقره وتعتبره أتفه إنسان في الوجود، لكن ما كانت تحلم به هو وضعه الاجتماعي وأمواله، وإن تزوجته فسيكون من السهل أن تسيطر عليه، ويكون لعبة في يديها تحركها كيفما شاءت وتحصل منه على ما تريد، وتصبح برنسيسة ملكة متوجة نادية هانم زوجة نادر سعيد الشيمي، لقب يستحق التضحية. وهي إلى الآن لم تقابل من يخطف

قلبها، كل الرجال بالنسبة إليها سواء، وإذا كان عليها أن تختار بالعقل يعتبر نادر أفضل اختيار لديها، وجاءت محاولة اغتصابها لتوقظها من غفوتها ومن البرج العالي الذي كانت تضع نفسها فيه، حيث إن جمالها وحده لا يكفي بل لا يساوي شيئًا، وإن كانت جملية هناك من هن أجمل منها، كما قالت لها إحدى زميلاتها: (يا بنتي هو فين وأنتِ فين دا لما يفكر يتجوز يبص لواحدة بنت مليونير أو وزير). وقد تيقنت من ذلك، بعد أن ابتعد نادر عنها نهائيًّا، وعاد كما كان يتنقل من فتاة لأخرى واستمر على ذلك لفترة طويلة، وأنه كان يريد جسدها وفي النهاية كان سيتركها مثل الأخريات إنها لم تكن بالنسبة إليه أكثر من رغبة... رغبة فقط.

*****

رغم دخْل عوني المحدود إلا أنه ينفق السواد الأعظم منه على الكيف حيث أدمنه منذ أيام الصبا، بداية من السجائر التي بدأ بها عندما كان في الصف الأول الإعدادي مرورًا بالبانجو في المراهقة لينتهي بالحشيش، تستطيع أن تقول إن له باع طويل مع الكيف، ومع ذلك كان يعتمد على نفسه في تدبير متطلبات الكيف وتنقله بين العديد من المهن الحرفية بداية من الثانية عشرة من عمره، وعندما تجاوز العشرينات توسط له أحد معارفه لينال وظيفة في هيئة السكة الحديد، ولم يتوانَ عن صرف كل راتبه على الكيف وقد احتار أبوه كثيرًا معه، ولم يجد مفرًّا إلا زواجه لعله يهتدي ويبتعد

عن تلك السهرات ومجالس الكيف، وبالفعل بعد الزواج انقطع عن تعاطي الحشيش فترة ليست بالطويلة، كان فيها يجاهد نفسه وأصدقاء السوء لكن سرعان ما خارت قواه، وانهارت مقاومته وعاد سيرته الأولى، حيث مجالس الحشيش المعتادة، وقد صار يعتمد عليه في الإعداد لهذه الجلسات وتصيت المعلم (كبير القعدة) من يتولى الإنفاق عليها، وكان على زوجته أن تخرج للعمل لتدبير نفقات البيت، بعد أن صار لا يعطيها من راتبه شيئًا، عملت خادمة في المنازل، حيث تذهب إلى بعض شقق الموظفات الكبار، تمسح الشقة وتغسل الملابس وتطبخ الأكل، وكانت تتعامل مع ست موظفات، تخصص لكل واحدة منهن يومًا في الأسبوع وأربع مرات شهريا وتأخذ خمسين جنيهًا شهريًا، وبعض المواد التموينية، وأحيانًا يعطفون عليها بالملابس القديمة، وسارت بها الحياة على ذلك، ولكن كان عوني من سيئ إلى أسوأ، وخاصة عندما ينتهي راتبه قبل نهاية الشهر، يجور على ما تتحصل عليه سواء برضاها أو بالإجبار، وهي دائما منكسرة بائسة لا تستطيع أن تغضبه خوفًا من بطشه وجبروته، فهو كالبركان إن ثار لا يستطيع أحد إيقافه، وأسهل شيء يفعله أن يفتح الباب ويطردها هي وابنتها وابنة أختها، حين ذلك لا تعرف أين تذهب، خاصة أن أخاها عيد استولى على شقة أبيها بعد وفاته وتزوج فيها من امرأة سليطة اللسان، حيث كان لا يمضي عليها يوم إلا وتحدث مشكلة مع أمه، حتى أنها ضربتها

في أحد الأيام بعصا المكنسة ولم ترحم شيخوختها، وهو لا يحرك ساكنًا بل إنه أودعها دار المسنين إرضاء لزوجته، وعندما كانت تشتكي له من عوني وأفعاله، كان يقول لها: (أنا أعملك ايه الواحدة لازم تستحمل جوزها). تتذكر أنها عندما أرادت أن تأخذ أمها من دار المسنين، رفض عوني وبشدة، وهو إن سمح أن تعيش سحر معهم، لم يكن إلا ليجعلها خادمة في المنزل، ويستفيدون من وجودها، لكن ما الذي يمكن أن يستفيده من امرأة عجوز مريضة تريد من يخدمها؟ عندئذ قررت نعمات أن تثور لأول مرة منذ زواجها، إنها أمها وقلبها ينفطر كل يوم لأجلها عند زيارتها في دار المسنين، وبعد مشاجرة عنيفة مع عوني كسر فيها ذراعها وطردها اضطرت أن تذهب لأخيها، ولم تمكث عنده إلا يومًا واحدًا كان كافيًا لطردها من قبل زوجته شر طردة بل وقال لها: (أنا مش فاضي ليك ولمشاكلك مع جوزك مش عاوز أشوفك تاني).

كلما تذكرت ذلك كانت تبكي بحرقة، ولم يكن أمامها إلا أن ترجع وتستسلم حتى عندما يضاجعها بكل قسوة، في أيام كثيرة تكون فيها متعبة ومنهكة، من الخدمة طيلة اليوم في البيوت تمسح وتغسل وتطبخ وهي تقول (ضل رجل ولا ضل حيطة).

*****

تقرب سيد كثيرا من الشيخ عابد وصار أحد تلاميذه المقربين، كان ينفذ كلامه وتوجيهاته دون مناقشة أو أدنى تفكير، ومحاولا

تقليده في كل شيء وإعطاء عقله إجازة طويلة، ولماذا يفكر ويجهد نفسه وعقله، وهو يثق به ثقة عمياء ويعتبره النموذج الأمثل للرجل الصالح المتدين الورع والعالم الفذ الذي لا يخطئ، وتعلم أن لا يحب ويحترم أحدًا إلا على قدر التزامه بالدين، انقلب حال سيد تمامًا من إنسان مهزوز فاقد الثقة خجول منكسر، يجد صعوبة كبيرة في التواصل مع الآخرين، دائمًا ينتابه شعور بالنقص وأنه أفقر إنسان في الوجود، إلى إنسان واثق بنفسه معتز بكرامته، يرى جميع الناس أمامه سواء وأقل وأتفه من أن يهابهم، بل إنه بعد التزامه صار أعلى قدرًا منهم، ومكانة الإنسان عند الله لا تتحدد بما يمتلك وإنما بمدى التزامه وتدينه، وها هو بعد أن وفقه الله لاختيار الطريق الصحيح، يشعر بأن النور يملأ حياته، واعتبر نفسه مسئولاً عن إخوته وسوف يحاسبه الله إن لم يحاول هدايتهم، حيث بدأ في تحريم التليفزيون وإجبار إخوته؛ البنات على ارتداء النقاب والذكور على الصلاة وهو ما لاقى نفورًا غير عادي، وحدوث مشاجرات ومشاحنات دائمة بينهم، وقد صار وجوده في المنزل كافيًا بأن يفجر براكين الغضب، ولولا دموع أمه ومحايلتها لأبيه لكان طرده من البيت، وحتى عندما تدور بينها وبينه مشادات عن الحلال والحرام تحاول إراحته وامتصاص غضبه، لكن في إحدى المرات فاض بها الكيل لتصرخ في وجهه قائلة:

– أنت ربنا تحلل وتحرم!؟ أبوك عايش على وش الدنيا بعد ما يموت اتحكم. وبعدين الدين قال لك تعامل أمك واخواتك كده؟

– أنا كنت في ضلال والحمد لله ربنا هداني وفرض عليا أني أخليكم تلتزموا.

– يا ابني انتبه لدراستك وبلاش اللي في دماغك إحنا طول عمرنا كده هو أنت اللي على آخر الزمان هتغيرنا، وأنت مش وصي على اخواتك ولا على أي حد عاوز تعيش في البيت يبقى خليك في حالك ولو مش عاجبك وضعنا ابقى فارقنا.

خسر سيد كل جولاته حتى في الأرض التي من المفروض أن تكون المكان المناسب لتنفيذ أوامره، ولم يقف على هذا بل زادت معاناته مع أهله لتتحول حياته وحياتهم إلى جحيم.

****

يكاد لا يمر يوم دون أن يلتقي خالد وسميرة، وقد وجد كلاهما ما يفتقده في الآخر، الصدر الحنون الذي يستوعبه ويحتويه، يفتح له قلبه ويحكي عن مشاكله وهمومه. شهور طويلة مرت على علاقتهما ولا يرتويان أبدًا من الحب.

كانت غرفة خالد الملاذ الآمن لهما بعيدًا عن الأعين، ولم يقتصر الأمر على الإشباع الجنسي فقط، بل تعدى ذلك حيث أصبحت حياة شبه زوجية وخاصة بعد أن عمل لها نسخة من مفتاح الحجرة، كانت تشتري الخضار وكافة الاحتياجات في الغالب

يكون من مالها، وتصعد في الظهيرة تنظف الحجرة وتعد الطعام وتغسل ملابسه المتسخة، وفي منتصف الليل تغلق على طفلتها بعد أن تنام، ثم تتزين كما العروس في ليلة دخلتها، وتتمنى أن تطير لتصعد إليه وقلبها يكاد ينفجر من شدة الخفقان، وهو يقابلها بالقبلات الحارة والأعناق، ثم يتناولان الطعام ويحتسيان الشاي ويقصان لبعضهما ما حدث في يومهما، ثم يمارسان الجنس حتى الساعات الأولى من الصباح.

كان خالد في البداية يرى فيها المرأة الفاجرة التي تبحث عن الجنس وإشباع غرائزها، لكن بعض مرور الأيام اكتشف أنها لم تكن تبحث عن الجنس، بقدر ما كانت تبحث عن الأمان وحضن الرجل الذي يحتويها، كان يشعر عندما يضمها بأنها تذوب في حضنه كقطعة الثلج في الماء، وكأنها طفلة صغيرة تختبئ في حضن أبيها من شيء ترهبه.

كان يقول لنفسه: (لا يمكن أن تكون فاجرة بطبيعتها لا بد أن حدث شيء أرغمها على ذلك)، وأحيانا أخرى عندما تنام ينظر إليها ويتمعن في وجهها ويتعجب من تلك المرأة الآثمة، التي تجد متعتها مع رجل آخر غير زوجها وكيف أنها تنام بتلك الوداعة دون خجل مما تفعله؟!

*****

حدث ذلك عندما كان عوني عائدًا من إحدى سهرات الكيف يترنح ويضحك، الساعة تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل، وإذ به يفتح الباب ليجد سحر نائمة على الكنبة في الصالة في وضع مثير وقد تعرت ساقاها، للحظات وقف يحدق فيها ويهز في رأسه ثم اقترب منها، وضع يده على ساقيها وأخذ يتحسسهما، بدأ لعابه يسيل، خلع ملابسه وانقض عليها كالثور الهائج، استيقظت سحر حاولت أن تقاومه أو تصرخ لكنها أضعف بكثير من أن تفعل ذلك، وضع يده على فمها واغتصبها بكل عنف ولم يرحم بكاءها وتوسلاتها، وهي تقول لا يا عمي حرام عليك، بعد انتهائه قال وهو يلهث مهددًا: لو حد عرف حاجة أطردك أنتي وخالتك في الشارع.

بعد ليلة كالدهر قضتها سحر في نحيب وانهيار شديد، زادت من معاناتها معاناة جديدة أشد وأعمق تأثيرًا، لم تعرف ماذا تفعل؟ تقول وتفضح ذلك الرجل ونفسها، لكن من سيصدقها؟ ومن الممكن أن تعرض خالتها للطرد وهي تعرفه جيدًا، من السهل عليه أن ينفذ تهديده، وخالتها لا تستحق منها ذلك وهي مغلوبة على أمرها، أم تسكت وتظل تعيش معه في بيت واحد، لكنها اختارت الحل الأصعب والأكثر قسوة عليها بعد طلوع الشمس قررت أن تهجر هذا الجحيم، وهي لا تدري أين تذهب. ظلت تمشي وليس معها إلا كيس صغير، يحتوي بعض ملابسها القديمة وثلاثين جنيهًا، كانت ادخرتهم من النقود القليلة التي تحصل عليها من خالتها، وفي محطة القطار

استقلت القطار المتجه إلى القاهرة لكي تذهب لأحد أقارب أبيها في لعلها تجد عنده الأمان.

*****

أخيرا حسم خالد أمره بعد صراع نفسي طويل ما بين حبه الجارف الصامت لنادية والخشية من أن يصدم في مشاعره، حيث كان يتحين الفرصة ليصارحها بحبه وعندما تأتي شيء ما يجعله يتراجع، حتى شعر أن الأيام تكاد تمر من بين يديه حينها لن يسامح نفسه.

بعد انتهاء إحدى المحاضرات، كانت نادية متألقة كعادتها لكن بدون نادر وهي من المرات القليلة التي تتواجد فيها داخل أسوار الجامعة ولا تكون في صحبتة، انتهز خالد الفرصة واقترب منها في خطوات متلعثمة يفكر في الكلمات التي سيقولها واستجماع شجاعته، رغم أنهما زملاء وأصدقاء وكثيرًا ما يكون بينهما حوار ومرح إلا أن هذه المرة يشعر أن جبلاً ثقيلاً جاثمًا على لسانه، وبكلمات قليلة مقتضبة قال:

- نادية عاوزك في موضوع...

ابتسمت نادية وقالت:

- موضوع إيه؟

- ممكن نتكلم في الكافتريا؟

جلس الاثنان وكان الاضطراب يبدو علي خالد لتقول نادية مداعبة:

- في إيه يا خالد؟ إيه الموضوع اللي عاوزني فيه؟

- أنا ...

أخذ رشفة شاي ولم يستطع أن يكمل وكأنه تلميذ لم يعمل الواجب ويقف أمام مدرسة قاسية، لتقول نادية:

- أنت إيه يا خالد؟

- أنتِ عارفه إنك بالنسبة لي ...

هنا استنتجت نادية ما يريد خالد قوله، وقبل أن يكمل بذكاء وهي تبتسم بادرته قائلة:

- أنا عمري ما ألاقي صديق زيك يا خالد، أنا بعتبرك زي أخويا.

- بس يا نادية؟!

- وفي أكتر من إنك تكون أخويا!

هز خالد رأسه ببطء، وقد همت واقفة قائلة:

- أنا هاسيبك علشان بسنت كانت عوزاني.

****

بعد أن تورمت قدماها من المشى والبرم في الشوارع، لكي تصل إلى العنوان الذي يقطنه قريبها، كانت تنتظرها صدمة أخرى حيث ترك قريبها هذا المسكن وانتقل لآخر ولا أحد يعرف إلى أين ذهب. خارت قواها تمامًا من التعب والإجهاد والإحباط، وأحست بأن الدنيا أظلمت أمامها، كان يمثل آخر أمل لها وكأنه القشة التي حاولت التشبث بها، وها هو أصبح سرابًا. ظلت تمشي هائمة علي وجهها

والدموع تسيل على وجنتيها، وكل شيء من حولها يتلاشى وكأنها تمشي في صحراء تصرخ ولا تسمع إلا صدى صوتها، بعد أن أعياها التعب والحزن والإحباط وجدت نفسها على كوبري قصر النيل، وقفت تنظر للنيل وكلاهما يشكو للآخر من قسوة البشر، فكرت مليًّا وجديًّا أن تلقي بنفسها وتطوي آخر صفحة في حياتها لكن هزت رأسها وهي تمتم:

- لا... لا...

لم تكن تخشى الموت أو متمسكة بالحياة، إنها لم ترَ يومًا سعيدًا منذ أن وعت على الدنيا، لكن ما يوقفها أنها تخشى الله، كانت تعرف وتدرك وقد سمعت كثيرًا، أن من يموت منتحرًا يدخل النار هل تخسر الآخرة أيضًا؟! من بعيد لاح لها الأمل، عندما رأت فتاة في مثل عمرها تقريبا تبيع مناديل ورقية، تعرض على الواقفين على الكوبرى من مخطوبين ما زالوا يتتحسون طريقهم ويطلقون الضحكات في منتهى السعاده والنشوة، وبعض الذين عندهم مشاكل وهموم ولا يجدون إلا النيل لينفسوا عن أنفسهم ولو قليلاً بعيدًا عن صخب الحياة، وبعض الطلبة والطالبات الهاربين من المدارس، الذين يقضون الوقت فى التسكع سويًّا حتى يحين موعد خروج المدرسة حينها يذهبون لمنازلهم.

خطرت لسحر فكرة أن تفعل مثل هذه البنت، ولم لا؟ ليست أحسن منها في شيء ليس أمامها حل إلا ذلك، لكن من أين تأتي

بهذه المناديل؟ وقد تذكرت أنها عندما جاءت إلى القاهرة مع خالتها لتشتري ملابس العيد من العتبة، رأت هناك كل شيء يباع من ملابس، ومواد غذائية، وخردوات وأكسسوارات، وعطور وكريمات، وبالفعل اشترت مناديل بما تبقى لديها من نقود، وقررت أن تبيع على المقاهى لتتجنب مافيا المتسولين والمشردين، كان تفكيرها كامرأة ناضجة وليست فتاة صغيرة تخطت عامها الخامس عشر بقليل وربما "المرمطة" والذل الذي رأته في حياتها ساعدها كثيرًا على ذلك وجعل منها فتاة صلبة.

*****

بعد انقطاع دام طويلاً بين نادر ونادية، حيث كان نادر يتنقل من فتاة لأخرى كعادته محاولاً الظهور أمامها في ثوب الدنجوان، وأنها كانت نزوة عابرة، لكن عندما كان يراها في صحبة أحد، بين الحين والآخر ينتابه غضب لا يعرف له سببًا، هل يحبها، لذلك يغار عليها؟! أم أنه الشعور بالهزيمة وأنها أول بنت تقف أمامه ولم تستسلم له؟ أم لأنه لم ينلها وما زالت لديه رغبة فيها؟! يمكن أن يكون السبب هذا أو ذاك أو كل الأسباب مجتمعة، لكن الذي يعرفه جيدًا أنها لم تفارق تفكيره منذ آخر مرة التقيا فيها، وقد حاول كثيرًا أن يتمرد على انجذابه إليها، ولم يفلح حتى أثناء لحظات النشوة في لقاءاته الملتهبة، كان يرى وجهها في كل أنثى وأحيانًا كثيرة عندما يكون جالسًا مع بعض أصدقائه ويراها تفضحه عيناه، عندما يطيل

النظر إليها، كانوا يلاحظون ذلك ويلفتون نظره أحيانًا وهم يضحكون، ويسخرون من تعلقه بها أحيانًا أخرى، وأخيرًا قرر أن يعيد العلاقة كما كانت، لن يغالط نفسه ويكابر أكثر من ذلك، إنها فعلاً تمثل له شيئًا مهمًّا، لا يعرفه لكنه يرتاح عندما تكون فى صحبته، لم يصادف بنتًا مثلها وجد فيها كل الصفات من جمال وذكاء وثقة بالنفس وأناقة وتفتح مغلف بالأخلاق، وقد جرب ذلك بنفسه بعد أن ظن أنها سهلة المنال فرت من بين يديه. وكما يقولون الممنوع مرغوب.

أما نادية فقد تحطم كبرياؤها وبعد أن كانت تمشي فوق السحاب سقطت فجأة لأدنى أرض وصارت محط سخرية وشماتة صديقاتها، لم تستمع لنصائحهن بأن طريق نادر محفوف بالمخاطر وأن علاقتها به سوف تسيء لها، كانت تلازمه طيلة الوقت لعلها تتزوجه، وهو يخطط لاغتصابها والآن لا يعيرها أي اهتمام، وكثيرًا ما تمنت أن يأتي إليها يطلب منها السماح ويطلبها للزواج، حينها فقط ممكن أن تسترد كرامتها أمام صديقاتها.

اشترى نادر هدية غالية الثمن وانتهز فرصة جلوسها بمفردها فى كافتريا الكلية، حيث اقترب من ورائها ببطء ووضع الهدية أمامها وهو يقول:

– ممكن مولاتي تسمح لي بالجلوس؟

*****

يعتبر سامي الوحيد الذي لم تنقطع علاقته بأصدقائه، بل نستطيع أن نقول إنها كانت تتوطد بمرور الوقت وقد صار نجم الجامعه، حيث إنه رئيس اتحاد الطلبة، ويكتب في مجلة الجامعة، وأيضًا لما لديه من ثقافة وأفق واسع وخبرة في الأمور كافة، جعلته محبوبًا من جميع الطلبة من جميع الكليات، فهو يستطيع أن يجاري أي أحد في اهتمامه وميوله ويلجأ إليه أصدقاؤه عندما تواجههم مشكلة ما.

تجده كثيرًا مع خالد يتحدثان سويًّا فى السياسة وشئون الجامعة، وأحيانًا يكون في صحبة نادر يشاركه اهتمامه بكرة القدم ومغامراته مع البنات، وكان يعجبه طموح نادية وتمردها على الواقع الذي تعيش فيه وإن لام عليها كثيرًا عدم المشاركة في الأنشطة المختلفة كما كان يتوقع منها.

كان سيد هو الوحيد الذي انقطعت علاقته بسامي، وليس لشيء إلا كون سيد انقطع تقريبًا عن الذهاب إلى الجامعة، ونادرًا ما كان يراه خاصة بعد رسوبه وتأخره عنهم فى الدراسة، وقد لاحظ سامي مدى التغير الذي طرأ عليه شكليًّا وسلوكيًّا، وحاول كثيرًا معه وسانده في أوقات كثيرة كي يهتم بالدراسة، وأنه لا يوجد سبب في الدنيا يجعل هناك تعارض بين الدراسة والتدين والالتزام ولم تثمر كل محاولاته أي نتيجة، يبدو أن قوة التأثير التي يقع أسيرًا لها كانت أقوى منما يظن سامي. وفي إحدى المرات النادرة تقابلا داخل الحرم

الجامعي وكالعادة حياه سيد سريعًا وهو يمشي متحاشيًا النظر إليه، حتى لا يتحدث معه، وقبل أن ينصرف أوقفه سامي وهو يمسك بيده. ودار بينهما هذا الحوار:

- إزيك يا سيد؟

- الحمدلله.

- إيه يا ابنى كل مرة أشوفك فيها تمشي بسرعة هو في حاجة؟

- لا بس باكون مستعجل.

قالها وهو لا يزال متحاشيًا النظر إليه (يعتبر سامي غير متدين)، كان سامي يعلم أنه سيواجه صعوبة بالغة في التعامل معه، لكنه يعتبره في أزمة ويجب عليه كصديق أن يقف بجانبه، ليس لأنه تدين لكن لأنه أخذ جانبًا واحدًا من الدين، حيث الحرص على الطقوس والشكليات فقط.

أكمل سامي قائلاً:

- ممكن نقعد في الكافتريا نشرب حاجة ونتكلم؟؟

هز سيد رأسه بالموافقة، وبعد أن جلسا طلب سامي شايًا لكليهما ثم قال:

- قول لى أنت مابتحضرش ليه؟ وحتى لما بنقابلك مابتتكلمش مع حد وتمشي بسرعة؟

- لا مفيش بس أنا تفكيري غيركم والحمد لله التزمت.

- كويس، لكن أي واحد يلتزم يبعد عن أصحابه ويهجر الكلية ويهمل دراسته؟

- لا طبعا لكن أنا وقتي كله باحضر دروس دينية عشان أتعلم واخرج في جولات دينية مع بعض الإخوة، بنروح القرى نعلم الناس، وكل فترة باحضر وآخد المحاضرات اللي نقصانى والحضور زي ما أنت عارف ما يفرقش في الكلية.

- يا ابنى المفروض تعرف إن التدين بالطريقة دي غلط، هو أنت عاوز تعيد السنة دي كمان؟!

قال سامي هذه الجملة في تردد، ظهر الغضب على وجه سيد وقبل أن يتكلم استطرد سامي:

- بجد أنا آسف يا سيد ربنا يعلم أنا باحبك وخايف عليك وأنت...

قاطعه سيد:

- أنا الحمد لله عرفت طريقي وطريق ربنا أهم من الدراسة وأي حاجه تانية والواحد في الآخرة مش هيتحاسب على الدراسة.

كان سامي يستمع إليه وهو في حيرة من أمره وبهدوئه المعتاد قال:

- مفيش مشكلة وشيء جميل إنك تلتزم بدينك وربنا يقدرك، لكن في حاجة مهمة لازم تعرفها، لو كل الناس تركت الدراسة والعلم وعملت زيك مين اللي هايعمَّر الأرض! وعلى فكرة الدين بيحثنا على

العلم والعمل وفي آيات كثيرة بالمعنى دا وأننا لا نتواكل، المفروض نسعى عشان ربنا يرزقنا، وإيه الأحسن نكون أمة متقدمة قوية وملتزمة واللا أمة ملتزمة ومتخلفة في كل حاجة وبعيدة كل البعد عن التعاليم الصحيحة للدين اللي بيحثنا على العلم والعمل والأخذ بالأسباب والسعى في الأرض وتعميرها والتقدم والتطور...

ظهرت الجدية والصرامة على سيد وقال في ثقة الملقن:

- إحنا عارفين كل دا بس نلتزم الأول وبعدين نفكر في الأمور الدنيوية.. هو أنت بتصلي الجمعة فين يا سامي؟

- ليه؟!

- عاوزك تصلي معانا وتسمع للشيخ عابد إن شاء الله تستفيد وربنا يهديك.

ابتسم سامي وحاول أن يحتفظ بهدوئه ويتكلم بجدية حتى لا يغضبه: أنت شايف إنى ممكن أستفيد؟

- إن شاء الله ربنا يهديك.

- الحمد لله ربنا هادينى وموافق أصلي معاك الجمعة.

اتفق الاثنان على موعد محدد يلتقيان فيه قبل صلاة الجمعة بساعة كاملة كما أراد سيد، لأن سامي يريد أن يتعرف على العالم الذي يحيط به وما هو الكلام الذي يسمعه لكي يجعله يتحول كل هذا التحول وتنفيذه والدفاع عنه باستماته.

*****

كان يوم سحر شديد القسوة حيث كانت تستيقظ عادة بعد صلاة الفجر بقليل ثم تذهب لإحدى عربات الفول المنتشرة في شوارع القاهرة، والتى تعتبر ملجأ للكثير من العمال والموظفين الذين يجدون متعة في تناول طبق الفول بالزيت الحار وفحل البصل في الإفطار، بعد ذلك تسير مسافة طويلة لتصل لتاجر الجملة لكي تشتري المناديل وتبدأ اللف على المقاهي.

كان في البداية يبدو عليها الخجل والسذاجة وما تجمعه كان قليلاً للغاية، لكن بمرور الوقت بدت كمن لها باع طويل وكأنها ولدت في الشارع، تعلمت كيف تستجدي الناس بالدعاء أحيانًا والاستعطاف أحيانًا أخرى، وقد يعد الأمر نوعًا مبتكرًا من الشحاتة، كانت تجمع في نهاية اليوم ثلاثين جنيهًا وربما خمسين وقد تتعدى سبعين، ورغم ذلك كان لا يمضي عليها يوم إلا وتحدث لها مشكلة مع أحد المتسولين بل والاستيلاء على ما معها من نقود، وقد كانت تجد معاناة بالغة مع تلك الفئة التي يملأها الشر ويفترسها الجهل، ولكى تتخلص من ملاحقتهم لها وعنفهم تقول إنها تعمل لحساب المعلم خميس الأعرج، حيث كانت مع البنت على الكورنيش التي نصحتها إن سألها أحد أو تشاجر معها بأن تقول إنها تعمل لصالح المعلم خميس الأعرج الذى لا يجرؤ أحد على التعدي على أتباعه، وإن صادفت أحدًا من صبيانة تقول إنها تعمل عنده منذ فترة قصيرة وتتعامل معه عن طريق بنت أخرى، وبمجرد أن تنطق الاسم حتى

يظهر الخوف والرهبة على من يسمعه ومضت بها الأيام تنتهي من اللف عند حلول الظلام، وقد تورمت قدماها ثم تدخل مسمط مصمص تأكل طلب الكوارع بالفتة، وكأنها تعوض أيام التقتير التي كانت تعيشها عند خالتها ثم تذهب إلى أحد الجوامع تغتسل، وفي آخر الليل تذهب إلى أحد الحدائق العامة، وتشرد في يومها الطويل ويكاد التعب يقتلها لكن عليها أن تنتظر حتى ينصرف الجالسون في الحديقة، ويكون ذلك غالبًا بعد منتصف الليل، تضع كيسها الصغير الذي يحتوى على غيار واحد فقط تحت رأسها وتستغرق في النوم ولا تستيقظ إلا عندما تلسعها أشعة الشمس، وأحيانًا في بعض الليالي عندما كانت تسمع خروشة كلب أو قطة تقفز مفزوعة ويكاد الخوف يفتك بها، لكن كل ذلك يهون عندما تتذكر خسة ونذالة عوني زوج خالتها.

*****

كان سعيد باشا في بداية تجارة المخدرات يعد تاجرًا صغيرًا مقارنة بالمعلم عوض البيومي، الذي كان حينها يتحكم في سوق الحشيش، حيث يجلب الحشيش من الخارج ثم يوزع على كل تاجر حصته، لكن من يمتلك الإرادة والطموح تطوّع له الدنيا، وهو ما كان يميز سعيد عن كل التجار بل عن السواد الأعظم من الناس محدودي الطموح محدودي الفكر ومحدودي كل شيء، من يخنعون ويقنعون

بأقل القليل يمضون في الحياة كمضي سحابة صيف، ولو نظروا لا يرون أبعد من تحت أرجلهم.

أراد أن يكون الكبير، ولمَ لا وهو يرى في نفسه الإمكانات التي تؤهله لذلك! ولا ينسى الموقف الذي عاهد فيه نفسه على ذلك حينما ذهب ليأخذ حصته المعتادة من عوض البيومى وفوجئ بأنه قلل حصته للنصف لحساب تاجر آخر، اعترض بشدة وحدثت بينهما مشادة قال له عوض البيومي جملة لا ينساها وكانت سببًا في تغير مجرى حياته: (أنا اللي أحدد حصة كل واحد واللي يعترض مالوش حشيش عندى). كان يخشى من أن يكبر ويتوسع في التجارة، أراد بذلك أن يحد من طموحه ويضعه في مكانه الطبيعى، حينها جز سعيد على أسنانه وقرر بينه وبين نفسه أن يصبح أكبر تاجر ويحرك سوق المخدرات كيفما شاء، خاصة وأن عقاب عوض البيومي كان شديدًا؛ حيث حرمه تمامًا من حصته، وكان عليه أن يظل شهورًا بلا عمل، لكنه بدأ في إيجاد منفذ آخر من خلال صداقته مع بعض تجار شرق آسيا والاستيراد لحسابه، ولم يكتفِ بذلك بل تعلم تصنيع الحشيش محليًّا وأخذ يفتح أسواقًا جديدة في بعض المناطق التي لا تخضع لسيطرة عوض البيومى والبيع بسعر أقل وشيئًا فشيئًا صارت له اليد الطولى في تجارة الحشيش، وكانت تحدث بينهما معارك أشبه بالحروب وكلاهما لديه من الرجال والسلاح ما يحميه من الآخر، لكن النقلة الكبيرة في حياة سعيد،

كانت عندما التقى مع بابلو في إيطاليا الذى أقنعه بالتجارة في الهيروين، وعن طريقه تفحلت ثروته ونفوذه، والآن بعد خمسة وعشرين عامًا في تجارة الكيف صار يتحكم في ثلثي تجارة المخدرات في مصر وحقق حلمه والعهد الذي قطعه على نفسه.

****

المتعة التي عثر عليها خالد في جسد سميرة انفرط معها عقد القيم والوازع الديني الذي نشأ عليه، هو الذي كان أشد حياءً من البنت البكر، وعلى ما يبدو أنه الحياء الذي يكمن بداخله الفجور سرعان ما يرى النور حتى يسطع ويتلألأ.

داخل الحجرة وعلى السرير الحديدي الصغير يتعانق جسدا خالد وسميرة في أحد لقاءاتهما المعتادة الساخنة، ولأول مرة يشعر خالد بأنه يجامع نادية حبيبته التي لا يستطيع أن يبوح لها بحبه، تخطى حاجز الواقع وراح يسبح في خياله، كل شيء كان يراه نادية: الوجه، الجسد، النفس الساخن من فمها وهى تتأود من شدة اللذة والألم، حتى جاء أداؤه أقوى وأغرز من المعتاد. وبعد انتهائه قبلها واستلقى على ظهره وشرد لوهلة ثم أفاق على صوتها وهى تهمس في أذنه بصوت لاهث:

– حبي ليك بيزيد يوم بعد يوم يا حبيبي.

بدا أنه استيقظ من حلم جميل تمنى ألا يفيق منه، وقال وهو يحاول أن يبدو مقنعًا:

– أنا كمان باحبك وبقيت ما اقدرش استغنى عنك.

طبعت قبلة رقيقة على صدره العريض العاري وقالت:

– بجد يا خالد بتحبني زي ما باحبك؟

– طبعًا.

وضعت رأسها على صدره وهى ممسكة بيده وأخذت تقبل كل أصابعه، كان يلح عليه سؤال طالما أراد أن يسأله لها، لماذا تخون زوجها؟ رغم أنه يحبها بل يعشقها ولا يبخل عليها بشيء ولا يدخر شيئًا مما يتحصل عليه، إنما كان يرسله إليها أولاً بأول، وقد اتضح له ذلك من خلال الأموال التي تنفقها ببذخ في معظم السهرات حيث تأتي بالبيرة والحمام واللحوم التي تطهوها له والفاكهة التي يحبها ولا يتوقف الأمر على ذلك فقط بل أحضرت له مرتبة ومفارش جديدة للسرير، وبين الحين والآخر تأتي له ببعض الملابس من قميص أو بنطلون وكلها على أحدث خطوط الموضة حتى الملابس الداخلية كانت تشتريها له، كان يظهر بعض الغضب عندما تفعل ذلك، لكن في قرارة نفسه كان يسعد كثيرًا بذلك، ولمَ لا وقد أصبح على قناعة بأن كل شيء في الدنيا له ثمن وهو نظير هذه الأشياء البسيطة يعطيها المتعة واللذة.

انتفض خالد فجأه وأزاح رأسها عن صدره وقام بنصفه العلوي لتقول سميرة في قلق:

– في إيه يا خالد؟

مسح على وجهه بيده ثم تنهد وهو يحدق فيها وقال في صوت متقطع:

- لا مفيش بس في سؤال محيرني.

نهضت سميرة وخشيت أن تكون أغضبته وهى لا تدري، وارتدت قميص النوم سريعًا وقالت وقد اضطربت:

- سؤال إيه اللي محيرك يا حبيبي؟

نظر إليها نظرة طويلة زادت من توترها وقال في جدية:

- إيه السبب اللي خلاكي تخوني جوزك؟ وبصراحة عشان أنا عارف كل حاجة.

لم تكن تنتظر أن يسألها هذا السؤال وهما يعيشان منذ بداية علاقتهما في سعادة. ولوهلة راحت تحدث نفسها هل أحد في الشارع قال له حاجة لتقول في عتاب:

- ليه تسألني السؤال دا؟ هو أنت من أول ماعرفتني شفت عليا حاجة؟!

- لا مافيش بس عاوز أعرف... لو مش هايزعلك.

- عاوز تعرف إيه يا خالد؟

- زي ما قلت لك.

نظرت سميرة نظرة طويلة شاردة قبل أن تأخذ نفسًا عميقًا وتخفض رأسها وهى تحاول استرجاع الماضي، ثم قالت في مرارة:

– شوف يا خالد أنا مش هاكدب عليك وعشان باحبك لازم أقول لك على كل حاجة عاوز تعرفها. لكن عشان تعرف أنا ليه عملت كدا لازم تعرف الحكاية من الأول...

*****

كان ذلك في إحدى الليالي المظلمة، السماء ملبدة بالغيوم وقد بدا أن فصل الشتاء يعلن عن قرب حلوله، جلست سحر بعد انقضاء يومها المعتاد في الحديقة، لكن الليلة كانت غير كل ليلة حيث إنها تشعر برهبة وخوف على غير العادة، خلت الحديقة من روادها مبكرًا وضعت كيسها تحت رأسها ثم ألقت بنفسها على الأرض، شعرت بلسعة البرد التي طغت على إحساسها بالخوف والرهبة التي تملأها، انكمشت في بعضها كقنفذ سكب عليه جالون ماء بارد، لكن التعب كان أقوى من البرد والخوف وكل شيء، استغرقت في النوم وراحت تحلم بأنها تصرخ ولا تستطيع وتشعر بأن شابًّا قويًّا يمسك بيدها ويكمم فمها.. وآخر يحاول خلع لباسها.. لا ليس حلمًا إنها مستيقظة بالتأكيد.. إن أحدهم يمسك يدها ويكمم فمها والآخر يتشبث بأرجلها والثالث تجرد من ملابسه وقد بدأ يضاجعها بعنف، حاولت أن تصرخ أو تتملص منهم لكن بلا فائدة، أنفاسها تكاد تتوقف... دقائق وانتهى، وقبل أن تحاول النهوض والاستغاثة تبادل الأماكن مع أحدهم الذي انقض عليها سريعًا، ولم تجد مقاومة إلا أن تسيل دموعها لتسقط على الأرض وكل شيء بدأ يتلاشى ويختفي

من حولها وكأنها في حلم، راحت في غيبوبة ولم تدرك ماذا تم بعد ذلك؟ أو كم مضى عليها؟ استيقظت لتجد نفسها عارية وقد مزقت ملابسها وفي حالة إعياء شديد، انتهك الذئاب البشرية آدميتها وجسدها الذي كان نقمة عليها حتى النقود التي كانت تضعها في الكيس استولوا عليها، أخذت تبكي وتبكي، تمنت الموت، لم تعد تريد الحياة، لكن حتى الموت كان عزيزًا عليها أخذت تتمتم بصوت متقطع ضعيف غير مفهوم. أفاقت على أذان الفجر لتتوقف عن الكلام نظرت للسماء ثم أخرجت غيارها من الكيس وارتدته وسارت تتحسس خطاها وبجوار باب أحد الجوامع جلست وهى تضع رأسها بين أرجلها.

كان المصلون قد فرغوا من صلاه الفجر وبدأوا في مغادرة الجامع، لفتت سحر انتباه الحاج إبراهيم الذي يقترب من عامه الخامس والستون وإن بدا أصغر من ذلك مرتديًا بدلة كامله فوقها عباءة سوداء أقترب منها قائلاً:

- إيه اللي مقعدك كدا يا بنتى؟!

رفعت سحر رأسها ونظرت له والدموع تتساقط من عينيها والإعياء والحزن والذل يملأها لم تستطيع الكلام، وجد الحاج إبراهيم صعوبة وهو يحاول إيقافها ثم قال:

- أهلك فيه يا بنتى؟

أخيرًا استطاعت أن تتكلم وقالت في صوت ضعيف لا يكاد يسمع:

- ماليش أهل.

أمسك بها واستقلا السيارة.. كانت سحر مستسلمة تمامًا لما يحدث، حيث ذهب بها إلى شقته في مدينة نصر ولم يكسرا حاجز الصمت خلال المدة التي استغرقتها السيارة في قطع المسافة من الجامع إلى الشقة، صعدت معه إلى شقته المرتبة الأنيقة ولكن بلا فخامة أو بهرجة، يعيش فيها الحاج إبراهيم وابنه أحمد بعد وفاة زوجه منذ بضع سنوات وسفر ابنته مع زوجها إلى أمريكا.

جلست سحر على الأريكة وذهب الحاج إبراهيم إلى إحدى الحجرات وما هي إلا لحظات حتى عاد ومعه ملابس أعطاها لسحر ثم قال:

- خدي يا بنتي حمام وغيري هدومك.

أعد الحاج إبراهيم إفطارًا لهما ثم جلس ينتظر حتى خرجت سحر من الحمام، ليقول لها في صوت أبوي حنون لم تسمعه من قبل:

- حاولي يا بنتي تاكلي أنا حاسس بيكي وعارف اللي حصل وكل مشكلة وليها حلال.

لم تستطع سحر الكلام وهزت رأسها ببطء وسالت دموعها مرة أخرى على وجنتيها ليمسك الحاج إبراهيم منديلاً ثم قال:

- امسحِ يا بنتي دموعك ووحدي الله. ربك كبير قولي لي حكايتك إيه؟

مسحت دموعها وجاهدت نفسها وهى تحاول إخراج الكلمات وقالت في صعوبة: أنا اسمي... سحر من...

*****

في ميدان الجيزة التقى كل من سامي وسيد في الميعاد المتفق عليه، الذي كان قبل بدء صلاة الجمعة بساعة كاملة، كان سيد يرتدي جلبابًا أبيض قصيرًا ويمسك في يده سبحة، أما سامي فكان يرتدي بنطلونًا أسود وقميصًا مقلمًا نص كم، تصافح الاثنان وتعانقا والابتسامة تعلو وجهيهما، استقلا سيارة سامي وما هي إلا دقائق وكانت السيارة تتوقف على ناصية شارع لا يتعدى عرضه ثمانية أمتار.

ليقول سيد:

– إن شاء الله تسمع كلام يفيدك جدًّا ويكون سبب في إنك تكون معانا.

هز سامي رأسه بابتسامة باهتة ولم يعلق، وتعمد ألا يطلق حكمًا مبكرًا قبل أن يسمع ما يقولون ويتعرف تمامًا على ما يفكرون فيه، فمن الجائز أن يكون عكس ما يعتقد ويظن ويستمع حقًّا إلى كلام مفيد.

بضع خطوات وكان الاثنان أمام جامع صغير يقع في شارع جانبي من الدور الأول لأحد المنازل، من المعتاد أن يفرش المسئولون عن المسجد الشارع بالحصر وتخصيص مكان للسيدات،

كان الجامع قد أخذ في الامتلاء بالمصلين الذين معظمهم من تلاميذ ومريدي الشيخ عابد حيث يأتون مبكرًا جدًّا كي يجلسوا في الصفوف الأولى، يقرأون القرآن، أو يتحدثون في الأمور الخاصة أو بعض المسائل الفقهية. كان أول شيء لفت انتباه سامي هو الحب والود الذي يبدو فيما بينهم كذلك الابتسامات التي ليست من القلب التي تعلو شفاههم.

جلس الاثنان في الصفوف الأمامية بعد أن صليا ركعتي تحية المسجد ثم أمسك سامي مصحفًا وأخذ يقرأ القرآن، بينما انشغل سيد في التحدث مع أحد الإخوة في بعض الأشياء، قبل الأذان بخمس دقائق دخل الشيخ عابد بطلته المهيبة وتجهمه المعتاد، كان الجامع اكتظ بالمصلين الذين يتشابهون لحد كبير في المظهر وطريقة الكلام ويستخدمون نفس الألفاظ.

عم الجامع سكون تام وبدا الجو روحانيًّا مهيبًا، اعتلى الشيخ عابد المنبر، رفع الأذان وأخذ الحضور في ترديده، ثم بدأ الشيخ عابد خطبة الجمعة بحمد الله والثناء عليه ثم قال:

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام وكفى بها نعمة... واستطرد في حماس: موضوعنا اليوم أحبائي أيها المسلمون الموحدون بالله جد خطير وفي غاية الأهمية، سوف نتحدث عن "كيفية تغسيل الميت" إنه الموضوع الذي لم يشغل بال أحد منا على الإطلاق رغم أهميته الشديدة بالنسبة لكل مسلم، يجب على كل واحد

أن يكون ملمًّا بكيفية غسل وتكفين الميت، ولا يعطي الفرصة لمن يعملون فيها ويتاجرون بها ويتخذونها مهنة من الجهلة والعاطلين والمشردين من أرباب السوابق بأن يغسلوا ويكفنوا موتانا، وفي الغالب يكون خطأً بل حرامًا وأبعد ما يكون عن سنة حبيبنا وقدوتنا رسول الله عليه الصلاة والسلام، ونحن أهل العلم نقف مكتوفي الأيدي نشاهدهم دون أن نحرك ساكنًا، وأكاد أجزم إننا سوف نسأل عن هذا يوم الموقف العظيم، حتى أني رأيت أحد هؤلاء الجهلة قام بتكسير عظام الميت بعد أن قام بثنيه ولم يستطع أن يرده كما كان. أود أن أقول عند دفن الميت في المقابر نأخذ العزاء فقط، ولا يجب أن يلقي أحد كلمة أو وعظ أو خطبة في المقابر، كما يفعل العديد ظنًّا منهم أنهم يفعلون السنة لكنهم أبعد ما يكونون عن ذلك، وأعود وأكرر نأخذ العزاء فقط...

وما هو أكثر إيلامًا ما نراه من سرادقات عزاء التي تقام ليلاً ويتم الإنفاق عليها ببذخ، وكان من الأوْلى أن تخرج هذه الأموال صدقة جارية على روح المرحوم، يستفيد منها فقراء المسلمين بدلاً من أن تكون مدعاة للفخر والتباهي واستعراضًا للجاه والنفوذ وهى حرام حرام شرعًا وسوف يسألون عنها وعن كل جنيه ينفق فيها بل إنها تؤذي الميت أكثر مما تفيده، وهى بدعة ابتدعها ضعاف الإيمان مرتزقة الدين وتعد نوعًا من أنواع التجارة في الدين والعياذ بالله، خاصةً من هؤلاء المشايخ الذين يقرأون في هذه السرادقات

ومغالاتهم في أجورهم والتنافس فيما بينهم والفتنة والذم في بعضهم البعض ليظفروا بالقراءة فيها، إنهم مشايخ البط والأوز من يتاجرون بالدين والتي كروشهم أوسع من المحيط تلتهم كل ما تجده دون مراعاة إذا كان ذلك حلالاً أم حرامًا.

كان الشيخ عابد بين الحين والحين يتعصب محاولاً إفاقة المصلين وجعلهم أكثر تركيزًا وانتباهًا بحدته المعتادة وصوته الأجش، ولا يمانع من تأنيب أو توبيخ أحدهم إذا استند على عمود أو حائط أو ارتخت رأسه لأسفل، وكان لا يجد غضاضة من فعل ذلك فمعظم من يجلسون من تلاميذه ومريديه، وهم يجدون في كلامه لَحلاوة وفي حديثه لَطلاوة رغم فظاظته وحدته.

استطرد الشيخ عابد في شرح الطريقة الصحيحة لكيفية غُسل وتكفين الميت والتنبيه على ذلك، بل إنه تطوع بتعليم من يريد عمليًّا (بالطبع دون وجود جثة).

بعد انتهائه من الخطبة حيث بدا كمدرس قاسٍ أمامه مجموعة من التلاميذ صغار السن يوجه لهم النصح أحيانًا والإرشاد أحيانًا والأوامر والتوبيخ أحيانًا أخرى وهم لا حول لهم ولا قوة ولا يجرءون حتى على مجرد التفكير فيما يقول.

*****

حتى زواج نادر اعتبره سعيد باشا صفقة تجارية، وكان عليه أن يستفيد منه قدر استطاعته وتحقيق أعلى ربح ممكن، رغم أنه يفرط

كثيرًا في تدليله وإن طلب لبن العصفور يكون أمامه في لحظات، لكن أحيانًا كثيرة يكون ذلك التدليل منتهى القسوة حيث لم يتركه يختار شيئًا، إنما كان دائمًا عينه التي ترى وأذنه التي تسمع ولسانه الذي يتكلم حتى بدا نادر كطفل كبير، وها هو يختار له العروس كما أراد وخطط وكما يقول هل توجد من هي أفضل من ريهام بنت معتز الزيني رجل الأعمال وعضو مجلس الشعب! إنه بذلك يكون أصاب عصفورين بحجر واحد أولهما: اختيار الزوج الجميلة الثرية لابنه، والثاني: يكون اكتسب أباها وضمن الاستفادة الكاملة من الخدمات والتسهيلات الهائلة التي من الممكن أن يحصل عليها بحكم عضويته في المجلس ونفوذه. وبالفعل تحدث معه وأخذ موافقة مبدئية وقاما بتحديد ميعاد للتعارف بين العائلتين.

كان نادر يجلس أمام الكمبيوتر في حجرته عندما سمع طرقًا على الباب، أربكته المفاجأة عندما رأى أباه الذي لم يدخل حجرته منذ سنوات ليقول في سرعة واضطراب:

- في حاجة يا بابا؟
- مفيش.. بس عاوز أتكلم معاك.
- حاضر يا بابا أخلص اللي في إيدي.

ظهر الغضب على وجه سعيد باشا، وقال في انفعال وحسم:

- حاجة مهمة! باقولك عاوز أتكلم معاك هستناك في الجنينة.

جلس سعيد باشا يحتسي كوبًا من القهوة في حديقة القصر ولا يكسر حاجز السكون التام الذي يعم المكان إلا صوت هدير المياه المنبعث من النافورة الصغيرة التي تنتصف حمام السباحة. كان يفكر فيما سيفعله إذا لم يوافق نادر على هذه الزيجة.

لقد خطط لكل شيء جيدًا، لكن هل يقف أمام رغبة ابنه؟!

ليقول نادر بعد أن جلس:

- في إيه يا بابا؟

انتظر فترة قليلة ساد خلالها الصمت وسعيد باشا ينظر إلى أعلى وقبل أن يتكلم عقد حاجبيه الكثيفين وأخذ رشفة من فنجان القهوة ثم قال:

- أخبارك إيه؟

دهش نادر من السؤال هل أبوه يصعد إليه حجرته ويطلب منه أن يجلس معه في الجنينة يسأله عن أحواله، وهو يلوي شفتيه قال:

- أنا كويس يا بابا.

- مش عاوز تتجوز؟

ابتسم نادر من المفاجأة وشرد قليلاً وتساءل في نفسه: هل قرأ أفكاري؟

إنه حقًّا يريد أن يتزوج من نادية بعد أن أحبها وتعلق بها بشدة، لكن من أعلم أباه بذلك! وظن لوهلة أنه حقًّا لا يوجد شيء يخفى على أبيه ذلك الأسطورة. وقبل أن يتكلم بادره سعيد باشا متسائلاً:

- سكت ليه؟

- لا مفيش بس دي مفاجأة.

- وعشان تكمل المفاجأة أنا لقيت لك العروسة.. بنت جميلة وغنية جدًّا ومن عيلة كويسة أنا اتفقت مع أبوها عشان نزورهم وتتعرَّفوا على بعض.

ارتبك نادر واصفرَّ وجهه وانحشر الكلام في حلقه وهو يقول:

- يا بابا ازاى أتجوز بالطريقة دي؟

- إيه اللي ازاى أنتم هتتخطبوا وبعد ما تخلص دراسة تتجوزوا.

- بس أنا لازم أحب اللي هاتجوزها.

- وما له بعد الخطوبة حبوا بعض زي ما أنتم عاوزين.

اضطرب نادر إنه يدرك جيدًا إن اتخذ أبوه قرارًا من الصعب أن يحيد عنه ولا يستطيع أحد أن يجادله في ذلك حتى وإن كان ابنه الوحيد.

قال نادر في تردد:

- في واحدة أنا باحبها وهى دي اللي هاتجوزها.

صمت سعيد باشا قليلاً وعاد بظهره للوراء ثم اضطجع وقال في هدوء:

- حب إيه؟ أنت عاوز تفهمني إن أنت تعرف تحب!

استعاد نادر بعضًا من ثقته وقال:

- أنا باحب زميلتي وهي كمان بتحبني.

في صخب وغضب قال سعيد باشا منفعلاً:

– هو أنت فاكرني مش عارف دا أنت كل يوم مع واحدة وشقة مصر الجديدة تشهد على كدا.. وأنا قلت إنك تشوف البنت اللي اختارتها لك وبعد كدا تقرر.. فاهم؟

مثل طفل صغير ما زال يتعلم الكلام قال في تهتهة:

– يا بابا هو أنا مش ابنك الوحيد وسعادتي تهمك؟!

رجع سعيد باشا بظهره للوراء ونظر لحمام السباحة، وأخذ يشرح في لهجة الناصح أهمية زواجه من بنت معتز الزيني وهذا من أجله ولا بد أن يتعلم من ذلك، وأنه يريد أن يجعل منه رجلاً يحل محله في المستقبل وإن ظل طريًّا فسيكون لقمة سائغة للمنافسين... وما كان من نادر إلا أن يستسلم تمامًا لكلام أبيه على أمل أن يجد ما يقوله عندما يرى هذه البنت ويتملص منها.

*****

نظرت سميرة نظرة طويلة إلى خالد ثم أخرجت تنهيدة عميقة وهى تقول:

– الحكاية إن أول ما وعيت على نفسي في الدنيا كنت أنا وأمي وأبويا وأختي وأخويا عايشين في أوضة مشتركة في شقة تلات أوض وحتى من غير صالة، إحنا كنا في أوضة وعيلة مكونة من أم وأب وبنت وولد في أوضة ورجالة عزاب في أوضة، كل دا ويا ريت كانت شقة نضيفة وواسعة، كانت بدرون رطبة وما بيدخلهاش

شمس ولا هوا فيها حمام صغير مشترك، تخيل عيلتين ورجالة عزاب في شقة واحدة! تخيل قد إيه حريتك تكون محبوسة.. كل دا كوم والفقر والحرمان كوم تاني. أنا أبويا صنايعي نجار باب وشباك لكنه كان كُسلي عمره ما فكر يغير من حياته ويريح أولاده، كان بيشتغل يوم ويقعد من الشغل لحد ما يصرف فلوس اليومية اللي أخدها، وبعد كده يطلع يشتغل وممكن يفضل من غير شغل شهر أو أكتر وهو نايم في الأوضة يتفرج على التليفزيون، يعني كان لازم تعيش على الفول والطعمية طول عمرك لحد ما قلبك يتقطع وساعات كتيرة ماكناش بنلاقيهم وننام بالجوع.

امتلأت عينا سميرة بالدموع واستطردت في سخرية:

– كل دا والناس اللي مرتاحة وكل حاجة في اديها وعايشة في عز تقول وهى مجعوصة محدش بينام من غير عشا، لا دا في ناس بتنام من غير عشا وغدا وفطار لكن هما يحسوا إزاى بالناس ولو عاوزين لبن العصفور بيجيبوه بفلوسهم، أنت عارف أنا لما كبرت كانت عيون الرجالة اللي معانا في الشقة بتنهش فيا وعمري ما كنت أعرف ألبس حاجة خفيفة حتى لو كنت هموت من الحر.

وضعت وجهها بين يديها وصمتت قليلاً. وضع خالد يده على كتفها وضمها لصدره وأخذ يمسح على شعرها رفعت رأسها واستطردت في حرقة والدموع تسيل على وجنتيها وبدت كأنما تطهر نفسها وتتبرأ مما وصلت إليه.

– أنت عارف الليل كان عذاب وألم بالنسبة ليا، كنت أحاول أنام ما اعرفش، أضغط على نفسي أغمض عيوني وبعد عذاب أنام، لكن أصحى بالليل على صوت أبويا وأمي وهما نايمين مع بعض كنت أكتم النفس علشان ما يحسوش بيا واجاهد نفسي عشان ما اسمعش لكن ماكنتش باعرف، تخيل بنت في سن المراهقة تسمع أبوها وأمها دا ممكن يعمل فيها إيه؟! لكن أنت أو أي حد غيرك لا يمكن يحس بيها...

أخذت نفسًا عميقًا ومسحت دموعها ثم نظرت إليه نظرة طويلة...

*****

أكثر من ساعة أخذتها سحر لكي تسرد قصة حياتها، منذ أن كانت في بيت خالتها إلى أن التقت به، كان الحاج إبراهيم يستمع إليها وتعمد عدم مقاطعتها حتى تزيح ما بها، وقد تأثر بما قالته وأشفق عليها وعلى ما حل بها من ألم نفسي وبدني تعرضت له، ووجد في كلماتها الصدق والطيبة عكس ما يعتقده البعض عن أطفال الشوارع والمشردين، وسخر من حال الدنيا وهو يحدث نفسه بأن هذه الفئة ضحية مجتمع قاسٍ يرى فيهم شرذمة حشرات يجب التخلص منها، بينما هو المسئول عن وجودهم، وما يزيد من السخرية أن المجتمع يتفنن في الضغط عليهم لينجرفوا نحو الجريمة والانحراف، ولو أن كل الأثرياء ورجال الأعمال وما أكثرهم في مصر أخرجوا الزكاة فقط التي أمرنا بها الله ما وُجد فقير أو متسول أو

مشرد أو من ينام ليلته يتلوى من شدة الجوع، بل إن الكثير منهم يدهسون كل القيم والأخلاق ويتحايلون وينهبون المال العام ثم تكنيزه في بنوك الخارج، وعندما يتبرعون ببعض الجنيهات القليلة يزفون الخبر وكأنهم فاتحون منتصرون.

أعطاها الحاج إبراهيم منديلاً وقال في لهجة أبوية محاولاً التخفيف عنها:

- امسحي دموعك يا بنتي الدنيا لسه بخير.. اعتبرينى زي أبوكِ أنا عاوز آخدك ونروح القسم نعمل محضر للمجرمين اللي اغتصبوكِ لكن خايف إنك تتبهدلي.. رأيك إيه؟

بانكسار ومرارة قالت:

- اللي تشوفه يا حاج.. أنا مش عارفة أعمل إيه!

- طيب يا بنتي أنا شايف بلاش موضوع القسم سيبيها على الله وعلى فكرة لولا أن ابني أحمد عايش معايا أنا كنت خليتك معانا في البيت أنتِ زي بنتي. لكن محلولة إن شاء الله.

كان أكثر ما تتوقعه سحر من الحاج إبراهيم أن يعطيها بعض النقود ثم يتركها ترحل.

ابتسم واستطرد قائلاً:

- إيه رأيك تشتغلي أحسن؟

هزت رأسها وهى تقول:

- يا ريت يا حاج.

- أنا عندي بوتيك لبيع الملابس الجاهزة وإحنا محتاجين بنت شاطرة وجميلة، أما بالنسبة للمكان اللي تنامي فيه المخزن فيه سرير وحمام ممكن تنامي هناك بعد وقت الشغل.. إيه رأيك؟

لم ترَ سحر رجلاً بهذه الطيبة والحنان، ولأول مرة تبتسم وقد ظنت أنها خلقت بفمٍ لا يعرف الابتسامة. ثم قالت:

- كتر خيرك يا حاج.

ربَّت الحج إبراهيم على كتفها وقال:

- أنتِ جدعة وتستاهلي كل خير.

نهض الحاج إبراهيم ودخل إحدى الحجرات ثم عاد بعد دقائق وفي يده حقيبة وبطانية سريعًا ما نهضت سحر وأمسكت الحقيبة ومضيا سويًا إلى المحل.

كان الوقت لا يزال مبكرًا، معظم الشوارع تبدو شبه خاوية ومعظم المحلات لم تفتح بعد، كانت شيماء التي تعمل كاشيرة مسئولة عن فتح المحل في التاسعة صباحًا ولأول مرة منذ سنوات يفتح الحاج إبراهيم المحل بنفسه، محل ضخم مكون من طابقين يوجد المخزن في نهاية الطابق الأول لا يوجد به مكان للتهوية إلا فتحة صغيرة في إحدى حوائطه مكدس بصناديق معظمها فارغ، به سرير صغير عليه مرتبة متهالكة دارت سحر بعينيها في المخزن وشعرت برهبة حيث بدا وكأنه مهجور منذ سنوات، عندما رأت العنكبوت التي نسجت خيوطها في كل مكان، أضاء الحاج إبراهيم لمبة صغيرة بدا

ضوؤها في المخزن كضوء شمعة صغيرة في حجرة شاسعة، وراحت تحدث نفسها أنه لا يمكن أن يكون أكثر وحشية من الشارع أو بيت خالتها، على الأقل سيكون أكثر أمنًا. أفاقت على صوت الحاج إبراهيم وهو يقول:

– معلش يا بنتي المكان مش نضيف لكن بهمتك إن شاء الله يبقى كويس. ثم أشار بيده قائلاً:

– ارفعي الصناديق اللي على السرير ونفضي المرتبة، وخدي البطانية والشنطة فيها ملابس جديدة وملاية افرشيها وعندك الحمام ورا الستارة، أنا هسيبك وطالع المكتب في الدور التاني عشان أخلص شوية شغل، نضفي المكان على راحتك وفي أكل في الشنطة وإن شاء الله تبدئي الشغل من بكرة.

ما إن تركها الحاج إبراهيم حتى أخذت في رص الصناديق وكنس المخزن ثم دعك الحمام وترتيب السرير وتنظيفه كل ذلك تم في وقت قصير، وقد بدا المخزن نظيفًا مرتبًا ثم ألقت بجسدها على السرير.

*****

انتهى المصلون من صلاة الجمعة ثم الخروج من الجامع، لكن ظل عدد غير قليل منهم لم يغادروا بل ظلوا جالسين، حيث تجمعوا في الصف الأول على شكل نصف دائرة يترقبون الكلمة المعتادة التي يلقيها الشيخ عابد عقب صلاة الجمعة. همس سامي في أذن سيد طالبًا منه أن يغادرا لكن سيد أشار له بأن يجلس كي يستمعا

لكلمة الشيخ. جلس الاثنان وبعد قليل تحدث الشيخ عابد وأكمل ما أنهى به الخطبة مع تطرقه لبعض الأحاديث الأخرى.

كان سامي في غاية الضيق ولا يعرف ما الذي يعجبهم في هذا الكلام الذي يسمعونه ويجعلهم بين الحين والآخر يضحكون بل ويقهقهون رغم أنه يبدو عاديًّا بل ساذجًا إلى حدٍّ كبير وفيه استخفاف بالعقل.

انتهى الشيخ من كلمته وقد تجمع حوله معظم الموجودين محاولين مصافحته وسؤاله عن بعض الأمور الخاصة، أثناء ذلك كان سامي خرج من الجامع، دقائق ولحق به سيد بعد أن صافح الشيخ عابد وقد علت وجهه ابتسامة رضا وسعادة، ليبادره سامي قائلاً:

– تلت ساعات بنصلي الجمعة دا إحنا داخلين على العصر!

ضحك سيد في غير محل للضحك وهو يقول:

– لكن استفدنا أحسن ما كنا صلينا في جامع تاني نص ساعة وما استفدناش!

نظر له سامي في سخرية ثم تنهد وقد بدا الغضب يتملكه:

– استفدنا إيه يا عم الشيخ أنا عاوز أفهم تلت ساعات أسمع واحد بيتكلم عن غسل الميت إيه اللي ممكن استفيده من دا؟ يعني خلاص مافيش مشاكل ولا مواضيع تانية كل حاجة بقت تمام وزي الفل وما فضلش إلا ازاى الناس تعرف تغسل الميت، الناس أصبحت

سلوكياتها وأخلاقها تمام قمة الالتزام لو كل الناس اتعلمت تغسل الميت الناس اللي بتعمل الشغلانة دي تقعد في بيوتها وكل واحد يغسل اللي يموت له.

قال سيد في هدوء غير طبيعي وكأنه لم يسمع شيئًا:

- عشان تعرف الموضوع مهم افرض أنت وواحد تاني ماشيين في الصحراء ومات تعرف تغسله؟!

ضرب سامي كفًّا على كف وزاد حنقه وسخريته من سذاجته وقال:

- يعني خلاص الدنيا هتلطش معايا علشان واحد يموت في الصحراء، يبقى يا سيدي ادفنه زي ما هو كدا. يا ابني في ناس مختصة بالموضوع دا ودول كتير ودا شيء طبيعي إن مش كل الناس تعرف كل حاجة لازم يكون في ناس تعرفها وناس ما تعرفهاش لو كل الناس اتعلمت نفس الحاجة، كانت الدنيا خربت من زمان الناس عندها مشاكل تانية أهم من كدا، والمفروض عليه يعلم الناس حاجة تنفعهم وتفيدهم وتحسن من أخلاقهم مش كده واللا إيه؟! وفي حاجة هو كان جايب معاه ابنه اللي عنده خمس سنين يقعده في الجامع أكتر من تلت ساعات يسمع كلام ما يفهمش منه حاجة، هو دا يصح مع طفل صغير هي دي التربية السليمة وبيشخط وبيتعامل مع الناس بفظاظة وغلظة دا ربنا قال للرسول:

"ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك"، والشيخ بيتكلم باسم الدين وهو بعيد كل البعد عن تعاليم الدين الصحيحة.

ظهر الغضب جليًّا على وجه سيد وقال محاولاً الدفاع عن الشيخ عابد دون أن يفكر في كلام سامي وفي الغالب لم يسمع منه شيئًا:

– أنت تعرف إيه عن الدين عشان تتكلم على الشيخ عابد؟ دا عالم وأنت وأمثالك بالنسبة له ولا حاجة كل همكم الدنيا مع إنك هتتحاسب في الآخرة على التزامك بدينك.

كان سامي يحاول أن يصوب الافكار الخاطئة التي تأثر بها سيد ولا يريد التراجع عنها، حيث اقترح عليه أن يجلسا على مقهى ليكملا حديثهما بعد أن طال وقوفهما أمام الجامع.

*****

ربت خالد على سميرة وضمها وقبّل وجنتيها وأخذ يمسح على شعرها، نظرت له واستطردت بصوت مبحوح يقطر مرارة:

– بمجرد ما أخدت الدبلوم دوَّرت على شغل كان لازم أشتغل، عشان أساعد في الجهاز اشتغلت في مكتبة كنت بافتحها من الساعة عشرة الصبح أكنسها وأمسحها وأقف طول النهار على رجلي لحد عشرة بالليل كل دا عشان مية جنيه، ويا ريت كنت باترحِم من صاحب المكتبة، من نظرات عنيه ومد إيده ولمس جسمي يعني تقدر تقول ذل وإهانة وقلة أدب وكنس ومسح وشغل اتناشر ساعة وفي الآخر مية جنيه، اتعرفت علي عادل جوزي لما كنت

باشتغل كان بيتردد على المكتبة بحجة إنه بيشتري حاجة ويوم بعد يوم أصبح في بينا كلام، وفي يوم قال لي إنه معجب بيا، وطلب يقابلني. في الأول رفضت، لكن بعد إصراره وتردده الكتير على المكتبة وافقت، كنا بنتقابل ساعة كل يوم بعد الشغل وبعد فترة اتخطبنا، واستمرت الخطوبة أكتر من تلت سنين، كان تقريبًا أخد كل حاجة تحسيس وبوس وأحضان، لكن هو كان بيحبني جدًا والظروف كانت صعبة، المهم بعد عذاب اتجوزنا بعد ما اشترينا كل حاجة بالقسط، وطبعًا مضى على إيصالات أمانة على بياض لصاحب المعرض وزي ما بيقولوا "الدين هم بالليل وذل بالنهار" كان محدش فينا بيطيق للتانى كلمة، لكن الصراحة هو كان بيلف على شغل، وبعد ما يئس فكر إنه يسافر الخارج، وإلا كان هايتسجن عشان إيصالات الأمانة ومقدروش الظروف، المهم حصل على عقد عمل في السعودية وسافر، وبعد ما سافر ما اقدرش أوصفلك على اللي حسيت بيه كنت متجوزة ومش متجوزة، كان مضى على جوزنا أقل من سنة فى أول مرة سافر فيها قعد سنتين، كان كل يوم فيهم بيعدى عليا كأنه سنة وحدة وعذاب وخوف واحتياج، لكن كنت باصبَّر نفسي وأقول يعمل مبلغ يقدر يعمل مشروع وما يسافرش تاني، لكن للأسف اللي كان يكسبه على قد مصاريفه هناك ومصاريفنا هنا والأقساط، المهم بعد سنتين نزل أجازة شهر واحد، حاولت معاه كتير عشان ما يسافرش تاني كان يقول "أقعد جنبك

ومالقيش شغل وتحصل مشاكل، وبعدين نأكل منين ونصرف منين وأسدد الديون منين، على الاقل هناك باشتغل وابعتلك كل الفلوس اللي باتحصَّل عليها، لمي إيدك أنتِ شوية من المصاريف عشان نحوش قرشين ونعمل مشروع وماسفرش تاني". وطبعًا سافر تاني وقتها ما اقدرتش أقاوم وأتحمل، انهرت.. كنت باحس بنار بتاكل في جسمي وكل الأسباب اللي كنت باصبر بيها نفسي خلصت مفيش أمل، يسافر سنتين وينزل أجازة شهر واحد، ويكون منهك وتعبان من السفر، لكن الناس مابتفكرش غير في نفسها وكل همها تجيب في سيرة بعض ويتظاهروا بالفضيلة والأخلاق، لو حد فتش وراهم يلاقي بلاوي كل حياتهم غلط وخطايا، لكن ما يصدقوا يلاقوا حد يرموا خطاياهم عليه ويكون الستارة اللي بيدَّاروا وراها، عشان مايتعروش وينكشفوا أمام أنفسهم ويشوفوها على حقيقتها.

أخذت نفسًا عميقًا وكأنها أزاحت جبلاً ثقيلاً كان جاثمًا على أنفاسها، ثم قالت:

– عرفت ليه يا خالد أنا خنت جوزي، وأنا حبيتك بجد.. أول مرة أحب فيها ومن بداية علاقتنا وأنا مابقتش أشوف راجل غيرك.

ضمها خالد وقبل وجنتيها وهو يقول:

– ماكنتش أقصد أجرحك.

ابتسمت ابتسامة خفيفة ولمعت عيناها في سعادة قائلة:

– لا يا خالد أنت ما تعرفش أنا ارتحت كتير لما فضفضت لك.

ارتدت ملابسها ثم قبلته، وعلى وجهها شعور بالرضا وقالت وهى تخرج:

- أشوفك بكرة يا حبيبى.. تصبح على خير.

*****

(5)

إلى حدٍّ ما تحسنت الحالة النفسية والجسدية لسحر، منذ أن عملت في محل الحاج إبراهيم، وأخيرًا شعرت بآدميتها بعد أن انتهكت جسديًّا ونفسيًّا دون رحمة، وما قد يكون قاسيًا بالنسبة لبعض الناس قد يكون رفاهية لأناس آخرين، وهو ما يفسر التحسن الواضح الذي طرأ على سحر حيث أصبح وجهها الخمري أكثر نضرة وجمالاً، وصارت تنام سبع ساعات وأكثر على سرير ومرتبة وتجد حمامًا تغتسل فيه وترتدي ملابس جميلة وجيدة على الموضة كانت تأخذها من الحاج إبراهيم من وقت لآخر، كل ذلك رغم برنامجها اليومي القاسي الذي يبدأ من استيقاظها في الثامنة والنصف وبمجرد فتح المحل في التاسعة ودخول البنات يبدأن في تنظيف ودعك أرضية المحل بالماء والصابون ثم يقمن بترتيب ورص البضاعة والوقوف على أرجلهن ساعات طويلة في انتظار الزبائن.

كان يومها حافلاً بالمتاعب حيث تتعامل مع الزبائن باختلاف ثقافاتهم من بيع وإقناع ومناهدة وتلبية طلباتهم حتى وإن بدت سخيفة، وخاصة في أوقات الذروة المسائية التي تعج بالزبائن.

عندما تشير الساعة إلى الحادية عشرة، تغادر البنات كل منهن إلى منزلها، ثم يغادر الحاج إبراهيم بعد أن يغلق المحل، وكم كانت سحر تشعر بالخجل من زميلاتها وهى ترى نظراتهن المشفقة أحيانًا، والوقحة أحيانًا أخرى.

*****

– تشرب إيه؟

– أي حاجه.

– اتنين شاى لو سمحت.

قالها سامي للجرسون ثم نظر إلى سيد، وقال:

– المكان هنا جميل.

– لكن غالي.

– يعني لكن يستاهل لأنهم بيتقنوا شغلهم كويس من حيث التنظيم والخدمة الراقية ودا أهم شيء، بالإضافة للهدوء والنضافة وهو دا اللي ينقصنا كمجتمع: إتقان العمل.

– أكيد.

كان سامي يريد أن يمهد للحوار بالكلام عن العمل والجد والسعي في الأرض والبعد عن التواكل.

– أنت قلت إن أنا كل همي الدنيا وإني غير ملتزم، على فكرة أنا حافظ خمسة أجزاء من القرآن وحافظ أحاديث كثيرة والحمد لله باصلي الفروض الخمسة في أوقاتها وباراعي ربنا في كل تصرفاتي.

أخذ سامي رشفة شاي ثم استطرد:

– يعني المظاهر مش كل حاجة الدين المعاملة والمفروض أننا مانحكمش على الناس بالمظاهر لأن أحيانًا كثيرة المظاهر بتخدع...

– كل دا ما يخليكش تقول حاجة على الشيخ عابد.

– أنا كل اللي عاوزك تعرفه إن العقل دا نعمة والإسلام حثنا على إعمال العقل في كل شيء..

سريعًا قال سيد:

– أنا ما باحبش أشغل عقلي.

– دا كلام غلط لازم نحكم العقل في أي كلام نسمعه مهما كانت درجة ثقتنا في اللي بيتكلم وفي أي حاجة، يعني الشيخ اتكلم خطبة طويلة عريضة عن غسل الميت مع إن في حاجات تانية أهم.

في تململ وعدم اكتراث قال سيد:

– زي إيه؟

– يعني ليه ما يتكلمش عن العدالة الاجتماعية وعن غياب الديمقراطية؟

ظهر الغضب على وجه سيد وقال في لهجة حادة:

– الديمقراطية حرام.

– حرام! مين اللي قالك كده؟

– كل الشيوخ.

– ممكن أعرف ليه أفتوا إنها حرام؟

– علشان الديمقراطية بتقول إن الشعب يحكم نفسه بنفسه حكم الشعب للشعب، وإحنا عاوزين حكم ربنا عاوزين الخلافة الإسلامية.

ابتسم سامي ثم أخذ رشفة شاي ابتلع معها سخريته، وقال:

– الديمقراطية إزاي تكون حرام وهي بتنادي بالحرية والعدل والمساواة وحق الشعب في اختيار اللي يحكمه، بل ومحاسبته وعزله إن حاد عن الصواب ودي كلها مبادئ بيقرها الإسلام، وفي سورة في القرآن اسمها الشورى.

سيدنا أبو بكر في خطبته عندما تولى الخلافة قال إن أصبت فأعينوني وإن أخطأت فقوموني، يعني لو فيه ديمقراطية حقيقية وعدل، لا يمكن تكون في ناس فقيرة جدًّا ومعدمة وساكنة العشش والقبور، ومش لاقيه قوت يومها ومحاصرين بكل الأمراض، من التهاب كبدي وبلهارسيا وفشل كلوي وأنيميا، وغير الأمراض النفسية بسبب الضغوط والمعاناة اليومية، ومش لاقيين تمن العلاج، ويترموا في المستشفيات الحكومية علشان يتعذبوا ويموتوا فيها بالبطيء، وفئة قليلة تملك كل شيء وتسكن القصور وتمتلك اليخوت وتنهب وتسرق مليارات من فلوس الشعب، ولو مرضت تسافر تتعالج في أحسن مستشفيات في الخارج وعلى حساب الدولة كمان، ولا يمكن يبقى فيه جهل وأمية والأجور متدنية، لو في ديمقراطية أنت واللي زيك تمارسوا شعائر الدين بكل حرية، حتى لو قعدتم في الجامع ليل ونهار، ولا يمكن يكون ليك ملف أمني، ولو اتكلمت في السياسة

تعتقل وما تشفش النور، أما بالنسبة للخلافة الإسلامية دي كانت أيام الصحابة بس، أيام سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان وعلي، ولا يمكن يتواجد إنسان مثل هؤلاء الصحابة الأفذاذ، إحنا أصبحنا في زمن غير الزمن، وحكم ربنا عشان يكون لازم يكون فيه حرية وديمقراطية وعدل، وعلى فكرة الأجانب في الدول الأوروبية، لم تتقدم وتصل لما وصلت إليه إلا بالديمقراطية.

قال سيد في برود وكأنه لم يستمع إلى أية كلمة:

– الأجانب اللي أنت بتقول عليهم وعاجبينك مش كل حاجة عندهم كويسة دا كفاية الأمراض اللي عندهم.

لم يتمالك سامي نفسه وأطلق ضحكة عالية وكما يقال (شر البالية ما يضحك)، لكن ما سريعًا تمالك نفسه وقال:

– آسف يا سيد، لكن مين اللي قالك الكلام دا، الأجانب معندهمش واحد في المية من الأمراض اللي عندنا، يا ابني عاوزك تفهم حاجة مهمة إن اللي بيقول الديمقراطية حرام، وإحنا زي الفل والأجانب هما اللي عندهم أمراض دا كلام غلط، وأنا مش عاوز أقول لك إن الشيخ اللي بيقول كدا، بيقول خطب أمن الدولة ودا شيء مخطط ومعروف، عشان الناس تفضل مغيبة وما تطالبش بحقوقها، ويفضل المسئولين في مناصبهم لأنهم عارفين إن الدين له تأثير كبير جدًّا على الناس في مصر.

– أنت بتقول إيه؟ إذا كان الشيوخ بيشوفوا الويل منهم.

– غير صحيح اللي بيشوف الويل هو اللي بيتكلم في السياسة بس، لكن اللي بيتكلم في أي حاجة تانية بيكون على راحته، والدليل إن الشيوخ دول بيتكلموا على حريتهم وفي أي مكان، وعمر ما فيهم حد اتسجن أو اعتُقل طالما بعيد عن السياسة وأنت أهو لا عمرك اتسجنت أو حصل لك حاجة.

في غضب وانفعال:

– وأنت كمان عاوزني اتسجن يا سامي؟

– آسف ما اقصدش. في حاجة ممكن أعرف الشيخ عابد بيشتغل إيه؟

صار سيد في قمة الغضب وزادت حدته في الكلام:

– يا أخي دا ظروفه صعبة جدًّا أنت فاكره بيكسب من الخطب دا في مرة قال لنا لولا الهدايا ماكنتش اشتريت الجلباب اللي عليا.

– يعني ما بيشتغلش!!

– آه.

– بقى دا كلام يا راجل عايش على الهدايا، يا شيخ دا العمل عبادة، طبعًا أنت عارف القصة، اللي كان في واحد جالس على طول في الجامع بيصلي الرسول عليه الصلاة والسلام شافه سأل من ينفق عليه قالوا أن له أخ يرعاه وينفق عليه قال الرسول أخوه أعبد منه.

كان كلام سامي يدخل من أذن سيد اليمنى ولم يلبث أن يخرج سريعًا من أذنه اليسرى دون أن يمكث ولو للحظة يحاول فيها أن يفكر ولو قليلاً في كلامه.

في تجهم واضح قال وقد همّ واقفًا:

- الديمقراطية حرام وحرام عليك تقول عليها غير كدا وأنا قلت لك قبل كدا مش أنت اللي تعرفني الحلال والحرام والشيخ عابد أكبر من اللي زيك يتكلم عليه. واستطرد وهو يغادر: إحنا عارفين طريقنا كويس يا علماني.

حاسب سامي سريعًا وحاول أن يلحق بسيد لكن المسافة أخذت تتباعد بينهما شيئًا فشيئًا ليقول سامي بعد أن وقف ينظر في ضيق ويهز رأسه في أسف:

- مفيش فايدة!

*****

الوجوم والصمت يسيطران على كل من نادر ونادية، وذلك بعد أن قال لها أن أباه اختار له بنت أحد أصدقائه وتم تحديد موعد للتعارف.

كان وقع الخبر شديدًا عليها حيث ظنت أنها خدعت فيه للمرة الثانية، إذ لم يكن في اعتقادها حدوث ذلك خاصةً بعد أن سيطرت عليهما حالة من الصفاء، بعد الموقف الذي عصف بعلاقتهما وتباعدا على أثره وقتًا طويلاً، وعندما عاد إليها شعرت بصدق

مشاعره ورأت ذلك في كل تصرفاته وتأكدت أنه تغير كثيرًا عن الماضي من أجلها، كان يحاول جاهدًا إرضاءها، إنه فعلاً أحبها وأصبح لا يستطيع الاستغناء عنها وقد هجر كل البنات من أجلها، وكان جادًّا حينما وعدها بالزواج وسريعًا شاع خبر ارتباطهما في سائر أرجاء الكلية، وصار لا يوجد أحد لا يعرف أن نادر سوف يتزوج من نادية بعد التخرج، من الصعب عليهما تحمل صدمة أخرى وأن تجرح ثانيًا لن يرحمها أحد.

أثناء سيرهما في الكلية حاول أن يتكلم ويشرح لها ما حدث لكن الكلام كان ثقيلاً وكأن أحدًا يمسك لسانه، إن الموقف أكبر من أن يتحمله ولزم عليه أن يواجه هذه المرة ويدافع عن حبه، وخصمه ليس كأي خصم لا يستطيع أن ينتصر عليه بأمواله، ولن تكون العامل الحاسم في معظم صراعاته كما هي العادة، لأن الخصم هذه المرة هو أبوه، ومن الصعب بل والمستحيل أن يوافق على زواجه من بنت موظف، وكان عليه أن يطمأن نادية أولاً وذلك ليس بالشيء الهين.

سقطت دمعة حبيسة من عينيها جاهدت نفسها كي تمنعها، وراحت تنعى حظها، بعد أن شعرت أن الحياة ستضحك لها أفاقت على صدمة أخرى، رأى نادر دموعها ليكسر حاجز الصمت قائلاً في لهجة تبدو صادقة:

– أنا عارف إن ثقتك فيا مهزوزة لكن أوعدك إني أدافع عن حبنا.

نظرت إليه ولم تستطع الكلام ليقول:

– قولي حاجة يا بنتي أنا عاوزك ما تزعليش ثقي فيا المرة دي.

خرج الكلام من نادية في صعوبة متقطعًا:

– أنا مش عارفة أقول لك إيه لكن يظهر عليا إن ما باتعلمش من أخطائي وأستحق كل اللي يحصل لي.

– ليه بتقولي كده؟

– مش عارف ليه؟! أنت أول مرة كنت عاوز تخليني زي أي بنت من الساقطات اللي تعرفهم، مع إني كنت واثقة فيك وكنت باحلم إننا نتجوز، وصحيت من الحلم على كابوس فظيع والحمد لله ربنا نجاني منك، وأخذت عهد على نفسي إني أكون حذرة في تعاملي مع أي حد، واعتبرت إن كل حاجة بينا ماتت لكن ماقدرتش وضعفت وصدقتك للمرة التانية، ودلوقتي بتقول إن أبوك اختار لك العروسة بنت واحد صاحبه مليونير زيك، كان لازم أعرف إن لا يمكن أبوك يوافق على جوازنا وإن لا يمكن تصدق في كلامك أو تتحمل مسئولية.

نظر إليها نادر وهو يبتسم وأخذ يمسح دموعها ثم قال:

– أنا يمكن كنت في الأول فعلاً زي ما قلتي مش فارقة معايا زي أي واحدة، لكن أنا حبيتك ومقدرتش أستغنى عنك لما كنتِ بعيدة عني كنت باشوف كل واحدة على إنها أنتِ وعشان أثبت لك كلامي أنا هاقنع بابا ونتجوز بعد امتحانات الليسانس.

- ولو رفض؟

- نتجوز في السر ومن غير موافقته.

انتبهت نادية لما قال، وومضت عيناها ثم قالت في لهجة يغلب عليها الفزع:

- في السر؟؟ أنا لا يمكن أتجوز بالطريقة دي، وبعدين أنا لما أتجوز لازم الناس كلها تعرف، وممكن يحرمك من الميراث وأنا مارضلكش تعيش في أقل من المستوى اللي اتعودت عليه.

ظهرت نواياها حيث إنها لا تحبه لشخصه، إنه أتفه من أن تفكر فيه لشخصه لكن عشقته فقط لماله الذي إن خسره فسوف يصبح بلا قيمة بالنسبه إليها.

- مش مهم.

- لا يا حبيبي لازم أبوك يوافق ودا أهم شرط عندي.

ابتسمت ابتسامة صفراء ثم استطردت:

- أنا مايرضنيش طبعًا إنك تتبهدل بسببي.

بدا الأمر منطقيًّا له بل إنه اقتنع فعلاً بأنها تحبه وتريد مصلحته. لكن كيف يقنع والده بزواجه منها؟!

***

قبل الميعاد المحدد لزيارة رجل الأعمال وعضو مجلس الشعب معتز الزيني، حسم نادر قراره بعدم الذهاب، وتصميمه على الزواج من نادية، لكن ماذا يفعل إن رفض أبوه؟! وهذا وارد جدًّا حسب

تفكير أبيه المجرد تمامًا من العواطف والقائم على المصالح والصفقات.

أثناء جلوسه مع ماهر في بهو القصر اقترب نادر منهما قائلاً:

– بابا عاوز أتكلم معاك.

نظر سعيد باشا في دهشة ثم قال:

– سيبنا يا ماهر دلوقتي... فيه إيه؟! المفروض إنك تجهز عشان ميعاد الزيارة.

– ما أنا عاوز أتكلم معاك عشان كده.

– خير؟!

قالها ثم أشاح بوجهه وأشعل السيجار:

– أنا مش رايح معاك في الزيارة دي.

رجع سعيد باشا بظهره للوراء وقال في لهجة تبدو معها أن موافقة نادر غير مهمة ولا تعنيه:

– ليه مش رايح؟!

– أنا اتفقت مع بنت زميلتي على الزواج.

هز سعيد باشا رأسه ولوى شفتيه في قرف وصمت قليلاً قبل أن يتنهد قائلاً:

– بنت زميلتك إحنا مش كنا اتفقنا إنك تشوف البنت اللي قلتلك عليها

– ... ...

– إيه ما ترد! أقدر أعرف البنت اللي عاوز تتجوزها أبوها بيشتغل إيه؟

– كان موظف بس دلوقتي على المعاش.

في حدة وعصبية وكأنه ينتظر سماع هذه الكلمة حتى يبدأ الهجوم:

– عاوز تتجوز واحدة أبوها موظف، أنا أقول لك بنت رجل أعمال وعضو مجلس شعب، وأنت تقول زميلتي وأبوها موظف يا فرحتي بابني اللي هايتحمل المسئولية من بعدي، أنت مش ناوي تكون راجل وتسيبك من التفاهة اللي أنت فيها، لكن إزاى وأنت كل حاجة عاوزها بتجيلك في لحظة من غير تعب، أنت عارف جوازك من بنت معتز الزيني هيفيدنا قد إيه؟

شعر سعيد باشا أنه احتدَّ جدًّا على نادر، ويجب أن يكون أكثر حكمة في التعامل معه حتى لا يتشبث برأيه، استرجع هدوءه وكأنه استبدل شخصًا آخر، ثم استطرد: يا ابني أنا باعمل كل دا لمصلحتك وأنت عارف أنا عايش في صراعات مع ناس ما بترحمش عشان تكون معاك ثروة تعيش بيها ملك، لازم تفهم الجواز صفقة ومصالح تتلاقى مع بعضها والشاطر هو اللي يحقق أكبر استفادة من جوازه، دا الفقير بيدور على واحدة غنية علشان تاخده معاها لفوق وأنت عاوز تتجوز واحدة تنزلك لتحت؟! إحنا في زمن المصالح.

وضع نادر وجهه بين يديه لحظات، حيث قرر أن يواجهه ويقول فيه رأيه بصراحة، سوف يثور ويعريه أمام نفسه، لا يمكن أن يتحمل هو كل شيء، طالما أراد أن يشعر ولو لمرة واحدة بأبوته بحبه وحنانه، تمنى كثيرًا أن يأخذه في حضنه ويربت عليه ويمسح على شعره، أو يأخذه ويخرجا سويًّا ولو لمرة واحدة ويمرح معه، إنه لا يتذكر مرة لعب معه وهو طفل، حيث كان ذلك ضربًا من المستحيل فهو دائمًا مشغول وكأنهما يعيشان في فندق، حتى التواصل بينهما كان يتم عن طريق "واسطة" أحد الخدم، ونتيجة ذلك افتقد نادر لحنان الأم والأب معًا، كيف يلومه الآن على أفعاله وهو ضحية له، ليس المهم أن يأتي له بكل ما يطلبه على قدر ما كان يريد أن يشعر بأن لديه أب حنون يحتويه.

رفع وجهه متحاشيًا النظر إليه ثم قال في حماس:

– أنت صحيح وفرت لي كل حاجة، لكن عمرك ما أخدت رأيي في حاجة، عمرك ما سمعتني أو نصحتني زي أي أب، أنا ما افتكرش مرة واحدة خدتني في حضنك، على طول مسافر أو مشغول، أنت اللي بتفكر لي وتاخد كل القرارات من غير ما تاخد رأيي، اخترت لي كلية الحقوق من غير ما تناقشني أو تكلف نفسك وتعرف أنا عاوز أدخل أي كلية، المهم تحقق اللي أنت عاوزه، عاوز تشغلني معاك وأنت عارف إني ما باحبش شغلك ولا يمكن هاكون زيك، عمرك ما سألتني الفلوس اللي بتاخدها بتصرفها فين، وبتقول عليا تافه

وعاوز تجوزني بنت واحد صاحبك عشان المصالح والفلوس، هو إحنا ناقصين فلوس هاستفيد إيه من الفلوس لو أكون تعيس؟ لازم تعرف إن أنت اللي خلتني تافه مش حد تاني، والجري ورا البنات اتعلمته منك، أنت كمان كل يوم مع واحدة، آسف يا بابا مش هاقدر أنفذ كلامك المرة دي أنا اخترت واحدة باحبها وهى دي اللي هاتجوزها.

صمت سعيد باشا كثيرًا وطويلاً ثم عاد بظهره للوراء وحدق في السقف، وكأن كلام نادر وضع يده على الجرح الذي يشعر به لكنه لا يعلم مكانه، ولم يلبث أن رأى نادر يغادر حتى وقف قائلاً:

- نادر.. على فين؟

تسمر نادر مكانه والتفت إلى الوراء، وقبل أن يتكلم رأى سعيد باشا يفتح ذراعيه ويهز رأسه ويبتسم، اتجه نادر بخطوات بطيئة نحوه وتعانقا وأجهش نادر في البكاء ربت سعيد باشا على ظهره وهو يقول في لهجة حانية:

- أخطاءك كابن انعكاس لفشلي كأب، أنا موافق على البنت اللي أنت اخترتها وبعد ما تاخد الليسانس هاجوزها لك.

تهلل وجه نادر بسعادة غامرة ولم يجد كلامًا يعبر به عن سعادته، إلا تقبيل أبيه وقد شعر لأول مرة بحبه.

*****

وقف سامي خارج الكافتريا حتى صار سيد على مرمى البصر، وأخد يتعجب من تلك الناس التي تستكثر على نفسها مجرد التفكير فيما تسمع وتترك عقولها فريسة للتزمُّت ولعبة بين أيدي منتفعين.

استقل سيارته وأخذ يجوب الشوارع وهو شارد وبداخله سؤال يلح عليه: لماذا أصبحنا هكذا؟! ولا يعلم كيف كان يقود السيارة، ولا كيف تخطى الزحام الرهيب، كان كل شيء يبدو أطيافًا ليجد نفسه أمام المنزل.

كان في المنزل في صحبة أبيه، الدكتور عبد الواحد أستاذ الشريعة الإسلامية، أول ما لفت انتباه سامي في الدكتور عبد الواحد وجهه البشوش وأناقته حيث كان يرتدي بدلة كاملة، ولمس في حديثه الهادئ رقي أسلوبه وعلمه وثقافته ودراية كاملة بالأحداث ومنطقه في تفسير وتقييم الأشياء، وتعجب في نفسه وابتسم عندما تذكر الشيخ عابد الذي يعتبر نفسه العالم الأوحد في الكون، وهو أقصى ما يمتلكه من علم لا يتعدى بضع خطوات في طريق لا نهاية له.

أراد سامي أن ينتهز فرصة وجود الدكتور لعله يجد لديه إجابة على تساؤله. قال وقد ارتسمت على وجهه بعض الحيرة:

– ممكن أسألك سؤال يا دكتور؟

ابتسم الدكتور عبد الواحد وقال مداعبًا:

– من أول مقابلة كده يا سامي؟

- ليه المجتمع بقى كده؟

- بتقول كده ليه؟

- أقصد انتشار الرشوة والفساد والظلم رغم التديُّن اللي بيدعيه الناس؟

قبل أن يجيب ضحك الدكتور سراج قائلاً:

- سامي يا دكتور مهتم جدًّا بالمجتمع وعنده أنشطة عديدة ورئيس اتحاد الطلبة ومحرر في إحدى جرائد المعارضة.

ابتسم الدكتور عبد الواحد وقال:

- ما شابه أباه فما ظلم يا دكتور سراج.

سامي:

- ربنا يخليك يا دكتور وكمان رجال الدين اللي بيكونوا سبب في تغييب عقول الناس.

قال الدكتور عبد الواحد ولا تزال الابتسامة تعلو وجهه:

- شوف يا سامي في بداية كلامي لازم أقول لك أنا معجب بالكلام اللي أنت بتقوله، ويكفي إنك ما زلت طالب وابن الدكتور سراج الجراح الكبير، لكنك مهتم بالمجتمع وتعمل على إصلاحه، وياريت يكون عندنا شباب كثيرون من أمثالك، كانت أشياء كثيرة ممكن تتغير، أما بالنسبة لسؤالك لو بدأنا من العصر الأول أو عصر الخلفاء الراشدين لم يكن منصب رجل الدين موجود، والفترات اللي كانت فيها الدولة الإسلامية قوية سياسيًّا واقتصاديًّا وعلميًّا،

كانت تتسم بالتسامح والحوار في الأمور الدينية وحق الفرد في التحاور مع الفقيه إن لم يكن منطقه مقنعًا لصاحب السؤال، لأن في النهاية الفقيه بشر يجتهد قد يصيب وقد يخطئ ويفتي بما يعتقد أنه صواب، وخلال تداول الدول تراجعت قيم الدين وسادت سلطة رجل الدين وهو منصب لم يعرفه الإسلام، إلا بعد أن تسلط الحكام على المحكومين فاحتاجوا إلى رجل الدين لترويض الناس لسلطانهم وينشأوا دول ديكتاتورية على أسس دينية ويرسخوا لمبدأ طاعة الحاكم حتي وإن جلد الظهور وقطع الرقاب، وصار رجل الدين هو الوحيد الذي يمتلك الحقيقة ولا تجوز مراجعته أو مخالفته فيما يقول ولا يتسامح مع من يختلف معه وهو في ذلك يستخدم سلطة الحاكم ويده يضرب بها من يخالفه، ومعظم النظم الديكتاتورية قامت على أكتافهم وقد نراهم الآن يستثمرون الدين في الربح والتجارة، وقد اكتسبوا قداسة يتحصنون بها فهم الوحيدون الذين يمتلكون الحقيقة ولا يخطئون، وهم في ذلك يناقضون الإسلام الذي جاء ليلغي الواسطة بين العبد وربه ولم تأتِ الرسالات السماوية والديانات للبشر كي تخلق قديسين، إنما جاءت لإرساء مبادئ أسمى مثل العدالة الاجتماعية والمساواة وتحرر الناس من عبودية غير الله، لكن الناس بعدت كل البعد عن جوهر الدين وأصبحت تغالي وتفرط في إظهار شكليات الدين، فهو الملاذ الذي يلجأون إليه بعد أن همشوا وحطمت أحلامهم وكبتت آراؤهم، فأصبح الإفراط في التدين

الشكلي متنفسهم الوحيد الذي يلجأون إليه ليخفوا وراءه عجزهم وضعفهم، لسانهم يقول شيء ويفعلون شيء آخر ومن يحرص على إظهار شيء في العلانية يكون أشد البعد عنه في الخفاء مثل العامل الذي يظهر همة ونشاط حين يتواجد صاحب العمل أو مديره تجده في قمة الكسل والتراخي عندما يكون بمفرده.

*****

كان خالد يجد متعة كبيرة عندما يجلس مع عم حامد، يسمع لآرائه وحكمته وللحكايات التي يرويها ولا مانع من أخذ رأيه في بعض الأمور الخاصة التي تستعصي عليه وتؤرقه، وقد صار يتجول في كل أركان الشقة وأغرم بتلك الرائحة العتيقة التي تفوح من أثاثها حتى إنه أحيانًا كان يعد الطعام والشاي ليتناولاه سويًّا.

أعد خالد براد الشاي وجلس ثم أخذ رشفة وهز رأسه وتنهد قائلاً:

– والله يا عم حامد الدنيا غريبة جدًّا ممكن الإنسان يكون فيها ظالم ومظلوم في نفس الوقت...

وصمت قليلاً وشرد فيما قالته سميرة، كيف أنها كانت ضحية مجتمع قاسٍ يضن على بعض مواطنيه بأبسط الأشياء وأدنى ضروريات الحياة، حتى وإن كانت شقة صغيرة تجمع عائلة بين جدرانها، وكيف أنها تحولت لظالمة عندما انتقمت من المجتمع في صورة زوجها الذي ائتمنها على بيته وشرفه.

قال عم حامد بصوته الواهن:

– عندك حق يا ابني ناس كتيرة بتتظلم وبدل ما تتعظ تتحول لظالمة، لكن في حاجة الضغوط أحيانًا بتكون أقوى من الإنسان وتحدد بدرجة كبيرة مصيره، زي اللي مش لاقي شغل في الحالة دي ياكل منين ويعيش ازاي، بيضطر إنه يمد إيده ويصبح حرامي، أو اللي مش لاقي يتجوز ويكبر في السن، يضطر إنه يزني عشان يشبع غرائزه وغيرها أمثلة كثيرة يا ابني، عشان كده قبل ما تحكم على حد عمل حاجة فكر لو أنت مكانه كنت ممكن تعمل إيه، وزي ما أنت قلت في الحالة دي بيكون مظلوم، لأنه دُفع وأرغم إنه يعمل كده، ويكون ظالم لأنه على الأقل ظلم نفسه.

أخذ خالد رشفة شاي ابتلع معها مرارته من هذا المجتمع الذي قد يدفع الإنسان ليصبح خارجًا على القانون.

شرد عم حامد لحظات تذكر زوجته وكيف أنها لم تتخلَّ عنه رغم أنه منحها حرية الاختيار، تحملت حالته النفسية السيئة وثورته على أتفه الأسباب، لكنها كانت تقابله بحنية ودفء ليس لهما مثيل، وتحتويه كطفل صغير تبث فيه الطمأنينة والثقة، تذكر بعضًا من كلماتها حينما كانت تهمس في أذنه: (أنا ماليش غيرك يا حامد، أنت حبيبي وزوجي وأخويا كفاية عليا طيبتك وحنانك وحبك)، حينها تتساقط دموعها وهى تقبله في جميع أنحاء وجهه، لتمتزج معًا كما امتزجت مشاعرهما، كانت السعادة تحيط بهما وتزداد يومًا بعد يوم، لم يشعر خلالها بنقص في رجولته قط، وعندما مرضت كان على

استعداد أن ينفق كل ماله في سبيل علاجها، لكن الله استرد أمانته. رحلت وأخذت معها البهجة والسعادة والأمان، كم تمنَّى أن يموت ويلحق بها، لكن الله أمد في عمره، ورغم مرور سنوات على موتها إلا أن كل شيء لا يزال في مكانه كما هو، وقد اعتاد منذ موتها على زيارة قبرها كل أسبوع يقرأ لها الفاتحة ويوزع بعض الصدقات على روحها، وأحيانًا يتحدث إليها ويشكو معاناته ووحدته وقد يقضي اليوم بأكمله في المقابر، كان يجد طمأنينة وراحة في تلك الزيارات وقد يمسك بصورتها وهو نائم ويكلمها بالساعات دون كلل.

أحس خالد بأن كلامه لمس شيئًا داخل عم حامد الذي بدا صامتًا متأثرًا. قال وهو يبتسم:

- رُحت فين يا عم حامد؟

بدا عم حامد صامتًا يحاول التغلب على حزنه ودمعة في عينيه حاول إخفاءها، ليقول خالد محاولاً إخراجه من هذه الحالة:

- آسف يا عم حامد إن كنت فكرتك بحاجة.

في صوت ضعيف حزين تعتصره المرارة قال:

- لا يا ابني بس افتركت المرحومة دلال.

- الله يرحمها.

- عارف يا ابني أنا خايف أموت وماحدش يحس بيا.

- إزاي يا عم حامد الجيران كلهم بيحبوك.. وربنا يديك الصحة.

– يا ابني دي سنة الحياة أنا نفسي اخواتي وأولادهم يزوروني ويبقى فيه مودة.. الوحدة مرة أوي يا ابني.

– طيب ليه أنت ماتزرهمش؟

– حاولت كتير وفي كل مرة تكون مقابلتهم من سيئ لأسوأ رغم إني مابخلش عليهم بحاجة لكن مش عارف ليه الكرْه دا حتى من أولادهم.

– دول يا عم حامد مايتزعلش عليهم.

– قول لي يا ابني أنت من أول ما سكنت هنا وأنا حاسس إنك مابتسفرش بلدكم حتى في الأجازات.

– والله يا عم حامد أنا خلال الأربع سنين ماسفرتش فيهم غير مرة واحدة، وكانت شهر واحد حتى الأجازات باشتغل فيها هنا عشان أساعد في مصاريف الدراسة، وأكلمهم في التليفون كل فترة، أنا مش عارف أزاى يا عم حامد أخواتك يعملوا كده معاك دا يا ريت كل الناس زيك.

– أنا بأشفق عليهم الدنيا ماتستهلش كده وأنا عمري ما فكرت أحرمهم من حاجة لكن هما ما يعرفوش غير الكره وإنهم يورثوني مش قادرين يفهموا إن اللي بيزرع كره لازم يحصد كره.. ويا ريت يا ابني تزور أهلك على قد ما تقدر إوعى تقطع صلة الرحم.

*****

– أنت خارج يا باشا؟

- أيوه.
- أجهز الحراسة؟
- لأ.
- يا باشا كده في خطورة عليك.. أخرج معاك؟
- لأ أنا خارج لوحدي.

قالها سعيد باشا ثم خرج بدون حراسته المعتادة، مرتديًا بالطو أسود وكوفية بيج ونضارة سوداء، في خطوات بطيئة أخذ ينتقل من شارع لآخر، كان يشعر بنسمات الحرية التي افتقدها كثيرًا، وحقًّا لا يمكن أن يجتمع الشر وراحة البال، عندما كان صعلوكًا كان يتجول في الشوارع كيفما شاء وأينما شاء، ممكن أن يقضي ليلته في لوكاندة وممكن يقضيها على الرصيف لا تفرق معه، كان يأكل بلذة ونهم سندوتش فول، والآن يأكل الكافيار ولا يشعر بتلك اللذة، يسكن في قصر فخم أشبه بالقلعة محاط بالحراسة لكن لا يشعر بالسعادة والطمأنينة.

أخذ يفكر في حياته وما آلت إليه، من صراعات وقتل وتهديد من أجل المال والسطوة، والآن قد جمع ثروة طائلة ولديه نفوذ لكنه فقد راحة البال وأن ينعم بهذا المال، وها هو أمام أمر واقع لن يستطيع تغييره بعد موته أو قتله وذلك أمر متوقع لديه ويدركه جيدًا ستضيع كل ثروته على أيدي نادر.

أخرج الهاتف المحمول من بين طيات ملابسه وطلب رقمًا.

- ألو.
- إزيك يا معتز بيه
- ... ...
- آسف يا معتز بيه حصلت ظروف هتمنع الموضوع اللي اتفقنا عليه.
- ... ...
- باكرر أسفي.

أغلق الخط ووقف قليلاً ونظر لأعلى ثم أكمل سيره، وراح يسترجع الماضي البعيد.. إنه يلعب في فناء الدار مع أخته الرضيعة، يرى أمه تمسك زجاجة والدموع تنهمر من عينيها، يناديها مداعبًا لكنها لا تجيب.

يضحك عندما يراها تسكب ما تحويه الزجاجة على نفسها، إنه يصرخ بأعلى صوته إن ما تحويه الزجاجة كان جازًا! نعم أشعلت أمه النار في نفسها، لحظات وكانت الدار تكتظ بالناس ليجد نفسه وأخته في دار أحد جيرانهما تحيطهما نظرات الشفقة والعطف، وما هي إلا أيام حتى كان أبوه قد باع الدار وانتقل بهما إلى الإسكندرية، ليتزوج من جملات ابنة عم أمه التي دائمًا ما كان يراها تتشاجر مع أمه.

كانت جملات جميلة الوجه دميمة الخلق غيورة حقودة، غير الغل الشديد الذي تكنه لأمه، بل إن الغل كان على أشده بين الأسرتين

وكل ذلك لا يمثل شيئًا لما تكنه زوجة الأب من مشاعر سلبية لأبناء زوجها.

كان سعيد حينها لا يتعدى سبع سنوات لكنه لا يزال يتذكر كل لحظة قضاها في براثن جملات، عندما كانت تترك أخته الرضيعة تصرخ وتتلوى من شدة الجوع، وهى تجلس أمام المرآة تتزين ولم يستمر الأمر طويلاً حيث وسعت رحمة الله الطفلة واسترد أمانته، لتجد جملات في سعيد مبتغاها للتنفيس عن تلك الكراهية والغل السابق لأمه كذلك كونه ابن زوجها.

كانت تتفنن في تعذيبه وتتلذذ ببكائه، عندما تضربه بخرطوم المياه في منتهى القسوة وإيقافه عاريا في الحمام بالساعات وسكب الماء البارد عليه، جعلت منه خادمًا يكنس الشقة ويمسحها ويغسل الأواني وجائزته بعد ذلك رغيف خبز فقط، وإن كانت في حالة صفاء أغدقت عليه بقطعة جبن، نام ليالي طويلة يعاني فيها من شدة الجوع والألم خاصةً في الليالي التي يعمل فيها أبوه في الوردية الليلية، كانت تتلون كالحرباء عندما يوجد أبوه في المنزل تتظاهر أمامه بالحنان والرأفة، وما كان منه إلا أن يسلم بذلك أو يوهم نفسه اتقاءً لغضبها الذي يعني أن يُحرم من جسدها أيامًا، وعندما يشتكي له سعيد أو يئن، يلقى جزاء ه من توبيخ وقسوة وربما الضرب لينال ثناء ها ويكسب رضاها، حتى كانت ليلة لا تزال عالقة بكل تفاصيلها في ذهن سعيد وكأنها حدثت منذ بضعة أيام وليس عقود طويلة.

كانت ليلة شديدة البرودة، كان نائمًا يهذي من الحمى، وإذ به يستيقظ وقد شعر بظمأ شديد.. الحجرة مظلمة تمامًا ارتجف من شدة الخوف تغلب على الخوف والحمى ونهض يتحسس طريقه إلى الثلاجة، وإذ به يسمع صوتها، إنها هو نفس الصوت الذي طالما يسمعه خاصةً في الليل، وقف ساكنًا وقلبه يكاد يتوقف من الخفقان، لكن خطر على ذهنه أنه لا يمكن أن يكون ذلك حقيقيًّا إنها الحمى التي تهيئ له ذلك، تحرك باتجاه الثلاجة لكن الصوت أخذ يعلو، كيف يكون ذلك؟! إن أباه الليلة في العمل ولن يأتي إلا مساء اليوم التالي، تسلل على أطراف أصابعه حتى اقترب من باب حجرة النوم ثم أخذ ينظر من ثقب الباب، وليته ما نظر إنها جملات! الصوت صوتها هو ذاك الصوت الخليع الذي اعتاد أن يسمعه في الليل لكن الذي معها ليس أبوه... إنه...

*****

كلما توالت عليها الأيام في العمل ازدادت سحر خبرة وأثبتت نفسها داخل المحل، لما لديها من أمانة وروح مرحة نالت معها ثقة الحاج إبراهيم في فترة وجيزة، واستطاعت بفطرتها وذكائها الريفي أن تحمل مسئولية جزء كبير من المحل وكأنها ولدت ونشأت بائعة، إنها تعرف جميع وسائل إقناع العميل والحرص على إرضائه، بل إنها استطاعت دون أن تعمد، أن تقترح على الحاج إبراهيم إدخال تعديلات جديدة على المحل ولم يكن يمانعها في ذلك، وشيئًا فشيئًا

سحبت السجادة من تحت أقدام شيماء الكاشيرة وهو ما جعل الحاج إبراهيم يمنحها إدراة المحل والإشراف على كل صغيرة وكبيرة فيه، وزيادة الراتب الذي خصصه لها.

كانت سحر بمساعدته قد بدأت في عمل دفتر توفير تودع فيه ما يتبقى لديها من نقود بعد مصاريفها، وقد استوعبت وأدركت جيدًا قيمة وأهمية النقود، عندما تكون في حاجة إليها، وكان الحاج إبراهيم بين الحين والآخر يمنحها بعض القطع التي بها عيوب الصناعة مجانًا وأدى ذلك إلى تحسن كامل في مظهرها الخارجي، واقتطعت جزءًا من المبلغ الذي ادخرته، وبعد موافقة الحج إبراهيم اشترت دولابًا صغيرًا مستعملاً تضع فيه ملابسها وترابيزة، حتى صار المكان كحجرة نوم صغيرة مثلت لها حياة جديدة.

*****

عندما تحلم بتسلق جبل شاهق الارتفاع ويكون تحقيقه شبه مستحيل، لكنك على مضض تبدأ في التسلق ولوهلة يبدو لك أن الحلم يمكن تحقيقه، وفجأة يتحول الحلم إلى سراب وتهوى إلى أسفل وقبل أن تصل الأرض يظهر طائر عملاق يمسك بك ويضعك على قمة الجبل (هل تستطيع أن تصف سعادتك) تمامًا كما حدث لنادية، عندما أخبرها نادر بموافقة أبيه على زواجهما، بل إنه لا توجد كلمات تستطيع أن تصف مدى سعادتها، ولولا أنها داخل أسوار الجامعة لكانت احتضنته، وربما قبَّلته أو صرخت بهستيريا أو حتى

أطلقت الزغاريد، لكن الدموع سبقت كل ذلك وأخذت تلح على نادر غير مصدقة قائلة في لهفة وفرح:

- بجد يا نادر باباك وافق؟

هز رأسه وهو يبتسم:

- وافق.

- اوعى تكون بتضحك عليا؟

- والله وافق.

- ... ...

- إيه الدموع دى!

- أنا فرحانة أوى.

- قد كده بتحبيني.

زاغت عيناها وهى تهز رأسها بالإيجاب:

- أيوه.

- بابا قال إن بعد امتحانات الليسانس نتجوز وهيعمل لنا فرح ولا في الأحلام ونسافر نقضي شهر العسل بره مصر.

- فين؟

- يعني.. لسه مش عارف على العموم أنا نفسي أسافر جنوب شرق آسيا.

- فين بالظبط؟

- ممكن تايلاند.

الآن تحررت نادية من الطبيعة البشرية، وصار لها جناحان وراحت تطير وتسبح في الفضاء كطائر صغير فرح وهو يحلق لأول مرة، بل تشعر بأنها أخف من الطائر وقد أصبحت تجول العالم في خيالها ولمَ لا عما قريب سيصبح الأمر حقيقة.

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتيها وقد صمتت طويلاً وكثيرًا وهى ترسم عالمها القادم وضحك نادر وهو يشير أمام وجهها قائلاً:

- إيه يا بنتي رحتي فين؟!

*****

- تحت أمرك يا هانم.

قالتها سحر لمدام عاليا في أولى مرات تعاملها مع المحل، والتي تبدو للوهلة الأولى شخصية غير عادية، لم تكن مجرد زبونة عادية بل سيدة أعمال، بوجهها العريض المتورد وجسدها الممتلئ شاهق البياض وشعرها القصير نسبيًّا الذي ينسدل على كتفيها، والابتسامة الصفراء المتعالية التي تعلو شفتيها، ونظرات عينيها الماكرة التي تحيط بكل ما حولها في كبرياء وغرور لا مثيل لهما وتحدثها في لهجة آمرة.

كانت في صحبتها فتاة جميلة تسير خلفها لا شك أنها سكرتيرتها أو وصيفتها، ومن خلال نظراتها الفاحصة شعرت سحر بأن شيئًا ما ينتظرها مع تلك السيدة، لا تعلمه لكن بفراستها وذكائها لمحت ذلك في عينيها ومن خلال الكلمات البسيطة التي تبادلاها بعد فترة ليست

بالقصيرة أمضتها مدام عاليا في التجول بين أركان المحل وانتقاء كل ما هو غالٍ وجميل.

كان الحاج إبراهيم قد نزل مكتبه في الدور الثاني، حيث جعل جميع البنات في خدمتها، وهو دائمًا بجانبها محاولاً إرضاءها والإطراء على البضاعة وحسها على الشراء بأعلى قيمة ممكنة، وعادة لا يفعل ذلك إلا مع عدد محدود من زبائن المحل المهمين، وبالفعل جاءت فاتورة الشراء عالية جدًّا أكثر مما توقع بل إنها قاربت على حصيلة بيع المحل في ثلاثة أيام.

عند مغادرتها المحل خرجت مدام عاليا في موكب سواء من البنات العاملات أو الحاج إبراهيم الذي ظل مصاحبًا لها حتى وصلت إلى السيارة وهو يردد عبارات الترحيب والثناء.

كما هو متبع في مجال المهن أو الأماكن التي تعتمد على البيع المباشر، تتحكم نسبة المبيعات تحكمًا تامًّا في النواحي المزاجية لاصطف العاملين وأصحاب تلك الأماكن، إذا كانت نسبة المبيعات قليلة ومنخفضة تجد حالة من الضيق والتوتر تعم الجميع بمن فيهم أصحاب العمل الذين قد يصبون جام غضبهم وتوترهم على العاملين المغلوبين على أمرهم، وقد يثورون لأتفه الأسباب ويلاحقون العاملين بعبارات التوبيخ والتأنيب، ولا يخلو ذلك إلا من القلة التي توقن أن العاملين لا ذنب لهم بل إنهم يحرصون كل الحرص على البيع ربما أكثر منهم، وأن الأرزاق بيد الله وحده ولا حيلة في الرزق،

والعكس إذا كان هناك رواج ونسبة مبيعات مرتفعة تعم حالة من البهجة والانتعاش على الجميع سواء عاملين أو أصحاب العمل، تمامًا كما حدث بعد مغادرة مدام عاليا المحل حيث عمت البهجة وعلت الابتسامة وجوه الجميع، أعقبها إحضار الحاج إبراهيم دستة جاتوه قام بتوزيعها على البنات، وهى من الطقوس المعتادة التي يحرص عليها عند كل فاتورة عالية، كانت تترك أثرًا طيبًا في نفوس البنات حيث إن حسن الإدارة والمعاملة الجيدة للعاملين تدفعهم دائمًا لبذل أقصى ما في وسعهم، لأداء عملهم وشعورهم بالأمان والحرص على المكان، رغم بساطة الأشياء التي تؤدي إلى ذلك، وهو ما كان يدركه جيدًا الحاج إبراهيم، فهو لم يكن بائعًا بالصدفة أو ورث هذا المحل، إنما حقق هذا النجاح بعد كفاح وعرق سنوات طويلة، بداية من عمله بائعًا سريحًا للملابس الجاهزة في القرى والعزب في كل أرجاء مصر، وهو ما يجعله يقول دائمًا: (أنا مشيت في كل شارع وحارة ونجع في مصر)، ثم فتح محلاً لبيع الملابس بالتقسيط في منطقة إمبابة، بعد مضي بضع سنوات حقق خلالها نجاحًا يبدو ملحوظًا فتح محلاً آخر في شبرا، وشيئًا فشيئًا نمت ثروته، ليؤسس محل الملكة. كان الحاج إبراهيم خلال مسيرته يحرص كل الحرص على علاقته مع الله، حيث ذهب أكثر من مرة إلى الحج بالإضافة إلى أعمال الخير التي يحرص عليها سواء سرًّا أو علانية، بل إنه يعول بالفعل بعض الأسر المعدمة بتخصيص مبلغ شهري لهم.

*****

الآباء أنواع بعضهم مجرد أن يرزق أبناء يبدأ في التخطيط والسعي لتأمين مستقبلهم، وحين يكبر الأبناء يكون هيأ لهم كل شيء لينعم الأبناء بثمرة كفاح الآباء.

وبعض الآباء يحاولون جاهدين أن يجعلوا من أبنائهم امتدادًا لهم، وأن يرث الابن مهنة أبيه، نجد أن ابن الدكتور يصبح دكتورًا وهكذا الضابط والمحامي والصحفي حتى التاجر ورجل الأعمال يسلِّم ابنه الراية من بعده، وكذلك في مختلف المهن وقد يعاني بعض هؤلاء الأبناء أزمة هوية إن فرضت عليهم مهنة آبائهم.

وبعض الآباء يحرصون على إنجاب أكبر عدد ممكن من الأبناء خاصةً الذكور، ليكونوا استثمارهم وسندهم في المستقبل عندما يتقدم بهم العمر، وهذه الفئة غالبًا تكون في المناطق المعدمة والطبقة الدنيا غير المتعلمة والذين يعملون في المهن الحرفية والعمال وصغار الموظفين، وهؤلاء لا يعملون ليستريح أبناؤهم في المستقبل، بل يؤمنون بضرورة أن يعمل أبناؤهم ليستريحوا هم، وهي الفئة التي ينتمي إليها عبد النعيم فراش المحكمة، الذي كان حريصًا على إنجاب أكبر عدد من الأبناء ليكونوا ثروته وادخاره في المستقبل الذي يعتمد عليه عندما يتقدم به العمر، يخرج على المعاش ومن ثم يعمل أبناؤه ويجني ثمار عملهم آخر اليوم أو الشهر، كان هذا تفكيره (لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن). وها هي النتيجة

الحتمية بدأت في الظهور مع اختلاف بسيط، حيث إن أكبر أبنائه صار في دنيا أخرى حتى إنه لا يعمل لكي ينفع نفسه أو يهتم بدراسته لعله يحصل على شهادة قد تكون طوق النجاة له في المستقبل، وها هو عبد النعيم يعاني الحسرة وخيبة الأمه، نظر لزوجته التي على الرغم مما تعانيه من معاناة يومية وإحباط فإنها بمثابة النهر الذي يفيض حبًّا وحنانًا على الجميع، وقال في مرارة وأسى:

– يا خيبة أملي يا فوزية.

– بتقول كدا ليه يا عبد النعيم؟!

– مش عارفة ليه! عاجبك اللي فيه ابنك الكبير دا؟ بعد ما ربيت وشقيت ودخلته الجامعة عشان يبقى بني آدم يسقط سنة ورا سنة ويحلِّل ويحرَّم ويعمل مشاكل مع اخواته، بقى ابني الكبير اللي كنت مستني يخلص دراسة ويساعدني وأتسند عليه يبقى كده؟ دا حلال ولا حرام!

– إن شاء الله ينصلح حاله يا عبد النعيم.. هو اليومين دول ما بيعملش مشاكل وفي حاله ادعي له ربنا يصلح حاله.

– هو دا عمره ينصلح حاله أنتِ بتكدبي على نفسك ولا على مين! دا لا بيروح الكلية ولا بيذاكر والامتحانات على الأبواب وأكيد هايسقط، وكل ما أتكلم معاه يزعل ويتقمص ويقعد بالأسابيع بعيد عن البيت أنا مش عارف أعمل إيه معاه يا فوزية!

- والله يا عبد النعيم دا حتى ما بيطأش كلامي وأنا ما صدقت أنه مابقاش يزعق ويعمل مشاكل.

- أنا خارج أتكلم معاه وأشوف آخرتها.

- من غير ما تزعق معاه.. ربنا يهديه.

كان سيد جالسًا على الكنبة في الصالة يقرأ في كتاب حينما قاطعه أبوه قائلاً:

- السلام عليكم.

- عليكم السلام.

- عاوز أتكلم معاك.

وضع سيد الكتاب جانبًا متحاشيًا النظر لأبيه ثم قال:

- خير إن شاء الله؟

جلس أبيه جانبه، واستطرد:

- تقدر تقول أخرةِ اللي أنت فيه دا إيه؟

احمرَّ وجه سيد وقال في ضيق:

- إيه اللي أنا فيه؟ أكتر من مرة أقول أنتم في حالكم وأنا في حالي.

هز أبوه رأسه تعبيرًا عن عدم الرضا، ثم قال في لهجة حانية:

- يا ابني الامتحانات على الأبواب وأنت لا بتذاكر ولا حاجة وأنت أكبر أخواتك ولازم تخلص دراسة علشان تساعدني.

- مين قال لك كده أنا باذاكر وبقالي كتير مش باخد منك فلوس.

توترت أعصاب سيد وبدأ يطور دفاعه عن نفسه إلى هجوم في حدة:

– مستقبلي في الآخرة هي دي اللي بقيالي، وأنت فاكر لو خلصت دراسة هاشتغل بالشهادة واللا ممكن أبقى حاجة؟ الشهادة دي بتتبروز وتتعلق على الحيطة، وهاكون واحد زي ملايين من اللي بيتخرجوا كل سنة ومركونين على الرف، أنا أعرف أخ معاه ليسانس حقوق من عشر سنين وبيشتغل قهوجي ومش لاقي ياكل ولا يتجوز، الشهادة مش للفقراء اللي زينا. دي عضمة بيرموها للفقراء.

تنهد أبوه في مرارة وحاول كبت غضبه، ثم قال:

– يا ابني إحنا عارفين كل دا لكن لازم تعمل اللي عليك ولو كل الناس فكرت زيك ويئست ماكنش حد عاش.

حاول سيد ابتلاع سخريته واعتراضه لكن لم ينجح، وقال في حماس:

– أعمل اللي عليا ويبقى عندي أمل، وأنت ليه ماعملتش اللي عليك ليه؟ طول عمرك راضي بالقليل وعمرك ما كان عندك طموح لحد ما بقينا عايشين في ذل وحرمان، خلفتونا عشان نشارككم الفقر ونبقى مضحكة الناس، مستني أخلص دراسة عشان أساعدك، دا أنا عاوز اللي يساعدني عشان يبقى عندي شقة وأعرف أتجوز، تقدر تقول لي بوضعنا دا ممكن بعد كام سنة أعمل كده؟ دا إحنا عايشين عيشة الكلاب كل دا وتقول لي آخرتها إيه، يعني مالناش في الدنيا

ويبقى كمان في الآخرة، سيبني يمكن أعرف أكسب الآخرة قبل ما أخسر كل حاجة، ولو كان وجودي في البيت مضايقك أنا ممكن ما اوريكوش وشي تاني.

*****

... إنه سليم أعز أصدقاء أبيه، الذي يعتبره سعيد بمثابة عمه، وهو بالفعل يقول له "عم سليم" لطالما سمع أبوه يثني عليه ويسهران سويًّا في المنزل يدخنان الشيشة، بل كان يظن أنه إذا رأى أبوه في المنزل لا بد أن يرى سليم.

بلع ريقه في صعوبة ارتجفت قدماه ثم تجمد مكانه وكأن الصدمة سحرته لم يكن يدري ماذا يفعل. لكنه لا يستطيع أن يتكلم وإلا سيقتلانه بدم بارد، تحرك ببطء متجهًا إلى حجرته مُغيَّب الوعي تمامًا لترتطم قدمه في ترابيزة وقد أحدثت ضجة، هرول مسرعًا إلى حجرته وافتعل النوم في سكون تام، مرت ثواني قبل أن يرى شبحًا يقف على باب الحجرة ينظر إليه... إنها جملات أقلقتها الضجة التي حدثت من أثر الارتطام، كتم أنفاسه وأغمض عينيه وتسارعت دقات قلبه وبدأ يتصبب عرقًا، غادرت جملات بعد أن أيقنت أنه نائم لكن شيئًا ما جعلها تشعر أنه سيكون سببًا في كشف علاقتها بسليم.

بعد "علقة سخنة" وكيه بالنار طردته من المنزل وتظاهرت بأنه فر هاربًا بعد أن سرق النقود، ولتكن قسوة الشارع أهون كثيرًا من جبروت جملات ونذالة أبيه.

مرت عليه أيام طويلة في الشارع يأكل فضلات الطعام من صفائح الزبالة، مثل القطط والكلاب الضالة، وينام في العراء يرتعش من شدة الخوف والبرد، رأى خلالها ما لا يخطر على قلب بشر، من ذل وقسوة واستغلال من عصابات الشوارع من الشحاتين والمتسولين، حتى جسده لم يكن يسلم من الشواذ.

كان طبيعي جدًا أن يتعلم الشحاتة والتسول ويحترف السرقة والنصب، ومع ذلك كان دائمًا يرى نفسه بعيدًا عن ذلك العالم، وهو يتذكر قبل أن يطرد من المنزل كان في المرحلة الابتدائية وكان متفوقًا دراسيًّا على كل أقرانه رغم ما كان يعانيه، ودائمًا ما نال إشادة واستحسان المدرسين، الذين تنبأوا له بمستقبل باهر، حلم بأن يكون ضابطًا أو طبيبًا وربما محاميًا، نعم محامٍ كان يريد أن يصبح محاميًا ولا يعرف السبب، لكنها رغبة ظلت بداخله ربما لأنه عانى كثيرًا من الظلم وكان يود لو وجد من يدافع عنه، وقد صارت لديه رغبة أكيدة في أن يصبح غنيًا، غنيًّا جدًا لينتقم من المجتمع الذي تفنن في إذلاله، ولا يوجد في أي مجتمع أهم من الشباب، إن الشباب هم المستقبل وتدميرهم يعني تدمير المجتمع وبالمخدرات يكون الانتقام أشد فتكًا وألمًا.

كم كان يشعر بسعادة ونشوة وزهو، عندما يرى شابًّا مدمنًا، ولا يشعر بالراحة إلا عندما يأتي إليه يقبل يده راجيًا أن يحصل على تذكرة هيروين.

ولماذا يرحمهم؟! وهو لم يُرحم عندما كان صغيرًا وضعيفًا، على الأقل هم يتعاطون المخدرات ويدمنون بإرادتهم ليحصلوا على السعادة، حتى وإن كانت وقتية أو وهمية، بل إنهم يدفعون دم قلوبهم ليشتروا العذاب لأنفسهم، وهو يبيع المخدرات فقط لكن لا يجبر أحدًا عليها، إنما هو فرض عليه كل شيء وأرغم ليصبح هكذا، حتى لهفته وجريه وراء النساء ليس حبًّا فيهن أو في ممارسة الجنس، بقدر ما كان انتقامًا من أمه التي خذلته بحرق نفسها وتركه وحيدًا ضعيفًا تفتك به جملات.

ومضت عيناه فجأة وكأنه أفاق من كابوس مزعج، ونظر إلى يده التي لم يزل أثر الكي عليها لم تنل منه الأيام، ليتمتم وقد ازدادت عيناه بريقًا:

– لا يهم.. لا يهم...

*****

– ليه نادية؟!

أخذ يرددها خالد وهو يضرب بقبضة يده على الحائط.

تلك الفتاة التي أحبها، كانت نظرة من عينيها كافية بأن تذيب قلبه وتلهب مشاعره وتشغل باله يومًا بأكمله، هي من جعلته يتذوق الحب الذي كان يسمع عنه قبل أن يراها، لم يكن يصدق أن يفكر نادر جديًّا في الزواج منها، وأن يصبح إتمام زواجهما مسألة وقت، وهى التي لم ينقطع تفكيره فيها لحظة واحدة طيلة سنوات الدراسة،

ولمَ لا وقد شغلت حيزًا مهمًا في قلبه وعقله، كانت الأيام تمر من بين يديه وهو يؤكد لنفسه بأن غدًا سوف تميل له ويكسب قلبها، ولم يأتِ هذا الغد واستمر هكذا حتى مرت السنوات، وها هي تضيع من بين يديه وللأبد، لكنه لم يكن يعلم أنه سيتألم كل هذا الألم، وما زاد من ألمه وحنقه كون نادر هو الذي سيتزوجها.. خصمه وغريمه اللدود مصدر سخطه وغضبه.

أحيانًا كثيرة كان يجد نفسه ممسكًا بورقة وقلم يخط اسمها، أو قد تأخذه يده لرسم وجهها، بل إنها كانت تطارده حتى في أحلامه، وكثيرًا في لقاءاته مع سميرة وفي ذروة النشوة يشعر بأن نادية هي التي بين أحضانه.

كان وقع الخبر عليه شديدًا ولم يجد ملاذًا يلجأ إليه سوى حجرته، أغلقها عليه لكي لا يرى أحد لحظة ضعفه وانكساره، وأخذ يبكي فى حرقة.

*****

بعض النساء يخططن جيدًا لحياتهن، مثلاً قد تجد امرأة تقبل بالزواج من رجل ثري يكبرها بعشرات السنين لتصل إلى شيء ما تتطلع إليه، وهو ما حدث مع عاليا التي تنحدر من أسرة معدمة، حيث كانت غاية في الجمال في صباها، لكنها نشأت في قرية تشتهر بتزويج الفتيات الصغيرات للأثرياء العرب، كما هو متبع من سيطرة سلوك القطيع على أي مجموعة من الأفراد تتفق في نفس

الظروف، فقد نجد شابًّا استطاع أن يسافر إلى إحدى الدول وإذا كتب له النجاح تجد معظم شباب القرية يتجهون دون تفكير إلى ذلك البلد، أو إذا فتح شاب كشكًا صغيرًا لبيع الفاكهة على الطريق ونجحت الفكرة في غمضة عين تجد على بعد أمتار منه العديد من اكشاك بيع الفاكهة. لذلك كل قرية تشتهر بشيء ما، وكان هذا حال قرية كفر الطيبة عندما تتخطى الفتاة السادسة عشرة يأتي أحد الأثرياء العرب يدفع مبلغًا لوالدها ويأخذها تحت مسمى الزواج، وفي الغالب يكون هذا الأب مجبرًا بسبب أحواله المادية الطاحنة ولكثرة عدد أبنائه فإنه يضحي بإحداهن من أجل أن تستمر العائلة على قيد الحياة.

كانت عاليا جميلة جميلات القرية، وأراد أبوها أن يصل لأعلى فائدة "سعر" ممكن وبالفعل دفع له الثري العربي خمسين ألف جنيه، وكان هذا رقمًا قياسيًّا لم يحدث من قبل في القرية وهو لم يمسك طيلة حياته عُشر هذا المبلغ مجتمعًا، وطبعًا الزواج لا يكون شرعيًّا، إنما يكتفي بأن يكون عرفيًّا ورقة يكتبها الثري العربي وفي الغالب يطويها ويضعها في جيبه، لكن أهالي القرية يوهمون أنفسهم بأنه زواج بل وشرعي، ولا يستطيع أحد أن يتفوه بالحقيقة حتى بينه وبين نفسه، يكذبون ويصدقون أنفسهم لعل كذبتهم تصبح حقيقة.

سافرت عاليا في صحبة زوجها ولم يدم مكوثها في الخليج أكثر من سنة، كان أخذ فيها كل ما يريده وتمتع بجسدها عامًا كاملاً

مقابل خمسين ألف جنيه، وهو مبلغ قد يدفعه لعدد محدود من الساقطات مقابل بعض الليالي، بالإضافة أنه أنجب منها وبمجرد أن ولدت في المستشفي أخذ الطفل، وهى لا تعرف إن كان ولدًا أو بنتًا وبعد أيام قليلة أركبها الطائرة بحقيبة ملابسها ومبلغ زهيد لا يتعدى بضع مئات، لتعود مرة أخرى لأحضان الوطن لكن هذه المرة حطامًا، ومحملة بهموم ماضٍ أليم وواقع تعس ومستقبل مظلم، وتصب لعنتها على فقرها وأهلها الذين باعوها بثمن بخس، لم تجنِ منه سوى الذل والمهانة، من قِبل رجل انتهك روحها قبل جسدها، تتذكر أنها كانت تعامل مثل الخادمة عندما تتفوه بكلمة لا ترضيه يتوحش في ضربها ودائمًا ما كان يقول لها: (أنا اشتريتك لكن دفعت فيكِ أكتر من اللازم).

قررت أن تختار حياتها بعيدًا عن أهلها (ماذا جنت من أهلها؟) عملت خادمة سنوات طويلة في عدة بيوت، حتى تعرفت على حَمام بلطجي الكباريهات، الذي اقترح عليها أن تعمل راقصة في كباريه ليالينا، وبعد تردد ورفض أستطاع أن يقنعها وحتى يضمن أن تكون تحت سيطرته تزوجها، ثم عرضها على الخواجة خليل شاكر صاحب الكباريه الذي أبدى ترحيبًا بها.

بعد أن عملت راقصة ضحكت لها الدنيا، لكن كانت تواجهها مشكلة تتمثل في وجود حمام الذي توقف دوره على البلطجة ونيل ما تتحصل عليه من مال أولاً بأول، وقد رأت نظرات الإعجاب التي

بدأت تحيطها من قبل الخواجة خليل الذي اقترح عليها الزواج، وعندما قالت له: (حمام.. أعمل فيه إيه؟)، ما كان منه إلا أن يلفق له جريمة قتل ويحكم عليه بالمؤبد ليستريح ويُريح إلى الأبد.

تزوجت عاليا من الخواجة خليل الذي كان تعدى عامه السبعين ويكبرها بعشرات السنين، ولمَ لا وهو رجل عجوز وليس لديه أولاد أو أقارب ولا أحد يعرف قصته، كل المعلومات المتواترة عنه قليلة للغاية، لا تحوي أكثر من كونه وُلد لأب لبناني وأم مصرية من الإسكندرية، لكن ما يهمنا هو أن ما خططت له عاليا حدث واستطاعت أن تتلاعب بمشاعر ذلك العجوز المتصابي في حين أن زواجهما لم يستمر إلا بضع سنوات، مات الخواجة خليل تاركًا بالإضافة للكباريه ثروة لا بأس بها في البنوك، ومنذ أن آل إليها الكباريه صارت تجدد فيه من وقت لآخر خاصة في الفقرات التي تقدم، بجانب أنها دائمًا ما تبحث عن راقصة تملك الأداء والجسد الجميل معًا، وقد تعاقب على الكباريه العديد من الراقصات ولم تستطع إحداهن أن تنال إعجابها أو "علِّمت" مع الزبائن، حتى رأت سحر في محل الحاج إبراهيم. وبعد كثير من التردد على المحل، كانت قد ألمَّت بكل تفاصيل حياتها، وفي إحدى مرات وجودها في المحل اقتربت من سحر وهمست في أذنها، دون أن تلفت انتباه أي من البنات أو حتى الحاج إبراهيم: (أنا مستنياكي بعد ساعة في الكازينو اللي على الناصية ضروري). استقبلت سحر الخبر في

هدوء ولم تبدِ أية مشاعر، وكأنها كانت تتوقعه وقد أيقنت أنه حان الوقت لتعلم ما ينتظرها مع تلك السيدة.

*****

استقل نادر سيارته الجيب شروكي متجهًا إلى حي المطرية، ورغم أنها شرحت له بدقة كيفية الوصول إلا أنه توقف أكثر من مرة في الطريق ليسأل عن الشارع الذي يوجد به المنزل، وقد ظن للحظات أنه غادر القاهرة بل مصر كلها إلى دولة أخرى تكتظ بالناس والمنازل والحواري الضيقة.

وكأنه موكب رسمي لمسئول كبير استقبل من قبل الأطفال الذين يلعبون الكرة والبلي في الشارع، والتهليل والصياح والجري وراء السيارة في محاولة مستميتة للتشبث بها، ولم يكن الأطفال فقط هم الذين خطف نادر أبصارهم بل معظم قاطنيه وأصحاب المحلات.

كانت نادية تقف تنتظر في البلكونة، وقد تهلل وجهها بابتسامة عريضة عند نزوله من السيارة، ليستقبله الحاج شوقي الذي كان على علم مسبق بتلك الزيارة في ترحاب وقد لفت انتباهه مجيء نادر بمفرده.

في حجرة الصالون جلست العائلة ونادر، وبعد كثير من كلمات الترحاب قال نادر:

– أكيد يا عمي حضرتك عارف سبب الزيارة.

– يعني... لكن أحب أسمع منك.

كان نادر يبدو متماسكًا واثقًا بنفسه، ولمَ لا وهو يشعر أنه جاء من كوكب آخر لا يعرفه مثل هؤلاء. وقال:

– زي ما أنت عارف أنا كنت زميل نادية في الجامعة ويسعدني أطلب إيدها.

علت السعادة وجوه الجميع باستثناء الحاج شوقي الذي لم يبدِ أية مشاعر، وقال في هدوء:

– شوف يا ابني إحنا مش أغنيا زيكم، لكن الحمد لله مستورين وعمري ما حرمت أولادي من أي حاجة، وأنا مايهمنيش أن اللي يتجوز بنتي يكون غني أو فقير، على قدر ما يهمني إني أجوز بنتي راجل يحفظها ويصونها، وأنت كبرت في نظري عشان دخلت البيت من بابه وكنت دوغري وأنا موافق. لكن فيه حاجة عاوز أعرفها ليه أبوك مش معاك، وعلى فكرة موافقته ومباركته أهم حاجة عندي.

– بابا موافق يا عمي لكن أنت عارف رجال الأعمال وقتهم مش ملكهم وهو في انتظارك بكرة الساعة حداشر في القصر.

صمت الحاج شوقي قليلاً وأخذ يتبادل النظرات مع الحاجة سنية وكأنه يستلهم منها الرد ليقول نادر:

– صدقني يا عمي بابا موافق لكن شغله هو اللي منعه وحضرتك هتشرفنا وتتفق معاه على كل حاجة.

- أنت عارف يا ابني أنا لو مش متأكد إنك جاد، أنا كنت مش هوافق على الجوازة دي، لكن أنا موافق أروح أقابل أبوك،

ثم نظر إلى نادية التي تورد وجهها والحاجة سنية التي أطلقت الزغاريد.

*****

(6)

بعد حصوله على الليسانس، كان على خالد استكمال مسيرة حياته في القاهرة، الطريق الذي يتخذه من يريد النجاح، وأن يبحث عن عمل مؤقت ليرفع العبء نهائيًّا عن كاهل أبيه، الذي قال له ذلك بالفعل في آخر مكالمة تليفونية دارت بينهما، حيث أبلغه صراحة بما أنه قد حصل على الشهادة فإن دروه انتهى تمامًا معه والآن لن يرسل له أية نقود وعليه أن يعتمد على نفسه إن أراد أن يمكث في القاهرة، وكان خالد ينتظر ذلك وقد توقعه لأنه على إلمام تام بطباع أبيه، وكم من تأنيب وتعنيف ناله عند كل مرة كان يطلب فيها نقودًا. والشيء الذي يدعو إلى السخرية أن حصوله على عمل مؤقت أثناء إجازة نهاية العام خلال سنوات الدراسة كان بالشيء اليسير، لكنه عندما انتهى من الدراسة وأراد العمل وجد صعوبة بالغة ومعاناة شديدة، وكأن أبناء القاهرة انتهوا جميعًا من الدراسة في نفس العام، حتى وفِّق في إيجاد عمل في مطعم للوجبات السريعة، في نفس الوقت كان لا يتوانى في البحث عن وظيفة ليتدرب عند أحد المحامين الكبار، وتكون أولى خطواته في المستقبل، الذي أخذ مسارًا مختلفًا، وكان عليه أن يبذل مجهودًا

كبيرًا أرغمه على التقليل كثيرًا من لقاءاته الساخنة مع سميرة، التي بطبيعتة الحال كانت انقطعت أثناء فترة الامتحانات، وهو ما أدى إلى حدوث بعض المشادات بينهما، لكنها كانت تعرف كيف تمتص غضبه وانفعاله رغم أنها حاولت كثيرًا أن تتخلص من حبه دون جدوى.

*****

كان خروج سحر من المحل شيئًا غير مألوف، ونادرًا ما يحدث إلا في أضيق الحدود عندما تكون في حاجة إلى شراء بعض الأغراض الشخصية، أو في بعض الأوقات عندما يحين وقت الغداء وتتبرع هي بالذهاب لشراء الطعام، حتى يوم الجمعة كانت تمضيه غالبًا تصارع الخوف والوحدة بين جدران المخزن، وإن أرادت الخروج اتفقت مسبقًا مع الحاج إبراهيم ليفتح لها المحل ويغلقه عند عودتها، وكان ذلك يحدث في أضيق الحدود، وقد وجدت صعوبة لاختلاق سبب لكي تستأذن للخروج ومقابلة مدام عاليا، التي كانت تجلس داخل الكازينو تترقب حضورها وبابتسامتها الصفراء الماكرة استقبلتها قائلة:

– كنت متأكدة إنك جاية.

بادلتها سحر الابتسامة وخفق قلبها وتشوقت لمعرفة سبب هذا اللقاء، وقالت:

– خير إن شاء الله؟

- إعجابي بيكِ بيزيد.. أنتِ أكيد فهماني؟
- مش فاهمة.
- تشربي إيه الأول؟
- أي حاجة.

طلبت مدام عاليا من الجرسون ليمون وفنجان قهوة... ثم التفتت إلى سحر وأطالت النظر لها وكأنها تطوقها. ثم قالت:

- بصي يا سحر أنا مش باحب اللف والدوران وعشان كده الموضوع اللي عاوزاكي فيه هيكون فرصة عمرك.

ازداد توتر سحر وقالت في حيرة:

- تقصدي إيه؟!

زي ما أنتِ عارفة أنا عندي مسرح منوعات (أرادت أن تخفف من وطء كلمة كباريه عليها) في شارع الهرم وأنتِ عندك وش جميل وجسم رشيق ممكن يخلوكي في السما.. بس لو فتَّحتِ دماغك وفهمتيني كويس.

- يعني إيه يا مدام عاليا؟
- أنا هاديلك فرصة عمرك. شوفي أنا عاوزة رقاصة شابة جميلة تكون وجه جديد والمواصفات اللي بادور عليها موجودة فيكِ.

حدقت سحر في دهشة وكمن حط عليها الخرس، لا تدري أتوافق أم ترفض، ليكسر الجرسون حاجز الصمت، وبعد أن وضع الطلبات أخذت مدام عاليا رشفة قهوة، ثم قالت:

- إيه رأيك؟

هزت سحر رأسها وقالت في صوت لا يكاد يُسمع:

- مش عارفة يا مدام عاليا.. معقولة أشتغل رقاصة!

قالت مدام عاليا في سرعة وحسم وكأنها تضع مخدرًا على الكلام:

- أنتِ لما تكوني رقاصة الدنيا كلها تضحك لك وتكسبي فلوس كتير وتكوني هانم.

- لكن أنا ما أعرفش أرقص.. وبعدين...

- مفيش بعدين أنا هاجيب لك أحسن مدربين رقص، وخلال فترة قصيرة هتكوني أحسن رقاصة في مصر كلها بالتدريب مفيش رقاصة بتتولد رقاصة.

خيم الصمت تمامًا وقبل أن تتكلم سحر استطردت مدام عاليا:

- أنتِ هتتنقلي لعالم تاني عمرك ما شوفتيه أو حلمتِ بيه، الزمن دا زمن الفلوس وكله بيرقص على كله، وكل واحد بياخد حسب الرقص اللي بيرقصه. فكري كويس الواحدة بتجيلها الفرصة مرة واحدة، وفي حاجة لازم تعرفيها أنا حسب ما عرفت إنك مالكيش أهل وقاعدة في المخزن، تقدري تقولي لي لو طردك الحاج إبراهيم إيه مصيرك؟ هتتشردي في الشوارع.

أخرجت ورقة صغيرة وأكملت:

- دا عنواني.. فكري كويس وأنا هاستناكي في أقرب وقت... اشربي العصير.

*****

يعتبر سامي من أوائل الذين مارسوا العمل الصحفي أثناء الدراسة، ورغم أن التحاقه بكلية الحقوق، كان سببه الأول أن يصبح محاميًا لكي يدافع عن المظلومين، لكنه وجد في نفسه عشقًا للصحافة وقد أظهر موهبة فذة منذ البداية، وكم كان سعيدًا من هذا التحول الذي لم يخطر على باله، وجد في الصحافة مجالاً أوسع وأشمل يعبر فيه عما يجول في خاطره، حتى تلقى من رئيس التحرير خبرًا طالما سعى إليه من تخصيص عمود ثابت له في العدد الأسبوعي بالجريدة.

أراد سامي أن يكون أبوه وصديقه ومثله الأعلى الدكتور سراج الدين أول من يعرف، حيث يستمد منه قوته ويأخذ رأيه ويستمع إلى نصائحه وخبرته، ودائمًا ما كان يجد لديه الرأى الصائب عندما تستعصي عليه مشكلة ما.

كان الدكتور سراج في حجرة المكتب يقرأ في أحد الكتب عندما دخل عليه سامي قائلاً:

- السلام عليكم يا دكتور.

وضع الدكتور سراج الكتاب جانبًا ثم قال:

– وعليكم السلام.. أهلاً أهلًا بالصحفي الهمام شكلك مبسوط أكيد فيه خبر حلو.

– الحمد لله يا بابا النهاردة رئيس التحرير خصص لي عمود ثابت في العدد الأسبوعي.

ابتسم الدكتور سراج وقال:

– مبروك يا ابني إن شاء الله يكون قلمك حر معبر عن مشاكل الناس ويكون ليك دور في توعيتهم.

– إن شاء الله أنت عارف أنا طالع لك لكن خايف يكون في ضغوط أو توجيهات.

في لهجة حانية محفزة قال الدكتور سراج:

– شوف يا ابني أهم حاجة في الصحفي الناجح، أنه يكتب اللي يمليه عليه ضميره مهما كانت الضغوط أو التعليمات، ولا يخشى في قول الحق لومة لائم وألا يكون أداة مهمة في إيد الظلمة والفاسدين وسلاح خطير، وبكده يكون ذنبه عند ربنا أعظم من الظالم نفسه، واللا إيه يا بطل! والجريدة اللي أنت فيها جريدة واخدة خط الصراحة والوضوح والشفافية.

– والله يا بابا رئيس التحرير راجل محترم وكاتب جريء ودائمًا يشجعنا على كده ويحرص على الشفافية.

ابتسم الدكتور سراج ثم قال بعد أن قام:

– على بركة الله ربنا يوفقك.

*****

– مش عاوز أشوف وشك تاني.

هذا آخر ما سمعه سيد حينما طرده أبوه من الشقة، كان لا يفرق معه أن يظل في الشقة أو يتركها، فقد انتهى ارتباطه بأهله منذ حين، بعد أن صار الاصطدام بهم عنوانًا دائمًا للأحداث اليومية.

كان وجوده داخل الشقة كفيلاً بأن يفجر براكين الغضب مع إخوته خاصةً الذكور، وقد ازداد التحدي فيما بينهم ليصل إلى حالة من العداء، الذي صار ملحوظًا بل إنهم في إحدى المرات تكاثروا عليه وحدث بينهم اشتباك، لولا بكاء أمه وصراخ أخواتهم ولمة الجيران عليهم لكانوا فتكوا به، ولم تكن علاقته بأخواته أحسن حالاً حيث كن يتجنبن وجوده وتعليقاته الدائمة على ملابسهن أو جلوسهن مع أي شاب حتى وإن كان من أقاربهن، وطلباته التي لا تنتهي حتى صار وجوده يمثل لهم كآبة وكبتًا لا يطاق.

كان سيد بالفعل يتغيب عن الشقة أيامًا طويلة، سواء للاعتكاف في الجامع أو للسفر والتنقل بين المحافظات وراء المشايخ الذين نالوا تزكية الشيخ عابد، حتى جاء ذلك اليوم الذي قام فيه بضرب أخته، وكانت كالقشة الذي قصمت ظهر البعير ليطرده أبوه من الشقة، ورغم ذلك كان دائمًا يدعو الله راجيًا أن يهديه ويعود ليكون عونًا له ولإخوته.

عندما قال سيد للشيخ عابد عما حدث مع أبيه، لم يسلم من تأنيبه على إغضاب أبيه، وأن ذلك يعد بمثابة عقوق، ولطالما نصحه أن يترك المنزل في هدوء ليتجنب الشجار مع إخوته وأبيه، ويتفرغ للدعوة والتفقه والخروج في جولات مع الإخوة إلى النجوع والقرى ليتعلم ويدعو الناس، وإذا كان على مكان إقامته فقد تعرف على العديد من الإخوة الذين يقيمون بمفردهم حتى وقع الاختيار على الأخ هاشم.

****

ما إن خرج نادر من منزل الحاج شوقي، حتى انطلقت عاصفة من الزغاريد والتهليل والتهنئة وعلت السعادة وجوه الجميع، إلا واحد فقط كان يعتريه القلق، شيء ما في صدره يؤرقه لا يعلمه لكنه غير مطمئن لما حدث، وفي ذروة نشوتها وسعادتها وتلقيها التهاني اقترب منها الحاج شوقي وطلب أن يحدثها على انفراد، دخلت نادية الحجرة وأغلقت الباب وراءها. كان الحاج شوقي صامتًا شاردًا حتى أنه لم يشعر بها، محدثًا نفسه: (من الواضح أنها سعيدة وكلهم سعداء حرام أكسر فرحتها وقلبها لكنى قلق عليها هذا الزواج ليس فيه تكافؤ من المؤكد وجود حاجة غلط واجب عليَّ النصح). وانقطع صمته وشروده على صوت نادية وهى تقول:

- بابا فيه حاجة؟

في نظرة حائرة كمن يجمع جملاً تبدو مقنعة قال:

– لا مفيش بس عاوز أسألك سؤال...

ثم صمت قليلاً:

اضطربت نادية قائلة:

– بابا فيه إيه؟

– أنتِ متأكدة إنك بتحبي الولد دا وموافقة تتجوزيه؟

توردت وجنتاها بحمرة الخجل وهزت رأسها وهى تبتسم:

– آه.

– لكن يا بنتي في فرق كبير بينا وبينهم واضح إنه متدلع.

في حماس قالت:

– يا بابا نادر بيحبني ووقف لأبوه ورفض إنه يتجوز بنت واحد مليونير وأصر على أنه يتجوزني وأبوه وافق.

بحنان أبوي وفي لهجة الناصح قال:

– أنا يا بنتي كل اللي يهمني سعادتك وكل دا جميل وأنا مبسوط منه لكن المفروض إن أبوه يكون معاه، وأنتِ ياما رفضتِ عرسان كويسين جدًّا فكري كويس.

– يا بابا أنا فكرت وموافقة.

نهض الحج شوقي وطبع قبلة على جبينها وضمها وهو يقول:

– ربنا يسعدك ويتمم لك بخير يا بنتي.

*****

صوت مدام عاليا لا يزال يدوِّي في أذنيها:

(دي فرصة عمرك إن وافقتِ تضحك لك الدنيا وتصبحي هانم، لو طردك الحاج إبراهيم، الشارع هيكون في انتظارك ولن تجدي مأوى). كان وقع الكلمات عليها أقوى من أن تجعلها تفكر، ونجحت في أن تسد عليها كل منافذ الاختيار، وكأنها تسحبها إلى مصيرها وحطمت في داخلها كل حصون المقاومة، حتى من ذلك الشيء الذي كان يقلقها ويردد (ماذا بعد؟).

إن وضعها الآن ليس سيئًا مقياسًا لما كانت عليه، إن جازفت به واختارت أن تعمل راقصة قد يصبح الأمر سرابًا حينها سوف تخسر كل شيء، ولن تتمكن من العودة مرة أخرى لتعمل في المحل وتحظى بما تناله الآن، وسريعًا ما يتردد كلام مدام عاليا، تؤمِّن عليه وهى تحدث نفسها: (فعلاً لو طردني الحاج إبراهيم أو سبت الشغل أروح فين مش ممكن أرجع تاني للشارع). على الفور تتذكر الأيام الخوالي وتسترجع الذكريات الأليمة، وكل ذلك التفكير كان يجعل منها شاردة مغيبة الوعي للحظات على غير العادة، كان الحاج إبراهيم يلاحظ ذلك وكذلك زميلاتها لكنها كانت تتحجج بأنها متعبة أو تعاني من بعض الآلام.

بعد تفكير عميق حسمت أمرها، لكن مشكلتها كانت تتمثل في كيفية ترك العمل عند الحاج إبراهيم، ذلك الرجل الذي أكرمها ويعاملها بالحسنى بل إنه بعد مدة قصيرة جعلها مسئولة عن المحل رغم وجود من هن أقدم منها وحاصلات على مؤهلات ولسن مثلها

بالكاد تكتب اسمها، لكن الحق يقال هي أيضًا كانت ذكية وسريعة البديهة وبائعة محنكة وكذلك أمينة، لكن هل يكون معروفه وثقته بها هي أن تترك العمل؟ وتعلم أنه يحتاجها لكنها فكرت وقررت ولن تتراجع ووجدت أن الصدق أسلم شيء ولا يجب أن تكذب عليه مهما كان، إن الحاج إبراهيم رجل طيب لن يمانع في تركها العمل أو يغضب منها.

كان يجلس في المكتب يطالع إحدى الجرائد عندما سمع طرقًا على الباب أذن لها بالدخول، كان التوتر والخجل يتملَّكها وكأنها طفل في مدرسة ابتدائية لم يعمل الواجب ويخشى من عقاب المدرس حدق فيها الحاج إبراهيم ثم بادرها قائلاً:

- خير يا سحر؟

حاولت أن تجد أي حروف تشكل أي كلمات لتقول فى صوت متقطع:

- خير يا حاج.

- يعني أخيرًا هتقولي إيه اللي شغلك؟

اندهشت سحر من المفاجأة لدرجة ألجمت لسانها وقد شعرت بأنه يعلم أو يتوقع ما ستقوله.

بادرها قائلاً بهدوئه وحكمته المعتادة وكأنه يضع مرهمًا على الجرح ليزيل الألم:

- اتكلمي يا بنتي أنا سبق وقلت لك أنا زي أبوكِ.

في تردد وهى تنظر في الأرض متحاشية النظر إليه:

– أنا عاوزة أتكلم معاك في موضوع مهم يا حاج.

– قولي يا بنتي.

بلعت ريقها ثم قالت في صعوبة:

– أنا عاوزة أسيب الشغل هنا عشان...

توقف الكلام في حلقها وقبل أن تكمل بادرها الحاج إبراهيم قائلاً:

– إيه اللي بتقوليه دا يا بنتي؟

استسلمت سحر تمامًا لمشاعرها وسالت دموعها وحاولت أن تتكلم لكن الموقف كان أقوى منها وقالت في صعوبة وكأنها تقر بأنها مذنبة:

– أنا عمري يا حاج ما هانسى اللي عملته معايا ولا يمكن أقدر أنكر ربنا يخليك...

لف الحج إبراهيم بالكرسي وصمت ثم تنهد قبل أن يقول:

– أنتِ شفتِ شغل في مكان تاني؟

لم تعرف بماذا تجيب لكنها كانت تريد الصدق مع الحاج إبراهيم:

هزت رأسها ببطء وهى تقول في صوت خافت:

– أيوه.

بسرعة وحسم قال:

– عند مدام عاليا.

ارتبكت سحر واضطربت وهى تقول:

– لأ... آه... أيوه يا حاج.

كتم الحج إبراهيم غضبه وكأنه يتوقع لكن كان يكذب نفسه، وفي لهجة الناصح قال:

– شوفي يا بنتي أنا مش زعلان لأنك هتسيبي الشغل، أنتِ حرة في اختيار المكان اللي ترتاحي فيه، لكن فيه حاجة.. خلي بالك من السكة اللي أنتِ ريحاها فيه حكمة بتقول ليس كل ما يلمع ذهبًا، بعد أسبوع تقدري تمشي أكون جبت واحدة مكانك.

* * * * *

كان خالد حريصًا على شراء جريدة الأهرام يوم الجمعة، وهى العادة التي بدأ في اتباعها منذ التخرج لعله يعثر من خلالها على الوظيفة المناسبة التي ينتظرها، وقد صارت من الطقوس التي اعتاد أن يؤديها، حيث استيقاظه في الثامنة صباحًا يبدأ يومه نشيطًا جادًّا، يشتري الجريدة ثم يتناول الإفطار ويحتسي الشاي ويبدأ في تصفحها حتى موعد أذان صلاة الجمعة، وكان له ما أراد عندما قرأ إعلانًا عن طلب محامين حديثي التخرج للعمل في مكتب الأستاذ رفعت نصير الذي يعد أحد أشهر المحامين في القاهرة.

كان قد استأجر بدلة لائقة (دفع إيجارها مبلغًا كبيرًا) من أجل المقابلة وعندما قاربت الساعة العاشرة مساءً توضأ ثم صلى ركعتين قبل أن يدخل الفراش وهو على وضوء، وهى في المرات النادرة التي يحرص فيها على ذلك، وقبل أن يستغرق في النوم أخذت الأفكار

تتصارع في داخله، تذكر الطفولة وبعض أيام الصبا ودخوله الجامعة طامحًا في أن يصبح ذا شأن و... نادية، هز رأسه في بطء وهو يحدق في السقف، عندما تذكر ابتسامتها الرقيقة العذبة في ثقة وكبرياء، ووجهها الخمري المشرق وعينيها السوداوين الساحرتين، واستغفر الله سريعًا عندما راح خياله يرسم صورة لها وهى مرتدية الملابس الضيقة التي تبرز مفاتن جسدها وشيئًا فشيئًا اختفى كل شيء وراح في نوم عميق.

بضع ساعات استغرقها في النوم، كانت كافية ليستيقظ وهو في حالة من الاسترخاء، وأحس براحة نفسية عند أذان الفجر، نهض للوضوء لأداء الصلاة في المسجد (وربما تكون علاقته بسميرة هي الإثم الواضح الذي يرتكبه إنه ما زال يمتلك نقاء الأرياف حتى عندما تمادى في العلاقة لم ينجرف إلى أية علاقة أخرى وهو ما قد يفسر الحالة التي كانت تنتابه أحيانًا عندما كان يؤنب ويلوم نفسه بالساعات بعد كل لقاء).

ارتدى جلبابه الأبيض ونزل قبل إقامة الصلاة، ضرب جرس شقة عم حامد ليصليا معًا، حيث كان عم حامد يواظب على صلاة الفجر في المسجد، لكنه لم يجِب على الفور تأكد من أنه سبقه، كان الجو روحانيًا عندما دخل في الصلاة وأخذ الإمام في تلاوة القرآن، أحس خالد بالخجل من نفسه أنه لم يصلِّ الفجر ويطلب العون من الله إلا إذا كان مقبلاً على شيء مثل الامتحانات أو التقدم لوظيفة.

بعد انتهاء الصلاة انتظر عم حامد في الخارج حيث بادره قائلاً وهو يمد له يده مصافحًا:

- حرمًا يا عم حامد.

فرح عم حامد عندما رأى خالد بعد صلاة الفجر، لطالما كان يحثه على المواظبة على الصلاة وابتسم ارتياحًا، ثم قال:

- جمعًا إن شاء الله يا ابني أهو كدا الكلام يا رب تستمر.. صلاة الفجر يا ابني نعمة كبيرة من ربنا للإنسان، ما يحسش بيها إلا اللي يحرص عليها، عارف يا ابني أنا بعد ما أصلي الفجر أحس براحة وسعادة كأني ملكت الدنيا.

هز خالد رأسه مؤمنًا على كلامه وهو يقول:

- عندك حق يا عم حامد وعاوزك تدعي لي عشان هاقدم في وظيفة النهارده.

- ربنا يوفقك يا ابني وتنول اللي في بالك.

- يا رب يا عم حامد أنت مش عارف أنا تفاءلت لما شفتك.

- كل حاجة بأمر الله ولا يمكن هتاخد غير اللي مكتوب لك، لكن أهم حاجة إنك تاخد بالأسباب وتعمل اللي عليك، إحنا بقينا في زمن الناس فاكرة إن الرزق مع أفراد زيهم، ودا اللي خلى الدنيا اتقلب حالها وبقينا عايشين في هم وغم.

أنهى خالد حديثه مع عم حامد ثم صعد إلى حجرته وأخذ يقرأ القرآن، وعندما بدأ نور الصباح يتسلل إلى داخل الحجرة أعد طعام

الإفطار كما اعتاد في طفولته، أول شيء يفعله في الصباح تناول الطعام واحتساء كوب الشاي، ثم قام بحلق ذقنه وتلميع حذائه وارتدى البدلة التي استأجرها بالأمس، وحرص على أن تكون سوداء وقميصًا أبيض ورابطة عنق نبيتي اللون المفضل لديه، حتى بدا في غاية الأناقة والجاذبية.

خرج يحدوه الأمل أنه يثق بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وهو منذ قدومه إلى القاهرة للدراسة وهو لا يكل ولا يمل، حيث نشأ على أهمية وقيمة الكفاح والسعي الدءوب على الرزق كمعظم شباب الصعيد، كان يجدُّ ويجتهد في الدراسة وعندما تأتي الإجازة يبحث على الفور عن عمل في مطعم أو مقهى ولا يجد غضاضة في ذلك، وبعد حصوله على الليسانس وضياع حلمه في أن يصبح وكيل نيابة لم يقف كثيرًا عند ذلك أو يتألم وينعي حظه أو يندد بالتآمر عليه ويلقي بالحجج، إنما أراد أن يصنع حظه بنفسه، وكما قال له أحد الأشخاص، أنه إذا أصبح محاميًا مشهورًا فهذا ليس بالقليل، إنه يعرف هدفه جيدًا ولن يسمح لشيء أن يعطله، كان يصادق الجميع الأغنياء والفقراء، وعلى قدر ما كان يشعر بالحقد والغيظ وسط الأغنياء لكن لا يمانع في صداقتهم، حيث قد يكون في حاجة إليهم يومًا ما، ويشعر بالراحة بين الفقراء، وعلى قدر ما يخفي حقده على الأغنياء يخفي أيضًا راحته بين الفقراء، صادق من يتعاطون البانجو والحشيش، لكنه لم يسمح لهم بالتأثير

عليه، بل كان دائمًا النجم الذي يمتلك الشخصية القوية المؤثرة، يعتز بذكائه دائمًا يرى نفسه أذكى من الجميع، حب القيادة والسيطرة تجري في دمه نقطة ضعفه الوحيدة علاقته بسميرة.

أخذ يوم إجازة من عمله، لكي يتقدم للوظيفة، خرج يحدوه الأمل في ابتسامته المعهودة، يصافح كل من يقابله من قاطني الشارع، استقل تاكسي ونادرًا ما يفعل حتى يحافظ على هندامه، وأمام مبنى شاهق في حي المهندسين توقف التاكسي، صعد السلم بخطوات واثقة ثابتة، وفي المكتب كانت المفاجأة في انتظاره، حيث يجلس العديد من الشباب في انتظار المقابلة وجميعهم يرتدون البدل الكاملة، يبدون في كامل أناقتهم ويلمعون كالعملة الجديدة، وأمامهم تجلس سكرتيرة تمضغ اللبان، وبين الحين والآخر تداعب خصلات شعرها، وتنظر في طلب ثم تنادي أحدهم لإجراء المقابلة، جلس خالد بعد أن ملأ طلب بيانات الشخصية، وكلما مر الوقت تسرب إليهم القلق والاضطراب وعندما يخرج أحدهم تتعلق به الأعين، وسريعًا ما يغادر ليتركهم أكثر اضطرابًا، حتى سمع ذلك الصوت الرقيق ينادي:

الأستاذ خالد عبد الرحمن اتفضل.

*****

بعد أن استقر به الحال على الإقامة مع الأخ هاشم، في شقته الصغيرة الكائنة في شارع ضيق في حي إمبابة، من أول يوم شعر سيد بتأقلم وارتياح تام، حيث كانت أوجه التشابه بينهما كبيرة من

طباع وأفكار، وقد تأخرت هذه الخطوة كثيرًا ولمَ لا وهو الآن تفرغ تمامًا للعبادة والدعوة والتفقه في الدين، بعد أن توفر له المناخ الملائم لذلك ووجد من يعينه، كما أنه لا يتوانى في حثه وتشجيعه على ذلك، كانا يستيقظان مع أذان الفجر يذهبان للصلاة في المسجد ثم يعدان الإفطار ويتناولاه سويًّا، وبعد طلوع الشمس يذهب هاشم إلى عمله في بيع الكتب الدينية والعطور والملابس، وقد علّم سيد كيفية التجارة وعمل له فرش بجانبه، حتى يتحصل على مال وينفق على نفسه، وكان ذلك يساعدهما كثيرًا فى حضور الدروس الدينية، والتنقل بين المساجد والخروج للدعوة، بعد صلاة العشاء يعودان إلى الشقة يسهران ويتحاوران في بعض الأمور الفقهية وأحيانًا يتطرقان لبعض الأمور الخاصة.

كانت الشقة عبارة عن حجرة وصالة، الحجرة يوجد بها كنبة لكل منهما وترابيزة عليها بعض الكتب الدينية وتسجيل صغير أما الصالة فهى ليست صالة بالمعنى المعروف لا تتعدى ستة أمتار يوضع فيها بوتاجاز وبعض الأواني.

بعد أن أعد سيد كوبي ينسون أعطى أحدهما لهاشم الذي قال:

- بارك الله فيك يا سيد والله أنت شرفتني وربنا بعتك ليا هدية عشان نعين بعض.

- الحمد لله يا شيخ هاشم دا أنا اللي باشكر ربنا على أنى سكنت معاك.

ساد الصمت بعض الوقت، أطال سيد النظر إلى هاشم وهو يأخذ رشفة ينسون، حيث الطيبة التي تبدو على قسمات وجهه الأسمر ولحيته الطويلة وجسده النحيل الطويل، أخذ يحدث نفسه: (كيف لهذا الإنسان الطيب التقي الفقيه في الدين يكون قتل!). وقد لاحظ مدى اضطرابه وقلقه وخوفه في بعض الأوقات ليقول في تردد:

- إيه حكاية التار اللي عليك دا يا أخ هاشم؟

- دي حكاية طويلة يا سيد.

- حصلت ازاي؟

تنهد هاشم ثم وضع كباية الينسون جانبًا وقد تغيرت ملامح وجهه وبدا عليه الأسى والمرارة ثم قال:

- زي ما أنت عارف أنا من محافظة أسيوط، والحكاية دي حصلت من أكتر من خمستاشر سنة، كان وقتها عندي عشرين سنة، كنت عايش مبسوط بين إخواتي وأمي وأبويا، كنت خاطب بنت خالتي، فرحان بشبابي زي أي شاب كل أملي إني أتجوز، كان عندنا حتة أرض باشتغل فيها طول النهار وفي الليل أسهر مع مجموعة من شباب القرية في عشة خوص، نشرب شيشة وأحيانًا حشيش نحكي حكايات ونضحك ونهزر، وفي يوم أسود كنا سهرانين زي العادة، وكان في واحد فينا معاه طبنجة، ضرب طلقة في الهواء، كنا وقتها محششين وبنهزر، مسكتها أنا ولوحت بيها في وجه واحد صاحبي خرجت منها طلقة قتلته ، كان من عيلة كبيرة في البلد.

توقف ثم مسح بكف يده وجهه وكأنه يريد أن يمسح هذه الذكريات من عقله ومن حياته، ثم أكمل:

– مش قادر أوصفلك اللي حصل، القرية اتقلبت وأهله كانوا زي النار عاوزين ياخدوا بالتار...

قاطعه سيد قائلاً:

– ازاى ياخدوا بالتار وأنت قتلته غصب عنك يعني قضاء وقدر؟!

استطرد هاشم في حرقة:

– تقول إيه في العقول اللي زي الحجر، وفيه ناس كل همها تولع النار وتنفخ فيها وتثير الفتن، حتى لو أهله عاوزين يسكتوا مابيقدروش من الكلام والمعايرة، المهم هربت إلى الإسكندرية، رُحت عند ناس أقاربنا ومفيش أسبوع حسيت إنهم مش طايقني، سبتهم بعد كده ورُحت القاهرة، وسكنت في أوضة في بدروم بيت كانت زي القبر، بعد فترة أجرت الشقة دي، والحمد لله ربنا كرمني والتزمت، تعرف اللي يشوفني قبل الحادثة ويشوفني دلوقتي صعب جدًّا يعرفني شكلي اتغير خالص، ومع ذلك الواحد عايش في قلق ورعب، وأحيانًا لما باكلم أمي بحس في صوتها بالخوف وتفضل تحذرني تقول لي إنهم بيدوروا عليا في كل حته في القاهرة، لولا أن أمي ممكن تموت فيها كنت سلمت نفسي ليهم وارتحت واللي يحصل يحصل، لكن أنا خايف عليها، نسيت أقول لك أنا طبعًا سبت خطيبتي وهى اتجوزت بعدها كان لازم تتجوز وإلا هاتفضل مستنية العمر كله...

في سخرية ومرارة:

– تعرف حتى أبويا مات من غير ما أحضر جنازته، أو جواز إخواتي البنات، خاصةً وأنا أخوهم الوحيد.

لمعت عيناه من حبسة الدموع وقد بذل جهدًا ليمنع سقوطها ثم صمت ليكسر سيد الصمت قائلاً في تأثر واضح:

– ربنا كبير يا هاشم لكن التار عندكم مشكلة كبيرة ولسه موجودة لحد دا الوقت هو مفيش تعليم عندكم؟

ابتسم هاشم رغم أنه يعتصر ألمًا (وكما يقولون شر البلية ما يضحك) ثم قال:

– بلدنا فيها متعلمين كثير وأكثرهم مؤهلات عليا، أنت عارف إن أكثر الناس في البلد حرصًا على الأخذ بالتار هم المتعلمين!

حدق سيد فيه وقد فوجئ من كلامه:

– معقول!!

– آه اللي أنا قتلته ليه إخوات متعلمين، لكن الحكاية مش في قلة المتعلمين أو التعليم على قدر ما هي ثقافة وتقاليد وأعراف متأصلة في البلد.

– لكن في حاجة هم مابلغوش عليك، لأنهم لو بلغوا كنت أكيد اتسجنت واللا إيه! خاصةً وإنك أكيد رحت أمن الدولة.

– طبعًا لكن فعلاً هم مابلغوش ودي حاجة متعارف عليها، لو حد اتقتل أهله ينكروا معرفة الفاعل مايتهموش حد وتقيد ضد مجهول،

وإلا يبقوا ضعفاء وعشان بيكونوا عاوزين ياخدوا بالتار ولو بلغوا عن الفاعل يدخل السجن ودا ممكن يمنعهم من قتله، وبعدين الصعيد عندنا ليه قوانينه الخاصة يعني حسب التقاليد والأعراف والكل يخضع ليها.

هز سيد رأسه في أسى:

– بس مش عارف أنتم بتجيبوا السلاح منين؟

ضحك هاشم:

– أسهل حاجة ممكن تحصل عليها في الصعيد هو السلاح، يعني تقريبًا صعب يكون فيه بيت مافيهوش سلاح سواء طبنجة أو بندقية آلية، دا في قرية عندنا الناس فيها بتمشي في الشارع والسلاح معاها وكأنه نبوت أو عصاية، تجار السلاح في الصعيد منتشرين يمكن يكون للجبل دخل كبير في كده.

أطال هاشم النظر إلى سيد ثم استطرد:

– ربنا يكفيك شر التار يا أخ سيد.

*****

لا تزال الحيرة تسيطر على الحاج شوقي، يفكر في ابنته ورغبتها الملحة في الزواج من نادر، لكنه لم يقتنع به كرجل يمكن أن يأتمنه على ابنته، وقد اضطر أن يرضخ لرأي الأغلبية، خاصةً أنهم رأوا في نادر الحلم الذي ينفذون من خلاله إلى دنيا المال، وصاروا في سعادة لم يعرفوها من قبل، وطالما حدث نفسه: (هل كل شاب غني

يتقدم لخطبة فتاة لا بد أن ينال القبول والرضا!). ولا ينسى نصائح زوجته الحاجة سنية، وهى تشدد عليه قائلة: وافق على كل اللي يقوله أبوه، دا عريس لقطة مكنَّاش نحلم بيه. وعندما أخبرها أنه ما زال حائرًا ويشعر بالقلق، كان ردها قاسيًا جدًّا قائلة: (مش أحسن ما تتجوز موظف كحيان وتعيش في غلب العمر كله وتفضل تحسبها بالقرش طول الشهر!). جرحته دون أن تدري، فعلت كمن ينظف "دمّل" ملتهب، عندما يضغط عليه بكل قوته ليزداد ألمه.

في تمام العاشرة والنصف صباحًا توقفت سيارة مرسيدس سوداء أمام منزل الحاج شوقي، كان يقودها سائق ضخم يرتدي بدلة كاملة ركب بجواره الحاج شوقي ولم يتفوه إلا ببضع كلمات في جدية وتجهم، ليخيم صمت تام على الموقف، حتى عندما حاول الحاج شوقي أن يتحدث معه يستفسر عن بعض الأشياء، هز رأسه في ضجر قائلاً: (المطلوب مني أوصلك عند القصر وبس).

توقفت السيارة أمام باب القصر ليستقبله ماهر في ترحاب ثم اطلع على بطاقته وعلى وجهه ابتسامة صفراء قائلاً:

– آسف يا حاج إجراءات أمن.

شعر الحاج شوقي بالمهانة وفكر للحظة في التراجع، لكنه تذكر ابنته ونصائح زوجه، وكان عليه أن يعبر البوابة الرئيسية للقصر في صحبة ماهر، وبدا مسافرًا عندما راحا يمشيان في الحديقة ذات المساحة الشاسعة التي يتمتع بها عدد محدود جدًّا من البشر، وهى

تبدو كأنها تشكو من قلة روادها، في حين يوجد ملايين من البشر محشرون في كتل أسمنتية ضيقة لا يعرفون شيئًا عن الحدائق أو الخضرة.

كان يتوقع فخامة القصر لكن لم يخطر على باله أن يكون بهذه الفخامة والاتساع، وأخذ ينظر إلى الأرضية الرخامية والأعمدة المستديرة والثريات العملاقة والسلم الحلوزني الذي يصعد لأعلى وقد تعدى مدى الإبهار الذي رآه الخيال.

قال له الخادم أن يجلس قليلاً في انتظار سعيد باشا، قبل أن يسأله عما يشربه، كان لا يزال يمعن النظر لأركان القصر، ويتمتم في صوت غير مسموع: آه يا حرامية يا ولاد الكلب لا يمكن أن يكون كل دا من حلال. ما كاد يكملها حتى تناهى إلى مسامعه صوت خطوات سعيد باشا وهو ينزل من أعلى (أراد ذلك لكي يشعره بضآلة مكانته) ويدخن السيجار وينظر للحاج شوقي نظرة استعلاء والحنق يكاد يقتله، محدثًا نفسه كيف لابنه أن يرفض الزواج من بنت رجل الأعمال ذات الحسب والنسب، ويصمم على الزواج من بنت هذا الموظف الذي يرفض أن يجعله خادمًا عنده، لكنها رغبة ابنه الوحيد وإن وقف ضدها قد يفقده للأبد.

صافحه سعيد باشا في برود وقال:

- شرفتني يا حاج.

- الشرف لينا يا افندم.

بعد نظرة طويلة فاحصة قال سعيد باشا:

– ممكن أعرف بتشتغل إيه؟

ظهرت الدهشة على وجه الحاج شوقي، يدعوه ليسأله عن عمله وأكيد يعرف قال في ثقة:

– أكيد نادر قال لك.

– قال لي لكن أحب أعرف منك.

– أنا حاليًا على المعاش وكنت موظف والحمد لله ربيت أولادي أحسن تربية ماخلتهمش عاوزين حاجة.

في سخرية وامتعاض قال سعيد باشا:

– إزاى؟ وأنت بتقول كنت موظف!

– أنا مرتبي كان كويس وكافي لكل احتياجتنا والقناعة والرضا أهم حاجة، ويكفي إني كنت بانام وأنا مرتاح عشان معنديش حاجة أخاف منها أو أخاف عليها.

بعد لحظات من الصمت أخذ سعيد باشا رشفة قهوة ثم قال:

– نادر ابني الوحيد ولولا إني خايف أخسره ماكنتش وافقت.

قاطعه الحاج شوقي قائلاً:

– أنا كمان لولا إني متأكد إنهم بيحبوا بعض ماكنتش وافقت.. وعلى فكرة أنا كل اللي يهمني سعادة بنتي مش أي حاجة تانية.

لم يتخيل سعيد باشا أن يكون هذا الرجل البسيط بهذه الصلابة والثقة والاعتزاز بالنفس، وقال في سخرية:

- أقدر أعرف ليه كنت غير موافق؟

أخذ الحاج شوقي رشفة شاي ثم قال في هدوء وثقة:

- الجواز لازم يكون فيه تكافؤ في كل شيء، ودا أهم شروطه عشان يتحقق ليه النجاح، وانتم عايشين في دنيا وإحنا في دنيا تانية ومن الصعب إننا نتلاقى.. لكن أهم حاجة عندي إنى أجوز بنتي لراجل يحبها ويصونها حتى وإن كان شاب بسيط.

*****

كان خالد عائدًا من عمله عندما لاحظ وقوف سميرة في البلكونة حيث كانت في انتظاره وقد تهللت أساريرها عندما صعد إلى السلم قائلة:

- ألف مبروك يا حبيبي.

دهش خالد وقد تسمرت قدماه وقال في صوت خافت:

- مبروك على إيه؟

- حاجة كان نفسك فيها وشغلتك عني (أرادت تشويقه وإثارته) لكنه سريعًا وفي لهجة صارمة قال:

- قولي في إيه أنا راجع تعبان ومفيش دماغ للألغاز.

مكتب محامي اتصل بيا وبيقولوا إنك تروح بالأوراق بكرة.

أسرع خالد نحوها وأخذ يقبلها وهى تحاول التملص منه وتقول في دلال:

- إحنا على السلم.

دخل الاثنان الشقة وأغلق خالد الباب بقدمه وقال:

- أنا سعيد جدًّا أنتِ وشك حلو عليا يا سميرة.

- يعني أنت سعيد يا حبيبي.

- جدًّا جدًّا.

- يعني النهارده نحتفل بالليل.

وهمست في أذنه:

- أنت وحشتني أوي يا حبيبي.

ضمها ثم قبل وجنتيها:

- وأنتِ كمان.. بالليل أعوضك عن كل الأيام اللي فاتت.

رغم فتور العلاقة وتباعد لقاءاتهما وتسرب الملل إلى خالد، لكن سرعان ما تتملكه الشهوة، عندما يسترجع لقاءاتهما الساخنة يشتاق إلى جسدها الأبيض الناعم وأنفاسها الحارة المتهدجة وشفتيها المتوهجة بنار الرغبة التي كانت تذيب أحاسيسه وتنهار أمامها كل حصون مقاومته، حينها يتذكر أنه يغضب الله بإصراره على ارتكاب المعصية وتفكيره الجدي في الابتعاد عنها.

*****

من الصعب أن يستطيع إنسان تحديد ما سيؤول إليه في المستقبل، قد تجتهد وتكافح لتسلك طريقًا معينًا تظن أنه مبتغاك، لتجد نفسك في طريق آخر مغاير تمامًا تكتشف أنك تعشقه ولم تكن تدري، وهذا لا يعني أن تتكاسل أو تتراخى فبقدر اجتهادك سوف

تحصل، لكن ليس بالضرورة ما تراه أنت لكن ما يقدره الله لك. وهو تمامًا ما حدث مع سامي الذي بدأ يضع أولى خطواته الصحيحة في عالم الصحافة، وكأنه وجد مبتغاه وضالته واكتشف أنه يعشق هذه المهنة، والآن لو خُير بينها وبين أي شيء آخر لاختارها دون تفكير، إنه الآن كاتب له اسمه في جريدة الرأى الحر إحدى أقوى جرائد المعارضة التي لها قراء كثيرون، معظمهم في الغالب من المثقفين الذين يبحثون عن المقالات والأعمدة، وقد يتعارض هذا مع بعض قارئى الجرائد الذين بمجرد أن يفتحوا الجريدة يبحثون فقط عن صفحات الرياضة أو الحوادث أو الفن، وقد حانت له الفرصة التي طالما انتظرها بعد أن خصص له عمود في العدد الأسبوعي ليكتب فيه ويعبر عن آرآئه وأفكاره على أوسع من ذي قبل.

جلس خلف مكتبه أمامه فنجان القهوة والأقلام ورزمة أوراق، لكنه يجد صعوبة بالغة في تجميع أفكاره، كلما كتب جملة سرعان ما يمسك بالورقة ويمزقها، وراح يتساءل في نفسه كيف ذلك؟! أين ذهبت الكلمات؟! مر عليه الوقت وهو لا يستطيع أن يمسك بتلابيب أفكاره، وصار كمن يترقب الأمواج في المياه الراكدة، ليتذكر إحدى مقولات أبيه التي كانت دائمًا بمثابة المصباح الذي يضيء له الطريق "اجعل من كتاباتك مرآة تعبر فيها عن هموم الناس"، وأخيرًا بدأت الأفكار تتدفق حيث لا يوجد أكثر من ارتفاع الأسعار وتدني الأجور ما يؤرق الناس.

كتب في منتصف السطر "عجب العجاب" وبدأ القلم يجري بعد أن عثر عما يبحث:

قد تجد الكثير من المشكلات لدى بعض الدول، وأيضًا قد تلمس أشياء لا ترضى عنها، لكنك في مصر ترى عجب العجاب، وقبل أن ترهق نفسك بالتفكير وتذهب بأفكارك بعيدًا، هل طرق ذهنك مرة ما هي القدرة الشرائية للدخل الذي تحصل عليه خلال شهر؟ لو فعلت ذلك وتمعنت قليلاً، تكتشف أن في مصر أشياء تحدث، لا يصدقها عقل أو منطق وتدعو للسخرية.

قد تجد في بعض الهيئات أو المؤسسات راتب الكثير من الموظفين لا يتعدى بضع مئات من الجنيهات، لو أمعنا قليلاً في ذلك الراتب نجد أن القوة الشرائية له لا تتعدى بضعة كيلو جرامات من اللحوم، شيء لا يصدق أو يعقل أن عائلة مكونة من خمسة أو ستة أفراد تحيا بمثل هذا المبلغ، وتدفع فاتورة كهرباء ومياه وربما إيجار منه، وما أدراك ما النتائج المترتبة على ذلك من غم وهم طيلة الشهر، وأثرها على أفراد العائلة من سوء تغذية وتدني في النواحي الصحية والجسدية والحرمان والفقر الذي ينشأون فيه، ومن يدعي أن الأموال في تحسن عن الماضي فإنه واهم ويُعمي الناس عن الحقيقة ليجعلهم يعيشون في وهم كبير، ولو رجعنا بالزمن قليلاً نجد أن مرتب الموظف في الخمسينيات والستينيات كانت القدرة الشرائية له أضعاف مضاعفة لما عليه الآن، بالله عليكم كيف نطلب من

أجيال تنشأ بمثل هذه الملاليم في كرب الولاء والانتماء والابتكار والعلم والعمل وغيرها من أمور التقدم، في الغالب نحصل على شباب فاقد القدرة على كل شيء، في المقابل نجد رؤساء نفس هذه الهيئات قد يتعدى راتبهم مئات الآلاف من الجنيهات ولا يكتفون بذلك بل تمتد أيديهم إلى أموال الشعب هل يحدث هذا إلا في مصر؟! إذا أردنا شبابًا قويًّا لديه انتماء قادر على الابتكار والعمل لا بد أولاً أن نرسخ مبدأ (العدالة الاجتماعية).

*****

بعد منتصف الليل صعدت سميرة إلى حجرة خالد، وتبدو في أبهى زينة لها وبمجرد أن فتح الباب انقض عليها، وأخذ يقبّلِها وهي تضحك في خلاعة وتهمس: بعد العشا يا خالد (كانت أعدت صينية بطاطس باللحمة، الأكلة التي صارت مفضلة لديه). بعد تناول الطعام واحتساء الشاي ألقى بكامل جسده عليها ضاجعها بكل شراسة، وكانت من عاداته عندما يكون سعيدًا أو حزينًا أن يأتي أداؤه غزيرًا وقويًّا، يفرغ في جسدها حزنه أو سعادته، لكن هذه المرة كانت أقوى من كل مرة سابقة وكأنه يقيم احتفاليته الخاصة في جسدها، بعد أن فرغ طبعت قبلة على جبينه وأخذت تداعب خصلات شعره وهى تهمس:

- ربنا يفرحك دايمًا يا حبيبي.

استلقى على ظهره ووضع كفيه تحت رأسه وأخذ يحدق في السقف ثم قال:

- عارفة يا سميرة أنا طموحي كبير جدًّا ومن غير حدود.

دعكت أنفها في أنفه وقالت:

- دى الحاجات اللي عجبتني فيك إنك طموح وعارف أنت عاوز إيه.

- فيه ناس كتير بتسخر من الإنسان اللي عنده طموح كبير، لكن مصمم على إني أوصل إن شاء الله.

- بس يا حبيبي احلم بردو في المعقول.

- وليه في المعقول! حتى الأحلام نستكترها على نفسنا، أنتِ عارفة أنا اتولدت في بيئة فقيرة كل اللي فيها بيعتمد على أجسادهم في الشغل، عمرهم ما فكروا يشغلوا عقلهم، أب ورث حتة أرض يزرعها وياكل منها وكنا عايشين، عمره ما فكر يطور نفسه أو حياته، ولما دخلت المدرسة كان غير مقتنع بيها وعلى استعداد إنه يخرجني منها لو سقطت سنة علشان أشتغل باليومية، ودا اللي خلاني أتحدى كل الظروف عشان أحصل على الليسانس، اخترت إني أعيش في القاهرة بعد الدراسة وأحقق أحلامي أنا قرأت في كتاب إن اللي بيصمم على تحقيق حاجة بيحصل عليها مهما كانت صعبة.

*****

سريعًا مر الأسبوع المتفق عليه، وصدق الحاج إبراهيم وعده بعد إحضاره فتاه أخرى، وتدريبها لتعمل في المحل لتكون بديلاً لسحر، ولم يحتَر كثيرًا في ذلك فما أكثر الفتيات الفقيرات وربما المعدومات، اللاتي في أشد الحاجة لأية نقود من أجل البقاء والاستمرار في الحياة، وفي سبيل ذلك يجبرن على التنازل عن آدميتهن، وقد بذلت سحر جهدًا خلال الأسبوع ولم تتوانَ في تعليم الفتاة متطلبات الوظيفة.

لملمت ملابسها في حقيبة صغيرة وراحت تودع في أسى كل ركن من أركان المحل، كم من ليالي طويلة مرت عليها كان النوم يجافيها من شدة التعب بعد المجهود المضني الذي تبذله طيلة اليوم، لكن مع ذلك لا تنسى تلك اللحظات الجميلة الحانية التي رأتها من الحاج إبراهيم، وقد آن الأوان لكي تفكر في مستقبلها ولا شيء يدوم على حاله، وإن خاطرت فلن تخاطر بالكثير، إنها في نهاية الأمر مجرد بائعة وربما خادمة.

بعد أن ودعت زميلاتها بالقبلات والأعناق أمسكت بحقيبتها واقتربت من الحاج إبراهيم ثم قالت:

- أشوف وشك بخير يا حاج.

نظر إليها الحاج إبراهيم نظرة محايدة لم يبدِ خلالها أية مشاعر وإن كان غير راضٍ عن قرارها، وقبل أن تغادر أخرج من جيبه نقودًا، وقال:

- خدي يا بنتي وخلي بالك من نفسك.

سبقت دموع سحر كلماتها وحاولت أن تقبل يده التي رفعها سريعًا وهي تقول في أسى:

- ربنا يخليك يا حاج.

خرجت تسبقها أحلامها وطموحاتها، استقلت تاكسي ثم أخرجت الورقة التي بها العنوان وأعطتها للسائق، تذكرت ماضيها وهى تنظر من النافذة إلى المحل والشارع، وهما يتباعدان شيئًا فشيئًا حتى اختفيا تمامًا، لتنظر إلى الأمام وتقع عيناها على المباني الشاهقة والزحام الشديد والحياة الصاخبة التي في الخارج.

أمام مبنى في شارع الهرم توقف التاكسي، نزلت والأفكار والمشاعر تتصارع في داخلها حيث يحدوها الأمل في مستقبل أفضل، في نفس الوقت هاجس الخوف يقلقها، عندما تجول في خاطرها ذكرياتها المؤلمة، أبدًا لم تختَر شيئًا في حياتها، لا تنكر أنها وجدت بعضًا من العطف لدى الحاج إبراهيم، لكنها حسبتها صح؛ إنها تعمل ما يقرب من خمس عشرة ساعة يوميًّا، تفعل فيها كل شيء، لكن هل ادخرت شيئًا؟ أبدًا إن كل ما ادخرته لا يتعدى بضع مئات من الجنيهات، إن تركت العمل لسبب أو لآخر وهذا وارد جدًّا لن يصمدوا أسابيع قليلة، حينها ستجد نفسها في الشارع مرة أخرى، وهى تتمنى الموت على أن تعود لتلك الأيام، لكن إن أصبحت راقصة فسوف تؤمِّن حاضرها ومستقبلها، وكما قالت لها مدام عاليا

"إحنا في بلد اللي عاوز يوصل فيها لازم يهز مع اختلاف الهز لسانه أو وسطه"، إذًا على ماذا تخاف؟! على شرفها؟! وأين كان شرفها عندما اغتصبت أكثر من مرة سواء من قريب أو غريب، إنه ليس لأمثالها لكن هل ستنجح؟ أو ما ستقدم عليه يكون البئر العميقة التي تحتوي ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

أمام الباب توقفت وقد ازداد خفقان قلبها ثم ضغطت على زر الجرس، ثواني وإذ بفتاة صغيرة لا تتعدى الثانية عشرة تفتح لها الباب وقبل أن تتكلم قالت سحر:

- مدام عاليا موجودة.

- مين حضرتك؟

- قولي لها سحر.

أغلقت الفتاة الباب ثم عادت بعد لحظات قائلة:

- اتفضلي ستي جاية حالاً.

دخلت سحر وقد سيطرت عليها الدهشة والانبهار، من فخامة واتساع الشقة التي تبدو كالقصر، والصور شبه العارية المنتشرة على الحوائط، ولوهلة سخرت من حياتها وحياة أمثالها، ممن تكون أقصى أمانيهم أن يمتلكوا شقة خمسين أو ستين مترًا كعلبة سردين في شارع لا يتعدى ثلاثة أمتار، انتبهت إلى صوت مدام عاليا التي جاءت قائلة:

- أهلاً يا حبيبتي كنت متأكدة إنك ذكية وهتيجي.

*****

كان سعيد باشا يريد أن يجعل من حفل زفاف نادر حفلاً أسطوريًا، يدعو إليه كبار رجال الدولة ورجال الأعمال من صفوة المجتمع، لكن كون العروس نادية ابنة شوقي الموظف أربك جميع خططه، ماذا يكتب في كروت الدعوة؟ لكنه صار أمام أمر واقع ولا بد أن يتصرف على أساس هذه الظروف. أحيانًا كثيرة يعاتب نفسه على انسياقه وراء طيش ابنه وكونه وافق على إتمام هذه الزيجة، خاصةً أن علاقته برجل الأعمال معتز الزيني تجمدت تمامًا، إذًا هي خسارة من كافة الوجوه وهو لم يعتَد على ذلك، كل شيء يقدم عليه لا بد أن يخطط له جيدًا، لكن الشيء الذي لم يخطط له أن يكون ابنه الوحيد حسب قوله بهذه العقلية غير العملية، وازداد قلقه وحنقه عندما رأى نادية وأدرك بخبرته التي اكتسبها بعد سنوات طويلة من المرمطة، حيث لمح في عينيها خبثًا ومكرًا لم يرهما من قبل، وكان عليه أن يكذب ظنونه وينحي قلقه جانبًا، من يعلم ربما يكون مخطئًا وحتى إن لم يكن كذلك فمن المؤكد أن سعادة ابنه الوحيد تحتاج حقًّا للتضحية، وهو بالفعل لمس مدى سعادته عندما وافق على زواجه منها، وقد أتم الاتفاق مع الحاج شوقي على التفاصيل كافة، وأن يتم زواجهما سريعًا ولا ضرورة لوجود فترة خطوبة، وكما قال له: "كل شيء جاهز وفي ادينا يبقى نجوزهم ومش لازم خطوبة خليهم يفرحوا ويعيشوا حياتهم ويتمتعوا". وحدد

سعيد باشا قيمة المهر خمسة وعشرين ألف جنيه وهو في نفسه يقول إنها لا تساوي أكثر من خمسة آلاف، أما الحاج شوقي كأي موظف كان يدخر مبلغًا لتجهيز ابنته، كذلك الحاجة سنية كانت تشتري بين الحين والآخر بعض أغراض الجهاز، لكن كانت هناك مشكلة في انتظاره حينما قالت له زوجه وأبناؤه إنهم يريدون ملابس غالية يحضرون بها حفل الزفاف وإلا فسوف يصبحون "فرجة" للمدعوين ولم يخيب الحاج شوقي ظنهم واشترى لجميع أفراد الأسرة ملابس غالية وراقية.

***

في أفخم فنادق القاهرة وبحضور بعض المسئولين ورجال الأعمال المقربين لسعيد باشا أقيم حفل زفاف نادر على نادية، وعلى قدر اتساع المكان وكم الإسراف والبذخ كان بمثابة السيرك بالنسبة لسامي، الذي كان من بين المدعوين، وما هم إلا بهلوانات فيه كل واحد يؤدي دوره في إتقان شديد، يضحكون ينافقون يتجملون ويصطنعون السعادة، وهم كالثعابين يتحفز كلٌّ منهم للآخر لكي يقضي عليه، وسخر من حال الدنيا ومن فرح مثل هذا وكم الأموال التي أنفقت فيه، التي كانت كفيلة بأن تنتشل أكثر من مائة أسرة ممن يعيشون في فقر مدقع، ولا يجيدون قوت يومهم يسكنون المقابر والعشش ومنازل من الصفيح يحاصرهم الجهل والفقر والمرض لتجعل منهم أكثر حظًّا وسعادة وآدمية، وكان عليه أن

يرتدي بدلة التمثيل مثلهم، ويتقمص دوره ويفتعل السعادة من أجل أصدقائه، وقد اعتاد أن يقف بجانب أي أحد إن طلب منه ذلك.

اقترب من الكوشة وهنأ نادر ثم صافح نادية وهنأها قبل أن يمازحه نادر قائلاً:

- عقبالك يا زعيم.

ابتسم سامي مجاملةً وحاول أن يتخطى مرحلة غضبه قائلاً:

- أنا لسه بدري.. وبعدين أنا فين والفرح دا فين يا نادر بيه.

- إيه يا عم هترسم علينا الفقر؟!

ابتلع سامي سخريته بالضحك وما هي إلا دقائق معدودة حتى تحرر سامي من هذا السيرك.

وبمجرد أن ظهر المطربون والفرق الاستعراضية، اشتعل حماس الشباب بالرقص والغناء والتصفيق في صحبة العروسين، وخاصةً نادية التي كانت في أبهى صورة وقد انطلقت ترقص كما لم ترقص من قبل، واستمتع الجميع بالغناء والاستعراضات، حتى غادر العروسان القاعة وكل منهما يعيش حلمه الخاص، نادية التي تشعر بأنها أمسكت بأيديها مفتاح السعادة، ونادر الذي صار في أشد الاشتياق لذلك الجسد الذي عز عليه وأخيرًا صار ملكًا له.

*****

(7)

اعتبر خالد التحاقه بالعمل في مكتب الأستاذ رفعت نصير خطوة جيدة، صحيح أنه كان يحلم بأن يكون وكيل نيابة، مثل بلدياته الأستاذ عبد الرءوف لكنه تمنى أن تكون بداية خيرًا له مستقبلاً، وقد اعتاد منذ طفولته أن يأقلم نفسه على أي وضع يطرأ عليه، وباجتهاده وذكائه الحاد اكتسب ثقة الأستاذ رفعت نصير، وقد اضطر لترك عمله في الكافيتريا لا لشيء إلا أنه تعارض تمامًا مع عمله الجديد، وهو ما سبب له خسارة مادية لكنه اكتسب نواحي معنوية ووضعًا اجتماعيًّا أفضل.

كان يستيقظ في السابعة صباحًا كعادته، يتناول الإفطار ثم يذهب إلى المكتب ويمضي يومه في التنقل بين المحاكم، وعكس ما كان يعتقد من أن المجهود الذي سوف يبذله في عمله كمحامي سيكون أقل من المجهود الذي يبذله في الكافيتريا، وكله يهون في سبيل أنه بدأ يشعر بذاته، عندما يكون مرتديًا البدلة وذاهبًا إلى المكتب، حتى جيرانه في الشارع صاروا يقدرونه، ولا يكلمه أحد إلا ويضع قبل اسمه لقب أستاذ "الأستاذ خالد" أخيرًا تحققت. ومن وقت لآخر كان يأتي إليه أحدهم ويستشيره في بعض الأمور القانونية، الشيء

الوحيد الذي بدا أنه سيخسره كان سميرة، التي أصبحت كالشبح يطارده ذهابًا وإيابًا خاصةً وأن لقاءهما صار يتم كل عدة أسابيع، يكون حينها باهتًا مخيبًا لآمالها، حيث يؤديه كأي عمل روتيني يقوم به لكي لا يغضبها، فهي كالبركان الثائر لا بد أن يخمد نيرانه كلما ازداد اشتعالاً حتى لا يقضي على كل شيء، ويرجع انقطاعها لعدة أسباب توافرت جميعًا لتكون عاملاً قويًّا جعل العلاقة بينهما تصبح على هذا النحو، حيث بدأ عمله في مكتب المحاماة يأخذ معظم وقته واهتمامه، وعندما ينتهي آخر اليوم يكون قد استهلك تمامًا، رغم أنه افتقد لها وإلى الأكل الشهي الذي كانت تعده ليتناولاه سويًا، وإلى بعض النقود التي كان يقترضها منها وفي الغالب لا يسددها، أما السبب القوي الذي كان له القول الفصل عندما يتذكر الحوار الذي دار مع عم حامد الذي بادره قائلاً:

– خلي بالك من شبابك يا ابني.

في البداية لم يفهم خالد فحوى الكلمات فرد قائلاً:

– الحمد لله يا عم حامد زي ما أنت عارف أنا عمري ما شربت حاجة.

– عارف يا ابني لكن مش الشرب بس اللي بيتعب الصحة.

بهت خالد وقد بدأ يفهم تلميح عم حامد وتعمد أن يبدو غير فاهم ليستوضح أكثر ويتأكد إن كان فعلاً يعرف بالعلاقة أم أنه يقصد شيئًا آخر، وقال:

- تقصد إيه يا عم حامد؟

أخذ عم حامد نفسًا في صعوبة ثم نظر مليًّا إلى خالد وقال:

- شوف يا ابني أنا راجل عجوز أقدم واحد في الشارع أعرف كل واحد وواحدة، يبقى غير معقول إنى معرفش سكان بيتي. أنت أكيد فهمتني.

لم ينتظر الرد من خالد واستطرد في صوت ضعيف لاهث:

- لازم تعرف أن لولا فيه ناس ساكنة عندي بعقد دايم علشان كده مش قادر أخرجهم، لكن باقول دع الملك للمالك وأنا خايف عليك أنت بس لأن باعتبرك ابني.. فهمتني.

احمرَّ وجه خالد واخضرَّ واختلطت فيه جميع الألوان من هول المفاجأة محدثًا نفسه (كيف لرجل عجوز بالكاد يمشي وملازم شقته أن يكون على علم بتلك العلاقة التي لم يعرف بها أحد) امتقع وجه خالد ونظر في الأرض وقد حل عليه الخرس وقبل أن يتكلم قال عم حامد:

- أنا عارف إنك ذكي وأنت بتفتخر بذكائك لكن أوعى تظن نفسك أذكى من كل الناس، مش عاوزك تزعل من كلامي يا ابني أنا مقصدش ازعلك كل ما في الأمر زي ما قلت لك أنا خايف عليك وعاوز أنوّر بصيرتك.

وضع خالد يده على وجهه وهز رأسه قائلاً في خجل:

- مش ممكن أزعل منك يا عم حامد يا راجل يا طيب ربنا يعلم أنا من أول ما سكنت عندك وأنا اعتبرتك زي أبويا بس مش عاوزك تغير فكرتك عني.

- لا يا ابني أنا قلت لك إنك ابني وفي النهاية أنت شاب وأي إنسان معرض إنه يضعف ويغلط المهم إنك ما تستمرش في الغلط.

- إن شاء الله يا عم حامد.

تضافر كلمات عم حامد مع الأسباب الأخرى، جعلته يصمم على إنهاء تلك العلاقة نهائيًّا، ولا يكتفي بأنها انحسرت وصارت مرة كل عدة أسابيع، فحتى تلك المرة كانت تمثل عبئًا ثقيلاً على أعصابه وطموحه.

*****

كان الدكتور عبد الواحد جالسًا مستغرقًا في قراءة بحث، وإذ به قد تهلل وجهه في إبتسامة عريضة، عندما فتح الباب مرحبًا بالزائر، نهض عن كرسيه قائلاً في حماس:

- أهلاً أهلاً بكاتبنا الكبير.

ابتسم سامي وهو يمد يده ليتصافحا في حرارة ثم قال:

- مرة واحدة يا دكتور.

- ومرتين كمان.

ضحك سامي ثم قال:

- ربنا يخليك يا دكتور.

بعد تبادل كلمات المجاملة قال سامي:

- إيه رأيك يا دكتور في مقالاتي؟

ابتسم الدكتور عبد الواحد في دهشة فقد سبق أن أثنى عليها كثيرًا وقال:

- فيه إيه يا سامي؟!

تغيرت ملامح سامي حيث بدا عليه الاضطراب قليلاً وهو يقول:

- مفيش يا دكتور بس أحيانًا باحس إنها هتكون سبب للمشاكل مش أكتر.

- ليه بتقول كدا؟!

- أنا مش هاخبي عليك من يومين كلمني واحد حسيت إنه بيهددني.

عقد الدكتور عبد الواحد حاجبيه وقد بدا عليه الاهتمام:

- قال لك إيه؟

- يعني.. خليك في حالك امشي جنب الحيط وكده.

- والكلام دا إيه تأثيره عليك؟

- شوف يا دكتور أنا مايهمنيش غير إني أقول كلمة الحق، لكن أنا بشر وأحيانًا بتأثر طبعًا، لكن كل اللي يهمني إن الكلام اللي أنا باكتبه يكون يستاهل وليه أهمية.

- أنا متأكد يا ابني إنك لا تخشى إلا الله، أما عن كتاباتك فأكيد تستاهل وتستاهل جدًّا كمان، كلمة الحق ربنا وحده يعلم أهميتها في

زمن زي اللي إحنا فيه دا، وربنا يجازيك خير، وأنا سعيد وفخور بيك وبشجاعتك وجرأتك في قول كلمة الحق أنت يا ابني قدوة لكل شاب.

هز سامي رأسه وهو يقول:

- الحمد لله ربنا يكتر من أمثالك يا دكتور.

- ربنا يكتر من أمثالك أنت يا ابني، البلد في احتياج لشباب طموح وجريء ومثقف اللي بيكونوا أسباب نهضة الأمم وتقدمها، في آية بتقول "الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل" أنت عارف اللي يقرا هذه الآية ويتدبر فيها جيدًا حقًّا لا يخشى إلا الله، لكن الناس صارت تفعل العكس، أي واحد عنده منصب وفلوس تنافقه ويعاملوه كأنه إله يرتعشوا أمامه وركبهم تخبط في بعض إما خوفًا أو طمعًا في مصلحة غير الكذب والرياء والنفاق.

رجع سامي بظهره للخلف وتنهد ثم قال:

- كلامك صحيح يا دكتور، لكن في حاجة ازاى نطلب من الناس أخلاق وتدين، وإنهم يطالبوا بحقوقهم وهم محاصرون بالفقر والجهل والمرض، وإذا اجتمع الثلاثة لا تلوم أي إنسان على أي تصرف أو فعل، لأنه ضحية يعني اللي بيبيع كليته أو حد من أولاده لا يمكن يكون سعيد وهو بيعمل كده، أكيد الظروف قهرته والمفروض تكون مهمة كل إنسان مثقف إنه يحاول يدافع عنهم ويطالب بحقوقهم ويكون شعاع النور اللي يلتفوا حوله.

هز الدكتور عبد الواحد رأسه في إعجاب ثم قال:

– ربنا يحفظك يا ابني لكن للأسف النظام بيتعمد يخلي الناس كده، عشان يبعدهم عن السياسة والحكم ويكون كل همهم على مدار أربعة وعشرين ساعة إنهم ازاى يلاقوا قوتهم وقوت عيالهم، وفي نفس الوقت يزرع فيهم فزاعة الخوف من الكلام في السياسة وينجح في أنه يجعلهم أكبر داعم ليه يعني يسرقهم وينهبهم وكمان يخليهم يهتفوا له بطول العمر، أنت عارف فيه كتاب اسمه طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبي الذي كتبه عام ألف وتسع مائة واثنان بيقول فيه إن العوام هم قوة المستبدة وقوته، بهم عليهم يصول ويطول يأسرهم فيتهللون لشوكته ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقائه على حياتهم، ويهينهم فيثنون على رفعته ويغري بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته، وإذا أسرف في أموالهم يقولون كريم، وإذا قتل منهم ولم يمثل يعتبرونه رحيمًا، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التوبيخ، والحاصل إن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم، بسبب الخوف الناشئ عن الجهل والغباوة وضعف الإيمان، فإذا تنور العقل زال الخوف وأصبح الناس لا ينقادون طبعًا لغير منافعهم، كما قيل العاقل لا يخدم إلا نفسه ودي مهمة كل مثقف.

*****

((الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)).

وهذا تمامًا ما حدث بين سيد وهاشم، تآلفت أرواحهما تمامًا، وكما ينجذب الحديد إلى المغناطيس انجذب الاثنان إلى بعضهما البعض، وكلما مر الوقت توطدت بينهما الأخوة في الله، حتى بدا كأنهما صديقان حميمان منذ أيام الصبا، والحق يقال إن سيد قد استفاد كثيرًا من هذه الصداقة ماديًّا ومعنويًّا، تعلم كيف يتاجر ويكسب وبعد أن كان مفلسًا، يقطع ما يقرب من خمسة كيلومترات سيرًا على الأقدام توفيرًا لأجرة المواصلات، طرأ عليه تحسن ملموس داخليًّا وخارجيًّا، صار مظهره أنيقًا يرتدي الملابس الجديدة سواء كان جلبابًا أو بنطلونًا وقميصًا، بعد أن كان يشتري الملابس المستعملة من الوكالة، ويتطيب بأجود أنواع العطور وتبدل طعامه تمامًا، بعد أن كانت عيناه لا تبصر إلا الفول والفلافل في كل وجبة، حتى إنه كان يقول ساخرًا (لو فتحوا أمعائي فسيجدوا بها فول منبت)، أما الآن فأصبح يشترك مع هاشم ويضع كل منهما مبلغًا ينفقان منه طيلة الشهر، وتولى هاشم مسئولية طهو الطعام، لما لديه من خبرة وباع طويل في العزوبية، وقد أغرم سيد من طريقته في تسبيك الطعام بالسمن البلدي، خاصةً اللحوم لدرجة أنه كان يشم رائحتها من على بعد، وكان ذلك يتم مرتين أو ثلاثًا في الاسبوع، وأثر ذلك ظهر جليًّا على سيد حيث زاد وزنه زيادة ملحوظة، وجرى الدم في عروقه واحمرَّ وجهه ولمعت عيناه، وتعلم كيف يستقطع كل شهر مبلغًا لكي يدخره، وفي نفسه كان يسخر من

أبيه الذي تشبث بوظيفة كل ما يتقضاه منها بضعة جنيهات، كان فرحًا خانعًا قانعًا بها وأنه لو تاجر لصار وضعهم بالتأكيد أفضل، وما قهرهم الحرمان والفقر، ولم يكن التغيير الذي طرأ على سيد في النواحي المادية والخارجية فقط، بل امتد ليشمل النواحي النفسية والسلوكية، حيث أيقن أنه لا بد أن يبذل مجهودًا لكي يخدم نفسه إن أراد حقًّا أن يغير من حاله، وقد صار الآن يعمل ويطهو الطعام ويغسل ملابسه وينظف السكن، وهو الذي كان يمتنع حتى عن عمل كوب شاي لنفسه، سواء كان عن عدم معرفة أو عن كسل واعتياده على التنبلة، حتى القمص والانسحاب الذي اعتاد أن يكونا رد فعله عندما يوضع في موقف ما تراجعا كثيرًا عن الماضي، بل إنه بدأ يتعمق ويتفقه أكثر في الدين بعد أن وجد من يعينه، وندم على عدم تركه المنزل منذ زمن الذي طالما عانى فيه من أبويه وإخوته الضالين المضلين، الذي كانوا يسخرون منه ومن أفعاله ويتشاجرون معه.

ثمة شيء واحد كان يختلف فيه مع هاشم عن غير عمد من كلاهما، حيث اتباع كل منهما شيخًا مختلفًا عن الآخر، سيد كان يرى أن الشيخ عابد هو من انتشله من الضلال الذي كان فيه أولى بأن يتبعه ويتتلمذ على يديه، أما هاشم فكان تلميذ الشيخ مهدي (أبو يوسف) بل يعتبر من خاصة تلاميذه، وقد كان يعرف حكايته وطالما وقف بجانبه وسانده ماديًّا ومعنويًّا، والشيخ مهدي تلاميذه

ومريدوه من جميع المحافظات، كان خطيب مسجد الرحمة الكبير الذي يتسع للمئات والذي يكون دائمًا مكتظًّا بالحضور.

كانا في السهرة كل منهما يحكي للآخر عما سمعه وتعلمه من خطب ودروس شيخه، لكن هاشم كان لا ييأس من دعوة سيد للذهاب معه لحضور دروس الشيخ مهدي، حتى جاء ذلك اليوم الذي رضخ فيه سيد خاصةً وأنه بالفعل يدرك فقه وعلم الشيخ مهدي الواسع.

ارتدى الاثنان الجلباب وتطيبا بالمسك وأخذا طريقهما إلى جامع الرحمة، قبيل صلاة الجمعة بوقت كافٍ ليجلسا في الصف الأول، كما اعتاد هاشم، وعندما وصلا أدهشت المفاجاة سيد عندما رأى الجامع، وقد أحيطت حوائطه بعدة تكييفات في كل جانب والمساحة الشاسعة التي بني عليها وقد بدا غاية في الروعه الجمال.

اتخذ الاثنان طريقهما وجلسا في الصف الأول، شيئًا فشيئًا بدأ الجامع في الامتلاء وقبل الأذان كان يكتظ بالمصلين، ودقق سيد النظر إلى الشيخ مهدي وإلى تقاسيم وجهه الأسمر دقيق الملامح وأنفه الرفيعة ولحيته الطويلة التي يشوبها بعض الشعيرات البيضاء، وقد بدا أنه تخطى عامه الخمسين يرتدي جلبابًا رماديًّا وعباءة سوداء. اعتلى الشيخ مهدي المنبر وألقى التحية على الحضور وساد الصمت والسكون التام وقد تعلقت به الأعين.

* * * * *

بدأت مدام عاليا في تنفيذ برنامجها المتقن المعد بعناية فائقة، لكي تجعل من سحر الراقصة التي تبحث عنها، وكانت لا تأبه لأقاويل كل من يحيطون بها المندهشون الحانقون من فرط اهتمامها الزائد بتلك الفتاة "البيئة" كما يقولون، وكانت تبرر لهم ذلك قائلة إنها مثل قطعة الماس المتوارية بين الأتربة والغبار، ما إن تلتقطها وتزيل ما عليها من ذرات الغبار والأتربة حتى يخطف بريقها الأبصار ويسحر العقول.

أحضرت أفضل مدربي الرقص وأشهر مصممي الأزياء وخبراء التجميل الذين لم يجدوا صعوبة في تأدية المهام الموكلة إليهم، حيث كانت مثل العجينة الطرية القابلة للتشكيل بأي صورة يريدونها، أما سحر فكانت مسبلة العينين وقد لفت بطبقة من اللاشعورية وكأنها في غيبوبة أو تحت تأثير مخدر قوي المفعول، من حالة الانبهار التي تعيشها ولا تتمنى أن تستفيق منها، حيث كان كل من حولها في خدمتها ويبذلون الجهد في تلميعها، وأحيانًا تشعر أنها في حلم سرعان ما تستفيق منه لتجد نفسها في الشارع.

بعد مرور أسابيع من التدريب والعمل الشاق، بدأت يد التغيير تطرأ عليها، قد تغيرت تمامًا بل تستطيع أن تقول إنها استبدلت بواحدة أخرى، أكثر جمالاً ورقة حيث صار وجهها أكثر نضرة وإشراقًا كوردة أينعت لتوها وتفتحت أوراقها، وبدت بشرتها أكثر نعومة، وشعرها كالسلاسل الذهبية بلونه الذهبي اللامع وعينيها العسليتين

الواسعتين وشفتيها الشهيتين المكتنزتين ونهدين متماسكين راسخين.

كانت مدام عاليا بخبرتها عرفت كيف تسيطر عليها بداية من غمرها بالاهتمام والرعاية والتحفيز، مرورًا بإعطائها دروس في كيفية التحدث بدلال والسير بخطوات أكثر إغراء وجذبًا، وكيف تأخذ من الرجل ما تريد دون أن يحصل منها على أكثر ما تريد إعطاءه له، وتشعره دائمًا بأنه الرجل الوحيد في العالم، حتى وإن كان في نظرها لا يساوي شيئًا في عالم الرجال.

كانت مدام عاليا تنفق في إعداد سحر، كأي مستثمر يضع مالاً في مشروع ليجني فيما بعد أضعاف ما أنفقه، وهى تعتبر نفسها تاجرة ماهرة، ويعبر عن ذلك الزيادة الكبيرة التي أحدثتها في إيرادات الكباريه منذ وفاة زوجها.

كانت نظرة واحدة من عينيها الماكرتين العميقتين كافية لتسيطر تمامًا عليها وطيها كأنها تحت تأثير تنويم مغناطيسي. بعد عمل عدة بروفات صارت سحر كما أرادت، الراقصة التي تبحث عنها، أخيرًا تمكنت من صناعتها، والآن قد حانت اللحظة التي تنتظرها حيث تقف سحر في غرفة تغيير الملابس، وقد بدا عليها الاضطراب والقلق كلما اقترب موعد طلوعها على خشبة المسرح، فإما أن تنجح وتكمل الطريق وتحقق ما تحلم به أو تفشل، حينها لا تدري ماذا تفعل؟ وما سيؤول إليه مصيرها؟ لكن ما كان يطمئنها ويهدئ من

رهبتها وجود مدام عاليا الدائم إلى جوارها في كل مكان، كانت عندما تنظر في عينيها تستمد منهما الثقة والثبات، وكأن بهما أشعة غير مرئية تستطيع بهما أن تتحكم في حالتها المزاجية.

كانت الصالة في تلك الليلة قد امتلأت عن آخرها، الكل يجلس في حالة ترقب ظهور الراقصة الجديدة التي تم الإعلان عنها، وصاروا في اشتياق وشغف بعد كم التشويق الهائل الذي أحدثته مدام عاليا، وثمة شخص من بين هؤلاء حاجز ترابيزة ويجلس بمفرده في الصف الأول، وإن كان يحيط به أربعة أفراد مدججين بالسلاح، وقد أخذ يدخن السيجار ويحتسي الويسكي في شراهة، حيث بدا عليه الوجوم والملل من الانتظار.

كان هذا الشخص سعيد باشا الذي اعتاد منذ سنوات أن يقضي سهرة ليلة الخميس في كباريه مدام عاليا، وقد تعمدت أن تشوقه أثناء تحدثها عن سحر وروعتها وكيف أنه لم يرَ مثلها من قبل، وعندما طلب أن يراها أصرت على أن تكون أول مرة يراها فيها تكون على خشبة المسرح، وها هو جالس منذ ما يقرب من الساعة وعندما رأى مدام عاليا أخذ نفسًا من السيجار ورفع كأس الويسكي دفعة واحدة إلى جوفه ثم قال في حدة وسخرية: (فين يا ستي الرقاصة اللي دوشتينا بيها واللا شكلها بمبة زي كل مرة)، وقبل أن يتم كلماته تم الإعلان عن دخول سحر لتطفأ الأنوار وأخذ الحضور في التصفيق.

*** * * * ***

أخذ خالد يحدق في سقف الحجرة شارد الذهن، وقد استلقى على ظهره عاريًا، إلا من سروال أبيض، بعد أن رفع البطانية من عليه واضعًا ذراعه تحت رأس سميرة، التي ترتدي حمالة صدر وكلوت صغير، وقد ضمها إلى صدره، وهى بين الحين والآخر ترفع رأسها قليلاً وتقبله في صدره ووجهه وتداعب بعض الشعيرات المتناثرة على صدره، وقد قرر أن تكون تلك آخر ليلة وخير ختام لهما بعد سنوات طويلة نهل فيها من جسدها البض، وقبل أن ينفضح أمرهما وتتكشف العلاقة إن استمرت أكثر من ذلك.

أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يهم بالكلام لتبادره بصوت هامس قائلة:

- عاوزة أقولك على حاجة يا حبيبي.

- وأنا كمان.

- طب قول.

- لا قولي أنتِ الأول.

- أنا قررت أتطلق من عادل...

استدار خالد بوجهه وأخذ يحدق فيها وقد أدهشته المفاجأة لدرجة أنها ألجمت لسانه، لتقول له:

- إيه مش فرحان يا حبيبي؟!

في لهجة محايدة قال:

- ممكن أعرف ليه عاوزة تطلقي؟

في دلال وهى تظن أنه سيفرح وقد أخذت تداعب خصلات شعره ثم قالت:

- عشان باحب واحد تاني وما اقدرش استغنى عنه ومايـنفعش أكون لرجلين واخترت أكون بس للي باحبه.

قام خالد بنصفه العلوي وقد تغيرت ملامح وجهه تمامًا صائحًا في حدة وغضب:

- أنتِ بتقولي إيه؟!

فزعت من ردة فعله عكس ما كانت تتوقع. نهضت ثم أمسكت بقميصها وارتدته وهى تقول:

- إيه اللي زعلك يا حبيبي أنا كنت فاكرة إنك هتفرح لما تعرف إني هاكون ليك لوحدك وحرمت نفسي على أي حد يلمسني غيرك حتى جوزي.

عقد خالد حاجبيه وجز على أسنانه وهو يقول:

- أفرح بتاع إيه؟! هو أنتِ فاكرة إن فاضي لك، أنا يا ستي عندي حاجات تانية أهم من العلاقة الوسخة دي.

امتقع وجهها عند سماع الكلمة ليس لقذارة اللفظ، لكن لأنه وصف العلاقة التي كانت تعتقد أنه يستمتع بها كما تستمتع هي بهذا الوصف، إذًا هي أيضًا بالنسبة له لا تمثل أكثر من امرأة حقيرة عاهرة بعد أن كانت تظن أنه صار يحبها ويعشقها وتمثل له شيئًا مهمًا.

استطرد بنفس العصبية والحدة:

– أنا مبافكرش غير في مستقبلي

في صوت حزين وقد غلبت عليها الصدمة والذهول قالت:

– أقدر أعرف لما علاقتنا في نظرك كده ليه استمريت فيها كل المدة دي وليه خليتني أحبك، كنت بتلعب بيا يا خالد؟!

لم تستطع السيطرة على دموعها التي بدأت تنهمر على وجنتيها.

حاول خالد أن يسترجع هدوءه وقال وهو يشدد على مخارج الحروف:

– أنا عمري ما فكرت ألعب بيكي، بالعكس أنتِ فعلاً ليكي مكانة في قلبي، ومانكرش إنى قضيت معاكي أحلى أوقات عمري...

سكت قليلاً وهو ينظر إليها ثم استطرد:

– لكن كل وقت وله أدان، كل اللي عاوزك تعرفيه إن جه الوقت اللي ننهي فيه العلاقة دي، ونكون أصحاب بينا ود وخير وكفاية لحد كده ربنا سترها قبل ما ننكشف.

صمت ثم أخرج سيجارة وأشعلها وأخذ نفسًا عميقًا نفخه لأعلى.

تمالكت سميرة نفسها وقالت:

– طيب ما أنا علشان كده باقولك أنفصل عن جوزي ويبقى محدش ليه حاجة عندنا ونتجوز وتبقى كل حاجة شرعي.

قال في صوت لاهث وهو يكاد يرتعش من فرط الانفعال، محاولاً كبت غضبه وصوته الهادر:

– بتقولي إيه؟ دا مين اللي نتجوز أنتِ يظهر عليكي اتجننتي دا كان أهلي يقتلوني ويقتلوكي.. أتجوز واحدة أكبر مني ومتطلقة وسمعتها على كل لسان!

هز رأسه مفتعلاً الدهشة:

– أكيد اتجننتي!!

كل ما فعلته أنها أخذت تحدق فيه، ثم وضعت يدها على جبهتها قد عراها تمامًا ونزع ورقة التوت التي كانت تخفي ما يعتقده فيها وقدرها عنده، أجهشت في البكاء، إنها تحبه بل تعشقه وقد صار حبه يجري في شريانها، إنه قدرها وعمرها الباقي.

كان دخان السيجارة حول إضاءة الحجرة الباهتة كهالة من الضباب، وحاولت أن تقنع نفسها أن كل ما قاله أوهام أو لم يقله من الأساس، نظرت إليه وأخذت تتحسس بكفها ظهره وهى تقول:

– لو زعلت من كلامي اعتبرني ما قلتوش وخلي علاقتنا زي ما كانت وانسى إني اتكلمت معاك في الموضوع دا.

نظر إليها وأمسك رأسها بين يديه وطبع قبلة على جبينها وكأنه يعتذر عن كلامه القاسي، وقبل أن تظن أنه راضٍ عن استمرار العلاقة قال:

– إحنا لازم نسيب بعض يا حبيبتي ودا عشان خاطرنا إحنا الاتنين، عشان مستقبلي وبيتك وجوزك اللي بيحبك ومابيبخلش عليكي بحاجة يا ريت تفهميني.

لم تعلق بل نهضت وأمسكت عباءتها ثم ارتدتها، وقد أيقنت أن أي كلام في ذلك الوقت لن يكون في صالحها، ولا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة ترضى عنها، وقررت أن تؤجل المناقشة لوقت آخر، أقنعت نفسها بذلك وراحت تلتمس له الأعذار لعله يكون مرهقًا وقد أثقلت عليه بكلامها فكان ردة فعله القاسي الذي حتمًا لا يقصده إنما خرج منه لتوتر أعصابه من ضغوط العمل المتزايد عليه، إنه معذور يعمل من الثامنة صباحًا ويقضي طيلة النهار في التنقل بين المحاكم ولطالما وجدته منهمكًا في قراءة بعض الأوراق أو يكتب في بعضها الآخر بعد أن أوكل له الأستاذ رفعت نصير بعض القضايا.

حاولت أن تبتسم وهى تفتح الباب لتغادر قائلة في صوت رقيق:

– خلي كلامنا لوقت تاني يا حبيبي علشان ترتاح.

أغلقت الباب لكي تقطع عليه أي مجال للرد، وقبل أن يؤكد لها كلامه مرة أخرى، هز رأسه وجز على أسنانه وهو يضرب كفًّا بكف، ثم فتح النافذة وقذف عقب السيجارة وبصق.

*****

ثمة شيء واحد عكر صفو استمتاع نادية بشهر العسل، بل بزواجها والوضع الاجتماعي والرفاهية المفرطة التي صارت تحظى بها، لكنه ليس بالشيء الهين الذي من الممكن أن تمضي حياتها دونه في سلام، وكم سخرت من الذي كانت تسمعه قبل الزواج وكذلك من محاولة اغتصابها، عندما تنظر إلى ذلك الشيء الذي

يسمى نادر، الذي طالما تباهى وتفاخر بعلاقاته النسائية ومغامراته العاطفية والليالي الحمراء، وكأنه الرجل الخارق الذي لا يضاهيه أحد في رجولته وفحولته بينما هو يثير الشفقة والخزي، والآن أصبحت تعاني أشد معاناة من الحرمان، حيث إنه لم يستطع ولو للحظة أن يجعل مخدعها يشتعل وينبض، أقصى ما كان يستطيع فعله أن يقبلها ويداعب جسدها ثم يهوى بجانبها "كالخرقة" البالية التي لا قيمة لها، بعد أن يكون أيقظ غرائزها وأجج النار في جسدها، وهل تستطيع قاطرة متهالكة أن تجر جمعًا من العربات المحملة بالمواد الثقيلة؟!

كانت نادية فرسًا تبحث عن خيال، ولم يكن نادر أبدًا خيالاً أو حتى سايس، وكانت ردة فعلها قاسية جدًّا من تضاعف احتقارها له، في ذات الوقت كانت تعرف كيف تصبر نفسها وتحدثها قائلة (إن لكل شيء ثمنًا وما حرمت منه ثمن قليل للحياة الرغدة التي صارت تحظى بها وعاجلاً أو آجلاً سوف تجد من يشبعها وتروي ظمأها) حيث أحلت لنفسها ذلك، بعد أن رأت أنه لا يستحق أن تصون شرفه وتضحي بأنوثتها من أجله، فهو أحقر من أن تكون له وحده حتى وإن قبل يديها ورجليها كما يفعل كل ليلة، ووجدتها فرصة سانحة وذلة تستطيع من خلالها تنفيذ مخطط استنزافه بأقصى ما يمكن، حيث بدأت تفرض عليه طلباتها التي صارت لا تنتهي بداية من الملابس باهظة الثمن مرورًا بالمجوهرات والحُلي التي لا ترتديها

وتقتنيها إلا النجمات نهايةً بالأموال التي يغدقها عليها بلا حساب، وكان نادر لا يجرؤ أن يرفض لها طلبًا، وقد صار طيعًا مستأنسًا بعد أن تغلغل عشقها في قلبه وعقله وصار راسخًا كالجبل، حتى بدا كالوحش الضاري الذي يستحيل التصدي له، وكان لا يأبه أو يبالي لأي شيء وإن تسبب له ذلك في صدام مع أبيه عندما يكتشف تحايله لكي يحصل على أموال.

أما سعيد باشا فكان يعتبرها لعبة اشتراها لابنه لكي يلهو ويستمتع بها ويضمن أن يحتفظ به ويحافظ عليه، حتى الأموال الكثيرة التي كان يحصل عليها نادر ويعلم أنه سوف يغدقها عليها، كانت لا تؤرقه أو تقلقه رغم الصدام والغضب المفتعل الذي يظهره في كل مرة، بل وأحيانًا يتشاجر معه وهو له فلسفته في ذلك، حيث يستطيع بذلك أن يحد من طلباتها، كذلك يشعرها بأن ما تحصل عليه أقصى ما يمكن أن تناله وتحلم به، وأنه لو علم سوف يحرم نادر من تلك الأموال وبالتالي تحرم هي أيضًا، أما لو تأكدت أن كل شيء يتم بمباركته سيعلو سقف أحلامها وتظن أنها سيطرت على الولد وأبيه، وفي النهاية كان يعتبر تلك الأموال لا تتعدى الفتات تمامًا كالعضمة التي ترمى لكلب. أما نادية فكانت تدرك أنه يحتقرها ويقف حائلاً أمام تطلعاتها ويفضح خططها، رغم أنها كثيرًا ما تفخم وتبجل فيه وتمثل دور الزوجة الطيبة المخلصة المحبة لابنه وتؤدي ما في وسعها لكي تجعله سعيدًا.

*****

ما إن فرغ الشيخ مهدي من خطبته، التي احتوت على العديد من النقاط الفقهية التي يحرص دائمًا على شرحها باستفاضة وبأسلوبه الهادئ المشوق، ولا مانع من مداعبة الحضور بقفشاته التي تضفي جوًّا من البهجة والراحة، حتى التف حوله جمع من الحضور يصافحونه ويعانقونه وهو يشق طريقه بينهم في صعوبة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة يُحيي بها كل من في طريقه، حتى دخل الحجرة الخاصة بالإمام، لكن هاشم وسيد لم ينصرفا إنما ظلا جالسين في انتظار مقابلة الشيخ، وراحا يتحاوران ويتناقشان حتى انصرف المصلون وبدا المسجد خاويًا. وقد رحب الشيخ مهدي بهاشم عند دخوله قائلاً:

– كيف حالك يا بني؟

صافحه هاشم ثم قال:

– الحمد لله يا مولانا.

– اجلس يا بني.

– بس الأخ سيد معايا في الخارج.

ابتسم الشيخ مهدي قائلاً:

– وما له خليه يتفضل.

دخل سيد في صحبة هاشم الذي قال:

– الشيخ سيد عبد النعيم اللي كنت كلمتك عنه يا مولانا.

- أهلاً بيك يا بني.

دار حديث طويل بين الثلاثة عن أمور الدين والفقه، وما وصل إليه سيد من حفظ قرآن وأحاديث نبوية ودراسة الفقه وأبدى عدم رضائه عما تحصل عليه سيد من علم، وهو الشيء الذي يحرص عليه مع تلاميذه قائلاً في لهجة المعلم الناصح:

- أريدك يا بني أن تعلم أن المسلم لا بد أن يلتزم التزامًا كاملاً بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، نحن نعفي اللحية ونقصر الجلباب لكن في نفس الوقت ندرس ونتعلم ونتفقه في أمور ديننا الحنيف، لكي نكون دائمًا على علم وبينة، ونمتلك الحجة التي نقارع بها أعداء الله الذين يريدون أن ينحوا الدين جانبًا عن الحياة، ويكون داخل المسجد فقط ومن غير العلم والدراسة المستفيضة، لن نكون قادرين على ذلك، كذلك نستطيع أن نهدي الكثير من شبابنا إلى اتباع سنة الحبيب، وهذا لن يكون بالتجهم في وجوههم والنفور منهم، بل بالمعاملة الطيبة وحسن الحديث والحجة السليمة القوية، إنهم مرضى بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم ينير بصيرتهم، ومع ذلك فنحن لا نغفل العلوم الأخرى مثل الكيمياء والفيزياء والهندسة وغيرها، نحن أمة اقرأ لذلك يجب أن يكون هنالك علماء في المجالات كافة، وعشان كده يا سيد عاتب عليك لأنك أهملت دراستك وتركت الجامعة.. على أية حال قدر الله وما شاء فعل المهم أن تجدّ وتجتهد في حياتك مع التزامك بشرع الله.

صمت لحظات أخذ يحدق في سيد الذي كان ينصت باهتمام، ثم استطرد الشيخ مهدي وقد علت نبرة صوته:

- أنا متوسم فيك خير وإن شاء الله تكون خير داعية للإسلام.

أمسك بكتاب بجانبه ثم أكمل:

- امسك يا ابني إن شاء الله تستفيد منه وحاول إنك تفهمه وفي المرة القادمة نتناقش فيه بإذن الله.

أخذ سيد الكتاب وشكر الشيخ مهدي وأخذ الاثنان طريقهما إلى الخارج وقد ارتسمت على وجهيهما راحة وطمأنينة وخاصةً سيد الذي أبدى انبهاره بالشيخ مهدي قائلاً:

- جزاك الله خير يا شيخ هاشم إنك عرفتني بالشيخ مهدي دا عالم وفقيه.

- أنت عارف يا سيد الشيخ مهدي وقف جنبي كتير، أنا اعتبره زي أبويا لما كنت أحتاج فلوس أستلف منه، وعمره ما كان يطالبني هو اللي ساعدني عشان أعمل الفرش وأتاجر وأكسب، وكمان أجر لي الشقة وبصراحة دا راجل مفيش زيه، أنا كنت عارف إنك لما تشوفه وتسمع له هتحبه وتتعلم منه كتير.

مضى الاثنان في طريقهما وهما يتحاوران ويتبادلان الضحكات.

*****

أظلم كباريه ليالينا تمامًا إلا من بقعة ضوء صغيرة مسلطة على خشبة المسرح، بدأت الفرقة الموسيقية في عزف مقطوعة الرقص

الشرقي، لتدخل سحر وسط تصفيق الجمهور الذي لم ينقطع عندما أطلت سحر، في قوامها الرشيق مرتدية بدلة حمراء تكشف عن تفاصيل جسدها حيث تبرز معظم نهديها اللذين ينبضان بالحيوية خارج حمالة الصدر، ومؤخرتها البارزة المفعمة بالحرارة. في التدريب اعتادت سحر أن تكون حافية القدمين أثناء الرقص لكي تتحرر من أي شيء يعوق حركتها كذلك لتشعر بخشبة المسرح وتتواصل معها بأعصاب قدميها، في البداية شعرت باضطراب بسيط سرعان ما زال عنها، بعدما ضبطت أذنها مع الإيقاع واندماجها في وصلة الرقص، كانت تدور ببصرها في الصالة ذهابًا ومجيئًا، وكلما رأت اندماج الزبائن معها ازداد حماسها وتألقها، وقد تطايرت خصلات شعرها وراءها كأمواج بحر اكتست بلون الذهب، ولوهلة لفت انتباهها ذلك الرجل الضخم الذي يكاد أن يمزقها بعينيه، ومن هيئته ونظراته والمكان الذي يجلس فيه والحراسة المحيطة به أيقنت أنه أهم من في الصالة.

بعد انتهاء الوصلة ضجت الصالة من أثر التصفيق الحاد والتهليل الحار من الزبائن، الذين ظلوا يرددون اسمها مطالبين بوصلة أخرى، وكان عليها أن تنظر إلى مدام عاليا التي تقف خلف الكواليس تتابعها وقد هزت رأسها بالموافقة، وسريعًا مالت سحر على قائد الفرقة وهمست في أذنه وبدأت الفرقة في العزف مرة أخرى، وأخذت ترقص وتتمايل في خفة ورشاقة، كأنها تسير فوق

السحاب بل كأنها نجم ساطع يتلألأ في السماء، وبدا الزبائن في سعادة وانبساط ولهفة وقد سابت أعصابهم بعد أن ألهبت حماسهم وأخذت عقولهم وأشعلت الحرائق في قلوبهم.

لم تكن تتوقع أو تتخيل أن تحصل على كل هذا النجاح وتنال قبول واستحسان جميع الزبائن الذين أخذوا يصفقون لها بحرارة.

في حجرة تغيير الملابس ضمتها مدام عاليا وقبلتها وهى تقول:

- أنا راهنت عليكِ وكنت متأكدة إنك هتنجحي وتكوني نجمة.. أنا عمري ما أخسر رهان أبدًا. ياللا يا حلوة غيري هدومك وتعالي معايا.

في حيرة:

- على فين يا مدام؟

عادت مرة أخرى الابتسامة الصفراء لوجهها بعد أن تخلت عنها للحظات:

- فيه زبون عاوزاكِ تقعدي معاه شوية.

تبدلت قسمات وجه سحر من الفرحة والسعادة إلى الدهشة والقلق، وقالت في تردد:

- زبون؟! أنا ماليش في الحاجات دى يا مدام.

- حاجات إيه؟! أنتِ كل اللي هتعمليه إنك تشربي معاه كاسين وتاخدي منه قرشين حلوين وبعدين دا راجل مهم ومحدش يقدر يرفض له طلب.

رفعت حاجبيها واتسعت حدقة عينيها وعلت نبرة صوتها ثم استطردت:

- أنا قلت إيه الواحدة تقدر تاخد من الراجل كل حاجة من غير ما ياخد منها إلا اللي هي عاوزة تديهوله.

شردت سحر بعقلها قليلاً واستعادت لمحة من الماضي، عندما كانت تجوب الشوارع بملابس رثة تستعطف الناس وتستجديهم، لكي يحنوا عليها ببعض النقود القليلة وهم ينظرون إليها في تعالٍ وقرف واحتقار كأنها حشرة خطيرة يجب سحقها، وعندما كانت تنام كالقنفد في العراء ويكاد قلبها يتوقف من شدة البرد والخوف وتنقلها بين الحدائق العامة واغتصابها بعنف وقسوة. ابتسمت في سخرية وهى تحدث نفسها قائلة "على الأقل هذه المرة ستكون بإرادتي وبمقابل مادي وأصبح برنسيسة الاشارة منى أمر واجب النفاذ".

هزت رأسها بالموافقة وقد استكانت وخنعت تمامًا، ثم ارتدت فستانًا أزرق طويلاً به فتحة طويلة في المنتصف تظهر معظم ساقيها، وسارت في خطوات مضطربة خجولة كأنها فريسة ذاهبة بكامل إرادتها للصياد.

عند ترابيزة سعيد باشا وقفتا وقالت مدام عاليا وهى تمسك بيدها كطفل صغير تمسك به أمه في أول يوم ذهابه إلى المدرسة وقد همّ واقفًا في استقبالهما:

- سحر يا باشا.

شعرت بقشعريرة في جسدها عندما أمسك بيدها وطبع قبلة حارة لزجة على كفها أحست كأنها سهام تنغرز في جسدها ثم قال في صوته الهادر:

– أهلاً... أهلاً بالقمر.

*****

نهض خالد ليأخذ حمامًا يزيل معه آثار التعب والإجهاد الشديد، اللذين يتملكاه بعد يوم عمل طويل وشاق وتنقله بين المحاكم، حيث كان الأستاذ رفعت نصير بدأ تكليفه ببعض القضايا وصار اسمه الآن يتردد بين المحاكم.

تحت الماء المنهمر من الدش راح يفكر في مستقبله، حيث أصبح الوقت مناسبًا أن يستقيل ويكون له مكتبه الخاص، وفي نفس الوقت يبتعد عن الحجرة، وبالتالي عن سميرة ليستفيق على صوتها تناديه وهى تدق على الباب بقوة قائلة:

– خالد.. خالد...

قبل أن يسب ويلعن وقد ظن أنها فقدت عقلها، وصعدت له في ذلك الوقت وتناديه بتلك الطريقة التي من الممكن أن يسمعها جميع من في البيت لكنها عاجلته قائلة:

– تليفون يا خالد من البلد.

انتابه القلق والدهشة عند سماع كلمة البلد، حيث إنه لم يكن يعتاد أن يتصل به أحد من البلد إنما كان هو دائمًا من يبادر

بالاتصال بهم إن أراد شيئًا، وقال في نفسه إنه لا بد أن حدث شيء مهم جعلهم يتصلون به، ارتدى ملابسه في عجالة ونزل مسرعًا، أمسك بالسماعة.. لم يتكلم إنما كان يسمع فقط، وقد بدا عليه الوجوم والحزن لتقع السماعة من يده واغرورقت عيناه بالدموع، اقتربت سميرة منه وربتت على ظهره وهى تقول:

- خير يا خالد؟!

نظر إليها في ذهول وحيرة كمن يريد أن يصدق ما سمعه:

- أبويا عيان بيقولوا طالب يشوفني وحالته خطيرة جدًّا.

في حنان وقد اكتسى وجهها بالقلق:

- خير إن شاء الله ربنا يشفيه.

- أنا لازم أسافر حالاً.

- محتاج حاجة يا حبيبي؟

وهو يصعد الى الحجرة:

- لأ.. شكرًا.

أخذ يدعو الله أن يطيل عمر أبيه، لكي يراه حتى وإن كانت آخر مرة، لكنه في حاجة إليها، خلع البنطلون الذي يرتديه وارتدى جلبابًا بلديًّا كحلي، وهو ما يفعله دائمًا عند ذهابه إلى البلد ثم نزل مسرعًا.

**

في موقف عبود وداخل سيارة ميكروباص، يجلس خالد حزينًا شاردًا، بعد اكتمال عدد الركاب انطلقت السيارة في طريقها إلى

سوهاج، سند رأسه على النافذة وراح يتذكر الماضي وعيناه مليئة بالدموع، آخر مرة زار فيها البلد كانت في إجازة العام الدراسي الثالث بالجامعة ومن حينها لم يزرها مطلقًا، كان دائمًا يستمر أثناء الإجازة لكي يعمل ويوفر جزءًا من مصاريف الدراسة، وها هو تخرج وعمل ومضى الكثير من الوقت، كل تلك السنوات لم يتخللها إلا عدة اتصالات تليفونية، ولا ينسى عندما كانت ترجوه أمه وتبكي لكي ينزل في إجازة، لكن هيهات أن تؤثر فيه دموعها حتى يئست تمامًا. في آخر مكالمة دارت بينهما، قالت له في حزن "الدنيا يا ابني أخدتك منا ويظهر إنها هتاخدك على طول حتى من نفسك.. براحتك يا خالد لكن لازم تعرف إن أمك وأبوك ليهم حق عليك".

كان طموحه الجامح ورغبته في إثبات ذاته سريعًا، أقوى من أي شيء وقد عهد على نفسه أن ينحي العاطفة جانبًا من حياته، أيضًا كان يضع حياة أبيه التي كانت كلها شقاء وقسوة دائمًا نصب عينيه، ودرس يذاكره جيدًا كلما رق قلبه... والآن تذكر كلمات عم حامد، حينما قال (لا تقطع صلة الرحم يا بني) وسالت دموعه، عندما لاح له أنه لن يرى أباه مرة أخرى.

*****

كان الوقت لا يزال في الصباح الباكر، وقد خلا كازينو أشواق المطل على النيل إلا من ثلاثة زبائن من بين هؤلاء مدام عاليا التي تبدو أنها في انتظار شخص ما وبالفعل لم تمضِ إلا دقائق معدودة،

حتى دخل سعيد باشا في صحبة ماهر الذي جلس على مقربة من ترابيزة مدام عاليا التي قالت في عتاب مداعبة سعيد باشا:

– يعني تطلب تقابلني وكمان تيجي متأخر! عارفين يا باشا إنك مهم

– اقعدي يا عاليا أنا مهم غصب عنك.

– طبعًا يا باشا.. خير قلقتني؟!

– عاوزك في موضوع.

– يعني ماكنش ينفع تقوله في التليفون أو لما تكون في الكباريه.

– جرى إيه يا عاليا إحنا أول مرة نتعامل فيها مع بعض أكيد ماينفعش.

– إيه الموضوع؟

أخرج سيجارًا ثم أشعله وهو يقول:

– اسمعي يا عاليا باختصار سحر تلزمني.

صمتت مدام عاليا وقد دهشت من طلبه رغم أنها تدرك أنه زير نساء ولا بد من أن يطلب منها سحر، لكن ما أدهشها تلك السرعة التي لم تكن تتوقعها، كذلك أنها استشفت من كلامه أنه يريد أن يأخذها بصفة دائمة، لو كان يريدها ليلة لكان طلب ذلك في الكباريه (وقد فعل ذلك كثيرًا مع أخريات) وحاولت أن تتأكد مما فهمته، قالت وكأنها تداعبه:

– إيه يا سعيد البت عجبتك ما هي كانت معاك ماقلتش ليه كانت راحت معاك.

رمقها بنظراته الصارمة وأخذ نفسًا عميقًا من السيجار واضطجع ثم قال:

– بلاش تعملي إنك مش فاهمة أنا عاوزها تكون ليا لوحدي.

ابتسمت وأخذت تداعب خصلات شعرها ثم قالت:

– لكن يا سعيد دي يادوب مابقلهاش كام يوم في الكباريه وعجبت الزبائن استنى شوية.

– جرى إيه يا عاليا أنا عارف كل دا ومن غير ما تقولي أنا عارف أنتِ بتفكري في إيه أنا هاعوضك وأنتِ عارفة كويس لا يمكن أبخل على الناس بتوعي.

– أكيد يا باشا دا إحنا عايشين من خيرك. لكن علشان خاطري سيبها حتى شهرين واللا تلاتة ولو عجباك أهي قدامك خدها في الليلة اللي تعوزها.

– لا أنا قررت ومش عاوزها ترقص لحد تاني كفاية إنها ترقص لي.

كانت مدام عاليا توقن من أنه لن يتراجع عن قراره، لكنها تعمدت أن تماطله لكي يدرك قيمتها لديها ويشعر أنها ستتضرر من تركها، ومن ثم تبدأ في مساومته وتحصل منه على ما تريد، وثمنًا مناسبًا.

– والله أنا صرفت عليها دم قلبي.

قرب وجهه منها وبدا أنه سيقول سرًّا حيث قال هامسًا:

– يا عاليا زي ما قلت لك أنا ما بابخلش على الناس بتوعي.

– لكن يا باشا.

في صرامة وحسم:

– خلاص يا عاليا أنا قررت.

كان ذلك إشارة إلى أنها لن تستطيع أن تجعله يتراجع بل من الممكن أن يسحب كلامه ويأخذها دون أن تحصل على شيء.

سريعًا قالت وقد حسمت أمرها:

– خلاص اتفقنا يا باشا.

أخذ نفسًا من السيجار ونظر إلى النيل وصمت قليلاً، ثم عاد بنظره إلى مدام عاليا قائلاً:

– على بركة الله.. بينا علشان أروح معاكِ آخدها.

* * *

– في ضيف عاوز يشوفك.

– ضيف!! مين دا؟!

– سعيد باشا.

– ما بيشوفني في الكباريه.

كانت مدام عاليا قد خصصت حجرة لسحر في الشقة التي تقيم فيها وذلك لإكمال سيطرتها عليها وتتطبع بطباعها وتكون دائمًا طوع يدها.

في لهجة حاسمة:

- ياللا يا سحر الباشا مستنيكِ.

خرجت سحر وقد جاهدت نفسها لترسم البسمة على شفتيها قائلة:

- أهلاً يا باشا نورت البيت.

- منور بيكِ يا قمر.

قالت مدام عاليا مداعبة:

- أنتو الاتنين منورين وأنا اللي مضلمة.

ضحك الثلاثة وقال سعيد باشا:

- دا انتِ ستنا وتاج راسنا.

- ربنا يخليك يا باشا.

- إيه يا عاليا ما قولتلهاش؟!

- قالت لي على إيه يا باشا؟!

- عشان تيجي معايا يا قمر.

حدقت سحر فيه قليلاً ثم قالت في صوت خافت:

- على فين؟!

- على الفيلا اللي اشترتها مخصوص عشانك.

بدا القلق والاضطراب على وجه سحر وهى تنقل عينيها بينهما وقد ارتسمت على وجهيهما ابتسامة باهتة خبيثة، ثم قالت في تردد:

- فيلا!! لكن أنا مبسوطة هنا.

نظرت إليها مدام عاليا ثم قالت معاتبة:

- هنا إيه يا حبيبتي! بقى في واحدة تطول إنها تعيش في فيلا وتسيبها. اقتربت منها ثم ضمتها وقبلتها واستطردت:

- ألف مبروك يا حبيبتي بجد أنا فرحت ليكِ رغم إنك هتسبيني بعد ما حبيتك ربنا يعلم فراقك على عيني لكن أنا أتمنى ليكِ كل خير ولا يمكن أقف قدام سعادتك.. بس اوعي تنسيني.

كانت سحر قد تجمدت في مكانها، حيث بهتت وألجم لسانها وصارت غير قادرة على الكلام، وأحست أنها مقدمة على شيء خطير مستحيل أن يكون ذلك الشيطان خيرًا لها.

قالت مدام عاليا:

- جهزي شنطة هدومك.

ثم صاحت:

- بت يا نعمة (الطفلة الصغيرة التي تعمل عندها خادمة). بسرعة البرق لبت نعمة النداء كفأر صغير مذعور قائلة في خوف:

- حاضر يا ستي.

- ساعدي سحر في تجهيز شنطة الهدوم.

تدخل سعيد باشا قائلاً وقد غلب عليه التعجل:

- يا عاليا مش لازم شنطة هدوم ولا حاجة أنا اشتريت ليها هدوم كتير من أحسن محلات البلد كفاية الفستان اللي عليها أنا معنديش وقت.

– ودي تيجي معلش يا سعيد بسرعة هتجهز الشنطة اقعد نشرب كاس.

أمسكت سحر بحقيبتها وقد أيقنت أن اعتراضها على الذهاب معه محاولة انتحار. سارت بجانبه منساقة إلى مصيرها لا تعلم ماذا يخبئ لها القدر مع ذلك الرجل!

خرج الموكب يقطع الشوارع، وهى جالسة إلى جانبه في السيارة صامتة مستأنسة بينما هو يتحدث من آن لآخر ويطلق الضحكات.

كانت الفيلا في أعلى ربوة بمدينة الشروق، تطل على البحيرة الصناعية لها حديقة واسعة يوجد فيها حمام سباحة صغير، محاطة بسور عالٍ، وشيئًا فشيئًا بدأت سحر تستوعب ما يحدث، حقًّا إنها فيلا رائعة بها أثاث راقٍ. دخل الاثنان وأمسك سعيد باشا يدها ثم طبع قبلة طويلة ثم قال:

– إيه رأيك يا جميل في الفيلا؟

أطالت النظر إليه ثم تجولت بعينيها في الفيلا وقالت وهى تهز رأسها:

– جميلة أوي.

– تعالي نطلع فوق.

صعد الاثنان وفتح غرفة النوم قائلاً:

– إيه رأيك؟

– جميلة أوي.. أكيد غالية أوي.

- مفيش حاجة تغلى عليكِ. ثم أشار وهو يقول:

- دي بقى شنطة مليانة هدوم كلها علشانك.

أمسكت سحر بالحقيبة التي كانت فعلاً مليئة بالملابس الغالية التي لم تكن تحلم أن تتصور بجانبها.

أخيرًا انبهرت وقد أتت الأموال بمفعول السحر، وهذا ما كان يراهن عليه دائمًا سعيد الباشا، وها هي تمسك بأحد الفساتين وتدور حول نفسها قائلة في فرح:

- الله كل دا علشاني!

هنا اقترب منها وضمها بقوة من الخلف حتى تألمت ثم همس في أذنها:

- ولسه دا أنا هخليكي برنسيسة.

أخرج من جيبه علبة ثم فتحها قائلاً:

- إيه رأيك في العقد دا؟

- جميل أوي يا باشا.

- لا.. أنتِ بس اللي مسموح لك تقولي سعيد. شوفي بقى يا ستي أنا مضطر أمشى دلوقتي عشان ورايا مواعيد شغل، لكن بالليل حاكون عندك. أمسك يدها وأخذها إلى البلكونة، ثم قال وهو يشير بيده إلى فرد أمن يقف في الحديقة:

- شايفة اللي واقف هناك دا؟

هزت رأسها قائلة:

- آه.

- دا اسمه صبحي الحارس بتاعك، حيقعد في الأوضة اللي في الجنينة لو عوزتي حاجة قولي له، والتلاجة عندك مليانة من كل حاجة عاوزة حاجة علشان أنا حامشي؟

- لأ.

ضمها وقبل وجنتيها ثم خرج وأمام الحجرة الصغيرة التي بالقرب من الباب الرئيسي للحديقة وقف، حيث أخذ يتحدث إلى صبحي الحارس قائلاً في لهجة آمرة:

- عاوزك تخلي بالك منها كويس وتشوف كل طلباتها، واوعى حد يهوب من هنا وهي كمان ما تخرجش خالص لأى سبب قبل ما تتصل بيا.. فاهم؟ حط عينك في رأسك كويس.

- حاضر يا باشا.

- أنا مابقلش الكلام غير مرة واحدة.

أغلقت سحر البلكونة وأخذت تحدق في العقد ثم ألقت بجسدها على السرير وراحت تتقلب يمينًا ويسارًا وتحلم.

****

وصل خالد إلى قريته نجع الضبعة، وأخذ ينظر إلى أعواد الذرة التي تتمايل على أثر نسمات الهواء التي تهب بين الحين والآخر، وهو يسير في الطريق الطويل الضيق الذي يربط القرية بالقرى الأخرى المجاورة، وكأنه يسير داخل لوحة فنية غاية في الروعة

والجمال رسمها أمهر الفنانين، وقد انتابه شعور بأنه يسير للخلف، لأول مرة يدرك أن الطريق طويل، أسرع في خطواته لكن يبدو أن الطريق كان أطول مما يظن، لقد تأخر كثيرًا سنوات طويلة احتاجها كي يقطع فيها الطريق الذي يفصله عن أهله ولم ينجح، الآن فقط أحس بها، مات أبوه دون أن يكون إلى جانبه أو حتى يراه، بل لم يكن بجانبه أي من أبنائه الذكور، حيث اتضحت الحقيقة أمامه بعد أن تنامت إلى مسامعه بوادر الصراخ والعويل الذي كان يعلو كلما اقترب من الدار، وبدا له الصراخ مدويًّا عندما وصل إلى الدار، جرى على أمه التي أخذته بالحضن وانخرطت في نوبة بكاء هستيري، كما ارتمت أخته على الأرض وزادت في حدة الصويت (كانت هذه التحية التي تلقى في المآتم من قبل النساء). بعد انقضاء اليوم الثالث على الجنازة ومجيء إخوته الذكور من السعودية، جلس الثلاثة فى صحبة أمهم الحاجة حميدة وأختهم ناهد وبادر علي أخوهم الكبير قائلاً:

– عاوزين نتحاسب علشان كل واحد يشوف مصالحه.

رفعت أمه رأسها وكان الكلام كافيًا لإفاقتها من الغيبوبة التي تبدو عليها منذ وفاة زوجها قائلة في صوت يشوبه الوهن معاتبة:

– بتقول إيه يا علي؟

– اللي انتِ سمعتيه عاوزين نشوف مصالحنا.

– دا لسه أبوك.

قاطعها علي قائلاً:

– الحي أبقى من الميت وأبويا الله يرحمه ويبشبش الطوبة اللي تحت راسه...

لم تجد إلا أن تسلم بما قاله هزت رأسها وهى تتمتم:

– الله يرحمه.

جاء الكلام على رغبة وهوى خالد، هو أيضًا يريد أن يأخذ إرثه كي يتمكن من فتح مكتب خاص به ويستقل عن الأستاذ رفعت نصير ليقول:

– يا ريت لو أنت عاوز تشتري حتة الأرض وتديني حقي معنديش مانع أو نبيعها وكل واحد ياخد نصيبه.

قال علي فى لهجة يشوبها حدة:

– بتقول إيه يا أستاد حد غريب يشتري أرضنا إحنا هفية واللا مش رجالة إحنا نقدَّرها وأنا أديلك نصيبك أنت ومحمد.

ارتجفت ناهد وكأنها أصيبت بصاعقة وهبت من مكانها، فقد كانت تترقب سماع هذا الكلام (حيث إنه غالبًا لا ترث البنت في الصعيد وإنما الأمر يتوقف فقط على قرار إخوتها الذكور إن رزقت بإخوة يمتازون بالطيبة والحنية أعطوا لها جزءًا من نصيبها ونادرًا ما يوجد إخوة يعطون أختهم كامل نصيبها).

قالت ناهد في حدة:

– وأنا نصيبي فين يا علي؟!

قال علي وقد أربد وجهه وبدا حاسمًا:

– من ميته البنات أتورث يا ناهد؟! البنات مالهاش ورث واللا انتِ ماتعرفيش الكلام دا؟

قالت وكأنها تستعطفهم:

– يرضيك كدا يا خالد أنت ومحمد؟

قال خالد في لهجة الناصح المحايد:

– انتِ هتعملي إيه بالفلوس يا ناهد هو جوزك مخليكي عاوزة حاجة أخوكِ الكبير على حق اخواتك أولى بالفلوس وإحنا يا ستي لا يمكن ننساكي.

هز محمد رأسه مؤمنًا على كلام خالد.

أجهشت ناهد بالبكاء وأخذت تقول:

– الله يرحمك يابا بقى نصيبي وتقول لي مش هننساكي؟

– ماتسكتي يابت بلاش زن.

– كمان مش عاوزني أبكي على أبويا يا علي!

– ابكِ يا اختي.. ابكِ.

توقفت فجأة وهبت واقفة وكأنها ستعلن قرارًا مهمًّا:

– أنا لو ماخدتش حقي راح اشتكيكم والحكومة تجيبلي حقي.

قبل أن يتكلم أحد حيث وقع الكلام عليهم كالصاعقة بينما الحاجة حميدة اتكأت بخدها المجعد على راحة كفها اليسرى لكنها انتبهت لما قالته ناهد وقد أفزعتها وقالت:

– بتقولى إيه يا بت تشتكي اخواتك عاوزة تجيبلهم العار دا حتة فدان لا راح ولا جه مستكتراه على اخواتك وعاوزة تورثي!؟

أكمل علي الكلام وهو يكاد يرتعش من فرط الغضب:

– طب اعمليها يا ناهد وأنا ورحمة أبويا أدفنك معاه.. البت اللي تشتكي اخواتها موتها أحسن... اركزي وحطي عقلك في راسك.

قالت في حسرة وهى تختلج بالمرارة:

– حسبي الله ونعم الوكيل.

كاد علي أن يصفعها لكن خالد قام مسرعًا وأمسك بيده قائلاً: لا يا علي دي مهما كانت أختنا وأنت الكبير معلش سيبها دلوقتي.

****

رغم أن سحر كانت رافضة تمامًا فكرة قبول سعيد باشا، حيث يتضح ذلك من خلال الحالة المزاجية العامة التي تكون عليها عندما تراه أو يقترب منها ولا يوجد سبب واضح لذلك، لكنها موقنة أنه يستحيل عليها رفض تلك العلاقة التي أجبرت عليها، وعندما تم أخذها أو بمعنى أصح جرها إلى الفيلا، كبتت سخطها واعتراضها بداخلها، وما بيدها أن تفعله؟ لكن كل تلك المشاعر بدأت تهدأ وتنسحب شيئًا فشيئًا، عندما رأت الفيلا وروعتها وما حظيت به من ملابس وعقد باهظ الثمن، وكالكثير من النساء اخترقت تلك الأشياء عقلها وقلبها وظهر تأثيرها سريعًا وقد راحت تحسبها بعقلها وكثيرًا ما نصحتها مدام عاليا أن تنحي العاطفة من حياتها وتبني كل

قراراتها على تفكير سليم وخطط مدروسة، ها هي قد قررت أن تأقلم حياتها على هذا الأساس، خاصةً وأنه يقدم لها كل فروض الولاء والطاعة وحقًّا جعل منها برنسيسة تقطن في فيلا لم تكن لتراها في أحلامها وما زال الكثير مما يمكن أن تحصل عليه إذا أحكمت سيطرتها عليه وربما تجعله يتزوجها، ومن الممكن أن يتم ذلك الليلة عندما يأتي في المساء... من يدري؟

بدأت السعادة تسري في جسدها، وشردت بخيالها وراحت تحلم بأنها أصبحت زوجة مليونير وارتسمت على وجهها ابتسامة صافية، إنه عالم آخر في انتظارها، السعادة الحقيقية قادمة لا محالة.

بعد أن أخذت حمامًا دافئًا شعرت معه كأنها فراشة تحلق بين الأغصان، جلست أمام المرآة تتزين حتى صارت كالعروس ليلة دخلتها في انتظار العريس.

في تمام العاشرة مساءً توقف موكب سعيد باشا أمام باب الفيلا، تسارعت دقات قلبها ولا تدري إذا كان فرحًا أم خوفًا، لكنها استلقت على السرير وقد ارتدت قميص نوم أسود قصيرًا جدًّا يبرز مفاتن جسدها الرشيق المتناسق النابض بالحيوية، وانسدل شعرها على الوسادة ليضفي بريقًا على الحجرة ذات الإضاءة الخافتة.

نظر سعيد باشا إلى صبحي الذي وقف ثابتًا كعمود إنارة وأشار له صائحًا:

– صبحي.

جرى صبحي مسرعًا قائلاً:

– أيوه يا باشا.

رفع حاجبيه الكثيفين ثم قال:

– إيه الأخبار؟

في أدب جم وقد ارتعشت أطرافه قال:

– كله تمام يا باشا زي سيادتك ما قلت.

– خلي بالك وقبل ما تنام تقفل الأبواب كويس وتشغل جهاز الإنذار، هما الكلبين كفاية عشان الحراسة؟

– أيوه يا باشا أنا بانام خمس ساعات بس بالنهار وطول الليل باكون صاحي وروكي وتيجر (الكلبين) كفاية يا باشا دول زي الوحوش.

– تمام أكل الكلاب كويس واوعى تطمع في أكلهم وتاخده لنفسك.

أطلق ضحكة عالية فرحًا بنفسه اخترقت كل الجدران، حتى وصلت إلى مسامع سحر، وطبعًا ضجت الحديقة من ضحكات ماهر وصبحي وأفراد الحراسة الذين انتشروا سريعًا داخل الحديقة، ولا شك في أنهم مدربون محترفون وقد اتخذ كل منهم موضعه وبدت عليهم الجدية والترقب.

دخل سعيد باشا الفيلا ثم صعد سريعًا إلى غرفة النوم، وفتح الباب ليجدها مستلقية على السرير كالحورية، كان متعجلاً للذة

والنيل من جسدها، أخذ يخلع ملابسه في عجالة ويقذف بها في جميع الاتجاهات على الأرض، كل ذلك وهي مستلقية لم تتفوه بأي كلمة بل تنظر إليه في تعجب وقد كانت تظن أن رجلاً بتلك الهيبة والثراء والعمر المتقدم سوف يكون أكثر كياسة، ولن يبدي أي مظاهر لهفة وقبل أن تتخيل ما سيفعله ألقى بكامل جسده الثقيل عليها وأخذ يقبلها بنهم وشراسة وهى تبدو بين يديه كقطة صغيرة احتوتها أذرع نمر هائل.

كم مر من الوقت لا تدري؟ أو لا تريد أن تتذكر ما حدث، لقد سقط القناع وظهر الجانب المظلم من الصورة، واكتشفت ما لم يخطر على بالها "شذوذه" نعم ذلك الوحش الذي نال من مؤخرتها، كم تلذذ من ذلك، وعندما صاحت فيه أنها تكره ذلك وترفضه، وليتها ما فعلت، تغيرت ملامح وجهه وظنت لوهلة أنه تحول إلى شيطان، حيث أمسك بشعرها وكاد يجتثه من جذوره وأخذ يضاجعها في منتهى العنف، ولم يكتفِ بذلك بل أجبرها على الرقص عارية وعندما تتوقف من شدة التعب أو غضبًا يلسعها بنيران سيجاره ويقذف عليها الوسكي، وهو يطلق الضحكات المفعمة بالنشوة ولم يتركها إلا بعد أن أطبق عليه النوم ليتكوم على السرير يخور كعجل ينازع الموت.

جلست سحر القرفصاء وانهمرت دموعها دون أن تصدر صوتًا، حتى لا توقظ ذلك الوحش الآدمي وتنال جام غضبه، تنعي حظها

وقسوة الدنيا، بعد أن ظنت أنها أشرقت لها، لكنها استيقظت من أحلامها على كابوس رهيب لم تكن تتصوره حتى عندما كانت مشردة في الشوارع، كانت تمتلك حريتها لكن الآن قد أيقنت أنها صارت في سجن كبير له أسوار عالية وعليه حارس وكلاب، حتى وإن كان هذا السجن فيلا.

*****

- فيه إيه؟!

قالها سيد لهاشم الذي أتى من الخارج، وقد تملكته حالة من الاضطراب والذعر الشديد، حيث قذف بالكيس الذي في حوزته وأغلق الباب بالترابيس، ثم جلس على الكنبة والوجوم يبدو جليًّا على وجهه حتى بدا أنه لم يسمع سيد الذي كرر سؤاله مرة أخرى وقد انتقل إليه القلق.

- فيه إيه يا هاشم؟

أخيرًا استجمع هاشم أعصابه وأطال النظر إلى سيد ثم قال في صوت خافت:

- اللي كنت خايف منه حصل.

جلس سيد وقد خمن ما حدث وأراد التأكد ليقول:

- إيه اللي حصل بالضبط؟

أنا كنت رايح أجيب نص كيلو اللحمة والخضار، وبعد ما اشتريت الحاجة وراجع شفت ثابت واقف مع واحد معرفوش لابس قميص وبنطلون لكن شكله من الصعيد.

- مين ثابت دا؟

- ثابت يبقى ابن عم اللي أنا قتلته وأكتر واحد متعصب في عيلتهم ودماغه قفل مسوجر ومن بين الناس اللي بتدور عليا في كل مكان.

- هو شافك؟

- مش عارف بس أنا لما شفته مشيت وكأني ماشفتوش لكن عنيا جت في عنيه ومش عارف إذا كان عرفني واللا لأ.

- يعني مفيش حاجة ظهرت عليه؟

- ما اعرفش أنا مشيت على طول ودا كان بسرعة جدًّا.

احتواهما صمت ثقيل ثم قال سيد محاولاً التخفيف من الموقف:

- مين اللي قال لك إنه هنا علشانك يمكن يكون موجود لأي سبب تاني.

- يا شيخ سيد هو أنا هاضحك على نفسي أكيد بيدور عليا يعني موجود في إمبابة ليه!

- أنا مش معاك يا هاشم إمبابة مليانة صعايدة، يمكن بيزور حد أو موجود عشان شغل زي كل الصعايدة الموجودين، ولو افترضنا زي أنت ما بتقول بيدور عليك لا يمكن يعرف مكانك خاصةً وإن

البيت والشارع مافيهوش صعايدة خالص، روق كدا يا شيخ هاشم علشان تعمل الأكل خلينا نعمر دماغنا.

- عارف إن كان على نفسي أروح عندهم أخلص الموضوع وارتاح، حتى لو قتلوني، لكن أنا خايف على أمي، لأنهم لو قتلوني هتموت فيها رغم أني بعيد عنها، لكن بتصبر نفسها لما باكلمها وتسمع صوتي.

- يا عم صدقني كل دا قلق مالوش لازمة، والراجل اللي أنت بتقول عليه دا لو قعد معاك حتى مش هيعرفك أنت شكلك اتغير خالص، دا حتى الصورة اللي أنت محتفظ بيها من أيام الحادثة أنا مش مصدق إنها صورتك.

ابتسم هاشم حيث أضفى كلام سيد جوًّا من الراحة والطمأنينة لديه وقال:

- ما أنا لسه شباب يا شيخ.

- شباب إيه دا أنت ياللا حسن الختام.

تبادلا الضحكات ثم هم هاشم واقفًا وقد عادت إليه ثقته وجديته وقال:

- غسلت عدة الشغل؟

- كل حاجة جاهزة بس أنت شد حيلك وظبط لينا أكلة معتبرة.

*****

- بوسة يا حبيبتي.

– هو دا اللي أنت فالح فيه! يا أخي سيبنى آخد حمام.. أنت ما بتزهقش!

– بسرعة يا نادية.

سخرت منه وهى تلوي شفتيها في قرف محدثة نفسها (اللي يشوف كدا يقول ياما هنا ياما هناك).

وقفت نادية تحت الدش في استرخاء تنظر للماء الدافئ، الذي يتخلل شعرها ويدغدغ فروة رأسها وهى تمرر يدها ببطء على جسدها، كان نادر مستلقيًا على السرير يحتسي البيرة ويدخن السجائر بشراهة، حتى كوَّن الدخان شبورة كثيفة في الحجرة، طال انتظاره وقهره الشبق وما إن وقف حتى دخلت نادية بجسدها الفائر من أثر المياه الساخنة، هجم عليها فك شعرها المبلول واستنشق رائحته المختلطة برائحة الجسد الطازج، نزع الفوطة التي تتدثر بها وألقى بها على السرير، وأخد يقبل يدها ووجهها وصدرها، حتى اشتعل جسدها وتصاعدت أنفاسها الحارة الملتهبة لاهثة كأنها تركض بكل قوة، وفجأة انتهى كل شيء، استلقى على بطنه وقد أخرج كل ما في جعبته وصار لا حول له ولا قوة، وهى ممسكة بالمرتبة تكاد تمزقها بأظافرها وصاحت بكل غضب وسخط: نام.. نام هو دا اللي أنت فالح فيه أصل أنا اتجوزت واحدة.. آه ياني...

حينما تأكدت أن نادر استغرق تمامًا في النوم، نهضت متسللة على أطراف أصابعها ارتدت الروب، ثم فتحت باب الحجرة وأخذت

تسترق الخطى، لكي لا تحدث ضجة وهى تنزل درجات السلم، وأمام إحدى الحجرات في الطابق الأسفل توقفت لحظات وأخذت تلتفت يمينًا ويسارًا، لتفتح باب الحجرة ثم تدخل وتغلقه سريعًا، كانت الحجرة مظلمة تمامًا إلا من ضوء سيجارة مشتعلة، وقبل أن تتكلم أو تفعل شيئًا سمعت صوتًا خافتًا يقول:

- كنت مستنيكِ.

نظرت إلى مصدر الصوت الذي يبدو كالشبح وسط الظلام وهو يتأرجح ببطء على كرسي هزاز.

قالت في صوت هامس معاتبة:

- سيبت أعصابي أنت قاعد ليه في الضلمة؟

- كده أحسن الضلمة أحيانًا بتكون أحسن من النور اللي ممكن يفضحنا واللا إيه؟

- لكن يظهر قلبك دليلك.

أطلق ضحكة خافتة لا تكاد تسمع ثم قال:

- أنا عقلي دليلى.

- ما تتغرش أوي كدا.

- أنا عمري ما كنت مغرور تقدري تقولي دي ثقة.

- عارف إن إحنا الاتنين زي بعض.

- مش فاهم.

- يعني كل واحد فينا بياخد من التاني اللي هو عاوزه.

- أنتِ لسه مش مصدقة أني بحبك؟

- بتحبني؟!! أهي دي أحسن نكتة سمعتها.. أنت عمرك ما تعرف تحب.

- وأنتِ كمان.

- الحال من بعضه.

قام واقترب منها وضمها بكل قوة وهو يقول:

- إحنا هنضيع الوقت في الكلام؟

*****

- البقية في حياتكم.

- حياتك الباقية يا سعادة البيه.

- ازيك يا خالد.

- الحمد لله يا عبد الرءوف بيه.

- أنا سمعت إنك بتشتغل في مكتب رفعت نصير في مصر.

- آه.

- بيقولوا إن سمعته مش كويسة.

- والله كلام الناس كتير أنا باشتغل عنده وشغله كله سليم.

- يمكن! أنت ناوي تفتح مكتب خاص بيك؟

- ربنا يسهل يا عبد الرءوف بيه.

كان ذلك حوار يمهد به الأستاذ عبد الرءوف للسبب الحقيقي للزيارة. ثم قال بعد أن صمت لحظات:

– سمعت إنكم قررتم تبيعوا الفدان.. لو نويتم أنا أولى خاصةً إنه في الزمام بتاعنا وإحنا من زمان كنا عاوزين نشتريه من المرحوم.

كان الإخوة على دراية بالسبب الحقيقي لزيارة الأستاذ عبد الرءوف، الذي هو ليس بالطبع من أجل تقديم واجب العزاء، إنما ليسبق ويفاتحهم في شراء الأرض، خاصةً وأنه قد سبق وألح على أبيهم لكي يشتريها، لكنه رفض وأيضًا يعرفون نهمه الشديد لحيازة الأرض الزراعية.

كان علي كما يقولون رجل "دوغري" لا يعرف التجمل فقال بصرامة:

– والله يا سعادة البيه إحنا مش هنبيع أرضنا ولو فكرنا نبيعها سيادتك هتعرف.

رمقه الأستاذ عبد الرءوف بنظرة نارية ثم قال:

– دا قراركم النهائي؟

– أيوه يا بيه.

– طيب البقية في حياتكم مرة ثانية.

– حياتك الباقية شرفتنا يا بيه.

ما إن غادر الأستاذ عبد الرءوف حتى قال خالد في حدة:

– دي طريقة تكلم بيها الراجل يا علي.

– طريقة إيه؟! كان عاوز يشتري الأرض وأنا قلت له مش هنبيع أرضنا.

- دا مستشار ومن أكبر عيلة في البلد.
- عارف... إيه يعني هو إحنا غلطنا فيه؟
- لكن كلامك كان ناشف أوي.
- ناشف واللا طري ما هو لازم، حد قال له إننا هنبيع أرضنا وعامل نفسه جاي يعزي يا راجل سيبك.

دخل علي إحدى الحجرات وما لبث أن عاد وبيده لفة ثم قال:

- شوف يا أستاذ زي ما إحنا قدرنا ثمن الأرض ميتين ألف جنيه يبقى... قاطعه خالد:
- يا علي في ناس قدرتها ميتين وخمسين ألف.
- يا أستاذ دا كلام لكن عند البيع والشراء صدقني ما حد يدفع أكتر من كده ويمكن أقل وأنت سيد العارفين. المهم كل واحد فينا نصيبه ستة وستين ألف... خد يا راجل خد. مد خالد يده على مضض.. واستطرد علي: وأنت يا محمد أهو نصيبك.

أخذ كل من خالد ومحمد المال، حين ذلك كانت الحاجة حميدة جالسة على الأرض مطرقة في وجوم وشرود لتقول وهي لا تزال على وضعها في صوت خافت:

- كل واحد فيكم يجيب ألفين جنيه.

قال علي:

- ليه؟!
- علشان اختكم.

- هو إحنا مش خلصنا منيه الموال ده؟

- يا ولدي أختكم ولازم تراضوها.

- يعني الفلوس اللي هتراضيها؟

تدخل خالد قائلاً:

- وهي هترضى بست آلاف؟

- ترضى.. يعني هاتنهب؟

نظر الثلاثة لبعضهم ثم قال علي:

- كفاية كل واحد ألف.

قالت الحاجة حميدة في صوت مبحوح:

- مفيش فايدة فيك طالع قلبك قاسي أنا قلت كل واحد ألفين.

قال خالد حاسمًا الأمر:

- خلاص يا أمي زي بعضه كل واحد ألفين.

قال محمد معلقًا:

- أنا مش عارف هتعمل إيه دي بالفلوس هي مش ليها جوز.

اقتطع كل واحد ألفي جنيه من نصيبه وكأنه يقطعها من لحمه ليكتمل المبلغ ستة آلاف. أمسك بهم علي ثم قال:

- خدي على الله عينيها تتملي وتبطل طمع.

*****

لم يكن سامي يكف أو يهدأ عن ملاحقة الفساد والمفسدين أينما وجد، وقد صار اسمه لامعًا بارزًا كواحد من أهم صحفيي المعارضة

الحقيقية، الذين وهبوا أنفسهم لنصرة المظلومين وإحداث التغيير، وتحريك المياه الراكدة في بحيرات الفساد مهما تكن النتائـج حتى وإن كانت حياته.

كان يجلس خلف مكتبه الذي يكتظ بالأوراق والملفات والجرائد والكتب في زحام شبه فوضوي، يكتب في إحدى مقالاته حتى رن جرس الهاتف المحمول:

- آلو...

- ... ...

- مين حضرتك؟

- ... ...

- أقابلك فين؟

- ... ...

- تمام دقايق وهاكون عندك.

ارتدى سامي جاكت البدلة واتخذ طريقه مسرعًا، بضع خطوات وكان سامي داخل الكافيتريا التي بجانب الجريدة.. ثم أمام ترابيزة يجلس رجل يبدو في الستينات من عمره والذي قام وقد تهلل وجه بالسعادة قائلاً:

- أهلاً أهلاً أستاذ سامي.

صافحه سامي بفتور وقد بدا عليه التعجب والدهشة من الرجل الذي لا يعرفه والترحاب المبالغ فيه الذي يلاقيه به ثم قال في هدوء :

- أنت مين؟؟

- طب اقعد الأول يا أستاذ.. تشرب إيه؟

أطلق سامي تنهيدة ثم نظر إليه مليًّا وقال:

- قهوة.

جلس الاثنان وطلب الرجل من الجارسون فنجاني قهوة ثم قال:

- شوف.. أنا هاخش في الموضوع على طول...

- قبل الموضوع أنت مين؟

- يا سيدي مش مهم اعتبرني مصباح علاء الدين.

حدق سامي فيه ولم يتكلم ليكمل الرجل:

- شوف يا أستاذ سامي أنت صحفي كبير وموهوب وليك قراء كتير... توقف الرجل عندما أتى الجارسون بالقهوة، ما إن غادر حتى بادر سامي قائلاً في حدة وقد بدأ ينزعج:

- أنت جايبني عشان تقول لي كده يا ريت تتكلم بدون مقدمات.

- صبرك يا أستاذ سامي كل اللي قلته ضروري لأن هو دا المطلوب.

- فيه إيه؟!

- قلت لى إيه رأيك لو تشتغل في جريدة كبيرة؟ ولو فتحت دماغك كويس ممكن بعد مدة قصيرة تبقى رئيس تحرير.

ابتسم سامي في سخرية ثم قال:

- كده مرة واحدة هي الجرايد الكبيرة اللي بتقول عليها مستنياني!

- فكر كويس.

- شوف يا حضرة أنت واللي باعتينك غلطتم في العنوان مش سامي اللي حد يشتريه.

- تقصد إيه؟

في حده وصرامة وحسم:

- قصدي تعرفه كويس أنا فاهم أنتم عاوزين إيه، على فكرة أنا عمري ما هغيّر مبادئي مهما حصل، وهافضل أكتب اللي يمليه عليا ضميري، وأيًا كان اللي بعتك يا ريت تفهم وتفهِّمه كده.

احتواهما صمت متوتر، وقد اربدّ وجه الرجل ثم أطلق تنهيدة، ورفع حاجبيه وهز رأسه ببطء، ثم قام وقال في هدوء مصطنع:

- إحنا بندي الفرصة مرة واحدة بس.

ثم غادر في خطوات متئدة بعد أن رمق سامي بنظرات ماكرة والذي ظل جالسًا وقد شرد يفكر فيما تخبئ له الأقدار.

*****

- نادر مش موجود؟

- آه.

- طيب تعالي عاوز أتكلم معاكِ.

جلست نادية تترقب الموضوع الذي يريد سعيد باشا أن يكلمها فيه ولا يريد نادر أن يعرفه، وقد بدأ القلق والاضطراب يتسربان إليها، عندما جلس سعيد باشا وأخذ يحدق فيها، ثم أشعل السيجار وأخذ نفسًا، وقال وهو يتكئ على مخارج الحروف وكأنه يلقي محاضرة على طفل صغير:

- إياكِ تفتكري إنك حاجة أو توهمي نفسك إن لا فيه قبلك ولا بعدك، إذا كنتِ حلوة فيه الأحلى منك وبيشتغلوا خدامين، لكن أعمل إيه ابني الوحيد تافه ومتعلق بيكِ.. على إيه مش عارف!

كان وقع الكلمات عليها كطلقات خارجة من فوهة بندقية آلية أصابت جميعها الهدف، حطم غرورها ونال من كبريائها واعتزازها بنفسها وهى التي تضع نفسها في برج عالٍ، لكن ما لبثت أن بلعت ريقها ورسمت ابتسامة صفراء على شفتيها، حيث تدرك أنها لو اصطدمت به فلن يكون هناك خاسر غيرها، حاولت أن تستعيد ثقتها وقالت في هدوء مصطنع:

- ليه يا بابا بتقول كده؟!

رمقها بنظرة نارية وأخذ يمرر أصبعه على طرف شاربه ثم قال:

- بابا! أنا مش قلت لك قبل كده تقولي لي يا باشا.

قاطعته نادية وهى لا تزال محتفظة بهدوئها كابتة غضبها:

- أحب أقول لك يا باشا أنا ونادر بنحب بعض وأنا عمري ما كنت أتمنى حد أحسن من نادر، وربنا يعلم أنا باحبه لذاته مش لحاجة تانية، لكن عاوزاك تعرف حاجة مهمة أنا كان بيتقدم لي شباب كتير ومنهم الغني يمكن يكون طبعًا مش زي نادر، لكنه غني وفيهم اللي كان بيشتغل في وظايف كويسة، لكن أنا اخترت نادر عشان إصراره ودفاعه عن حبنا.

عاد سعيد باشا بظهره للوراء ثم قال في هدوء:

- شوفي كل دا جميل لكن أنا مابكررش كلامي مرتين خلي بالك أنا صابر عليكِ ولو رصيدك نفد هيكون رد فعلي صعب جدًّا عليكِ.

- ليه حضرتك بتقول كده؟

كانت تلك الكلمات كافية بأن ينفعل قائلاً:

- مش عارفة ليه؟! طلباتك الكتير اللي ما بتنتهيش عمال على بطال والابتزاز، اوعي تفتكري إن نادر ممكن ياخد فلوس من غير ما أعرف، أي فلوس بياخدها بيكون عندي علم بيها، ومش كده وبس باكون عارف إنها عشانك أو هيجيب لك هدية، وعلى فكرة أنا الفلوس ماتهمنيش وآخر حاجة أفكر فيها، خاصةً لو كانت لابني اللي عملت دا كله عشانه، بس دا لازم يكون بمزاجي وأنا اللي أكون قررت، لسه ماتولدش اللي يبتزني أو ياخد حاجة مني من غير ما أكون سمحت بيها وراضي على إنه ياخدها.. فاهمة؟ ودا إنذار نهائي ليكِ.

كان هجومه مفاجئًا وقاسيًا حيث ألجم لسانها تمامًا وما كان منها إلا أن تعلن الطاعة حتى تهدئ من ثورته وترضي غروره ومن ثم يكون أمامها وقت كافٍ لتطور من أسلوبها.

هزت رأسها بالطاعة ثم قالت في صوت خافت:

- فاهمة.

أخذ نفسًا من السيجار وهو يحس بزهو وقد لمعت عيناه ثم قال:

- شاطرة.. تقدري تمشي تشوفي وراكِ إيه.

*****

نهض عم حامد كالعادة قبل أذان الفجر بوقت كافٍ، حتى يبكر في الذهاب إلى الجامع وأداء الصلاة كما اعتاد أن يفعل ذلك منذ وقت طويل، وكان لا يمنعه عن ذلك إلا "الشديد القوي" كما يقولون، حينما يكون مريضًا أو غير قادر تمامًا على الذهاب إلى الجامع، وذلك من الممكن أن يستمر أسبوعًا وربما عشرة أيام.

كان يشعر ببعض الإجهاد، لكن لا بأس ليس بالشيء الغريب عليه (كثيرًا ما كان يشعر بذلك) توضأ ثم أخذ يدعو: اللهم اغفر لي خطئي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير.

ما كاد يتم الدعاء حتى أحس بدوار غريب، ولوهلة شعر أن روحه تُسحب من جسده، حاول أن يسير باتجاه باب الشقة، لكن قبل أن يصل سقط على الأرض وكل شيء أخذ يتلاشى شيئًا فشيئًا.

*****

أخذ خالد نصيبه من الإرث ثم عاد إلى القاهرة، وقد استقر به الحال على أن يفتح مكتبه الخاص وكلف سمسارًا بالبحث عن مكتب في منطقة راقية، وتسنى له ذلك بعد أن أمضى وقتًا في البحث والتنقل بين عدة مكاتب لم تنل إعجابه، ليعثر على المكتب الذي يريده في مصر الجديدة، رغم إيجاره الغالي حيث كلف خالد كثيرًا، لكنه كان مقتنعًا بالمثل الذي يقول "الغالي ثمنه فيه" وأن المظاهر عامل مؤثر للغاية في النجاح، ولتكملة عوامل النجاح أتى بسكرتيرة جميلة "حسنة المظهر" أما العامل الأهم لنجاح أي محامي القضايا، ها هو في انتظار الفرصة ولن يفلتها حينما تأتي.

قرر أن يمضي آخر يوم له في الحجرة ثم يأخذ أغراضه ومتعلقاته ويودع عم حامد الذي لم يره منذ وقت، وأخيرًا يودع سميرة وفكر كثيرًا في رد فعلها حينما يخبرها بأنه سيرحل.

أخذ يصافح كل من في الشارع، من أصحاب المحلات وبعض قاطنيه الذين على علاقة جيدة به، كذلك المعلم أبو النواس صاحب المقهى الذي يعتبر من المقربين لديه ولطالما جلس في المقهى عنده يشاهد التلفاز.

صعد إلى الحجرة في خطى سريعة ثم غير ملابسه، وقرر أن ينام بعض الوقت بعد يوم طويل شاق انقضى في تجهيز المكتب، وبعد أن يستيقظ يجمع أغراضه ثم يودع عم حامد وسميرة.

ألقى بنفسه على السرير وراح يفكر في مستقبله، وشيئًا فشيئًا أغمضت عيناه ولم يكن يمضي إلا قليلاً، كان لا يزال بين اليقظة والنوم، أحس بطرق خفيف على الباب وصوت هامس يناديه، لوهلة شعر بأنه في حلم لكن الطرق استمر.

نهض يفتح الباب وهو لا يزال مغمض العينين، أخذ يفتح ويغمض فيهما حتى استيقظ تمامًا ليظل واجمًا لحظات عندما رأى سميرة أمامه وهى تقول في صوت هامس رقيق:

- عاوزة أتكلم معاك.

أطال خالد النظر إليها ثم مسح على شعره وفرك عينيه وبلع ريقه ثم قال:

- أنا تعبان جدًّا يا سميرة وعاوز أنام ساعة عشان ورايا حاجات كتير .

لم تعر كلامه اهتمامًا وقد حاولت أن تدخل وهى تداعب أنفه بيدها قائلة: مش هاعطلك.

في خشونة قال:

- باقولك عاوز أنام.

وضعت يدها على صدره وهى تقول بصوت لاهث متهدج:

- وحشتني أوي يا حبيبي.

أبعد يدها متحاشيًا النظر إليها وقال في لهجة قاسية صارمة وقد بدأ يفقد أعصابه:

- أنتِ ليه مش عاوزة تفهمي إن العلاقة يبنا خلاص بح أنا راجع مهدود ومش فاضي لأى حاجة تانية.

- إيه! بتقول إيه؟! علاقتنا انتهت أنا باحبك وماقدرش استغنى عنك أنا محتاجه لك.

أشاح بوجهه عنها وأطلق تنهيدة ثم قال في هدوء محاولاً كبت غضبه:

- لأ باقولك انتهت ولازم تعرفي تستغني عني أنا خلاص مابقتش انفعك ودا آخر كلام عندي إحنا قضينا مع بعض وقت حلو لكن كفاية لحد كدا.

- طيب يا حبيبي أنت تعبان دلوقتي ممكن نتقابل في أي يوم تاني وقت ما تحب أنت لكن علشان خاطري ماتسبنيش.

جاهد نفسه حتى يحتفظ بهدوئه وعلى قدر الإمكان حاول أن يخفض صوته حتى لا يسمعه أحد:

- أنتِ مش عاوزة تفهمي أنا بافكر في مستقبلي وبس، لازم أنتبه لشغلي وبعد إذنك عشان عاوز أنام.

أغلق الباب وهي لا تزال تقف محدقة في ذهول وحزن وغضب.

*****

(8)

كانت سحر في بداية إقامتها بالفيلا تضع حواجز بينها وبين صبحي الحارس الذي يقيم بصفة دائمة في حجرة صغيرة في حديقة الفيلا، حيث إنها لم تكن تشعر بوجود رجل معها في الفيلا، ربما لأنه حارس وهى صارت في وضع أعلى بكثير من أن تنظر لحارس، أو قد يكون لخوفها من بطش سعيد باشا الذي بالفعل حدد إقامتها داخل الفيلا فقط، حيث كان ممنوعًا عليها الخروج أو حتى التنزه في الحديقة واقتصر ذلك على وجوده معها، وهي في الغالب لا تحتاج لشيء لأن كل ما يمكن أن تحتاج إليه كان يوجد في الفيلا بل وأكثر مما تريد، إذن لا يوجد أي مجال يدعو للتعامل المباشر مع صبحي ومن المحتمل أن يكون سعيد باشا فعل ذلك عن عمد.

كان وجود صبحي بالنسبة إليها مثل أي جماد يوجد داخل أو خارج الفيلا، حتى جاء ذلك اليوم حينما حدث خلل في قنوات الدش ولجأت إليه سحر لإعادة ضبطه ولأول مرة تمعن النظر إليه، فوجدته شابًّا يافعًا قويًّا بوجهه الأبيض وعينيه المسبلة وقد لمست فيهما الرغبة الجارفة، وأخيرًا شعرت بوجوده بل إنه صار محط أنظارها في معظم الأوقات، وقد صارت تقف خلف شيش النافذة تراقبه، حين

يجلس على الكرسي بالنهار أمام حمام السباحة يحتسي الشاى وبين الحين والآخر يختلس النظرات إلى البلكونة، وأحيانًا يثبت عينيه عليها كأنه في انتظار أن تطل منها، وكان عليها أن تقدم هي على اتخاذ الخطوة الأولى لكي تشجعه، لأنها أيقنت أنه من المستحيل أن يتخذ هو تلك الخطوة.

تزينت ثم ارتدت قميص نوم قصيرًا عليه روب شفاف جدًّا، وعلى ضوء القمر أخذت تتحسس طريقها إليه. كان صبحي جالسًا وقد وضع براد الشاى على النار التي يشعلها عن طريق حرق بعض قطع الأخشاب الصغيرة وهى الطريقة المفضلة لديه لعمل الشاى، حتى رآها قادمة في خطوات رشيقة وجسدها يشع نورًا وسط الظلام وشعرها يتطاير خلفها كخيوط من الحرير، أخذت تقترب منه وقد ازداد خفقان قلبه وعيناه تكاد تقفز من مقلتيها من شدة تحديقه، حتى أصبحت أمامه بلع ريقه فى صعوبة وأخذ يفتح ويغمض عينيه وكأنه في حلم وقد فاض بالعرق من الحرارة التي تسري في جسده، ظل هذا الوضع لحظات هي واقفة وهو يحدق وكل منهما ينتظر أن يبدأ الآخر بالكلام، لتقول سحر في هدوء وهى تبتسم ابتسامة خفيفة:

- ممكن أعزم نفسي على كباية شاي؟

*****

كان الشيخ مهدي بين الحين والآخر يعطي أحد الكتب لهاشم وسيد يدرسانه ثم يناقشهما فيه، وكانت معظم الكتب تحتوي على فكر معين يريد الشيخ أن يرسخه فيهما.

وكانا على موعد للقائه بعد صلاة العشاء، حيث دخلا عليه وقد تهلل وجهه مرحبًا:

- أهلاً.. أهلاً بالشباب.

صافحاه وقال الشيخ:

- كيف حالكما يا ولديّ؟

- الحمد لله يا مولانا.

- بماذا خرجتما من الكتاب؟

نظر الاثنان إلى بعضهما كأنهما يتفقان على من يتولى الرد ثم قال هاشم:

- والله يا مولانا كتاب قيِّم جدًّا ولو الناس عملت بيه كان حالها بقى أحسن وكمان حال الأمة الإسلامية.

هز الشيخ مهدي رأسه ثم قال:

- وأنت يا سيد ما قولك؟

- زي ما قال هاشم.. فعلاً الناس بعدت عن الدين.

صمت الشيخ مهدي قليلاً ثم قال:

- بارك الله فيكما هذا صحيح إن الناس باعت الآخرة بثمن بخس، وصار كل همها الجري خلف متع الدنيا الزائلة وجمع وتكنيز

المال، وفي سبيل ذلك ساد المجتمع قيم وأخلاق بعيدة أشد البعد عن تعاليم الدين مثل النفاق والتدليس والتزوير والرشوة بديلاً عن الأخلاقيات السامية التي حثنا عليها الإسلام، دولة الإسلام كانت قوية مزدهرة ممتدة الأطراف عندما التزمت بشرع الله، حينها حكم المسلمون الأوائل العالم وعندما تغلغل حب الدنيا في قلوب الناس، ضعفت الدولة ووهنت وبدأت في التفكك والانهيار والتشرذم وطرأت مفاهيم غريبة وميعت الحقائق وبدلاً أن نربي أبناءنا على مفاهيم الدين الصحيحة وحب الجهاد، بعض الأفاقين والمنافقين والمغرضين زكُّوا لديهم مفاهيم الاستسلام والخنوع والجهاد بالمال الذي أصبح بديلاً عن الجهاد بالنفس، وكأن المال هو من سيدافع عنا والفقير طبعًا عندهم لا يمكن أن ينال حسنات الجهاد، حتى الجهاد ميزوا فيه بين الفقير والغني، وما يحدث للناس من رهبة وفزع والرعشة التي تسيطر عليهم حين يُذكر الجهاد، نتيجة طبيعية لتلك التنشئة والمفاهيم، وأصبح كل واحد يظن أنه الناجي الوحيد وزادت لهفة الناس على الدنيا، حتى صارت الأمة الإسلامية حالها يصعب على أعدائها.

أطلق تنهيدة حارة وقد علت نبرة صوته ثم استطرد:

– إياك يا ولدى أن ترهب إنسانًا على وجه الأرض، لمظهر أو منصب أو مال لأنه في النهاية بشر ومآل البشر مهما تعظم وتجبر إلى جيفه نتنة، ليت الناس تعلم وتتعظ من الموت أن تتقي الله حق

تقاته وتعمل لآخرتها، فمهما طال عمر الإنسان فلن يزيد عن سبعين عامًا أو حتى مائة عام تلك الأعوام تمر على الزمن الطويل كاللحظات، وليجزم أحد أنه لن يموت حينها أقول له افعل ما شئت لكن كما قال الله عز وجل (كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام).

كان هاشم وسيد ينصتان باهتمام وقد بدا عليهما التأثر الشديد، طلب الشيخ مهدي من هاشم أن يعد لهما مشروب حبة البركة، وبعد أن أتى به جلس وقد خيم الصمت لبعض الوقت، حتى أخذ الشيخ مهدي رشفة ثم اعتدل في جلسته ولمعت عيناه وتنحنح وكأنه على وشك أن يقول شيئًا خطيرًا.

****

بعد أن صد خالد سميرة وردها خائبة، وكان شديد القسوة عليها صار في حكم المؤكد أنها ستقابل ما فعله بكيدٍ عظيم، حيث تمتلك من الحيل والمكائد ما لم يخطر على باله، كما تمتلك اللسان الطويل المؤذي الذي تستطيع به أن ترد حيًّا بأكمله خائبين نادمين، إن فكروا في الاحتكاك بها وقد رأى ذلك بأم عينيه، حينما كانت تتشاجر مع نساء الشارع، ورغم أنها عكننت عليه وأربكت تفكيره حمد الله على أنه سوف يغادر تلك الحجرة إلى مكان آخر أكثر هدوءًا ورقيًّا، ولن يعود إليها مطلقًا ولتمضِ به الحياة بعيدًا عنها وعما يمكن أن تضمره له، ويفكر في مستقبله القادم فقد حان وقت العمل.

جمع ملابسه ومتعلقاته في ثلاث حقائب وأعد كل شيء لكي يغادر ولم يتبقَ إلا أن يودع عم حامد والشارع والحي الذي أمضى بهما سنوات لم تكن جميلة لكنها أيضًا لم تكن سيئة.

أخذ يطرق باب شقة عم حامد برفق، عندما لم يستجب زاد من حدة الطرق لكن لم يكن هناك مجيب تسرب إليه القلق، وأخذ يحدث نفسه (رُحت فين يا عم حامد مش من عادتك تخرج في الوقت دا) وهمّ ليغادر... لكن شيئًا ما جعله يتوقف ويلتفت للخلف وكأنه تذكر شيئًا، ألصق خده بالباب وقد بدا له وجود رائحة غريبة تنبعث من الشقة. انتابته حالة من الوجوم والاضطراب، هرول مسرعًا يسأل من في الشارع عن عم حامد الذين أجمعوا على أنهم لم يروه منذ أسبوع، وقال الحاج عبده الترزي الذي يصلي الفجر بصحبته إنه لم يره منذ وقت، وقد ظن أنه سافر إلى أحد أقاربه.

دلف خالد في صحبة المعلم أبو النواس والحج عبده وبالفعل تأكدوا من وجود تلك الرائحة الغريبة التي تنبعث من الشقة، اقترح المعلم أبو النواس كسر الباب ولكن خالد نهاهم عن ذلك طالبًا أن يتم ذلك بمعرفة الشرطة.

اتصل خالد بالنجدة وقد تجمهر قاطنو الشارع من رجال وشباب ونساء وأطفال أمام منزل عم حامد، حتى وصلت سيارة النجدة ليخبر خالد الضابط بما يساورهم من شك، حيث إن عم حامد متغيب منذ أكثر من يوم كذلك وجود رائحة تنبعث من الشقة، وبالفعل اقترب

الضابط ولاحظ وجود تلك الرائحة وعلى الفور أمر أحد العساكر بكسر الباب.

كان الأمر أقسى مما ظن الجميع، حيث كان عم حامد مسجى على الأرض وبدت جثته في حالة تعفن وتحلل تام، وضع الجميع أيديهم على أنوفهم وراح البعض في نوبة سعال ثم خرجوا مسرعين.

قال الضابط:

– واضح أنه مات من أكتر من يوم.

أخذ الجميع يضربون كفًّا بكف ويمصمصون الشفاه متبادلين الهمهمات والهمسات وعلا الحزن وجوههم ترحمًا على هذا الرجل الطيب الذي لم يروا منه إلا كل خير مرددين: لا حول الله.. لا حول ولا قوة إلا بالله. لكن الضابط وبخهم قائلاً:

– لما انتم زعلانين عليه كدا كنتم فين لما جثته عفنت؟! نظروا جميعًا في الأرض وقد جاء كلام الضابط على الجرح تمامًا وقد شعروا حقًّا بأنهم مقصرون.

تم تغطية الجثة بمفرش كبير في انتظار سيارة الإسعاف كما اتصل المعلم أبو النواس بأقاربه.

جاءت سيارة الإسعاف بعد وقت ليس بالقليل، وقد زاد التجمهر والهمهمات، وما هي إلا لحظات حتى خرج رجال الإسعاف يحملون النقالة وعليها جثة عم حامد مغطاة بالمفرش وقد أخذوا يشقون طريقهم بين الزحام، وقبل أن يغادروا كان إخوته قد حضروا وهم

يصطنعون الحزن، لكن لم يستطيعوا أن يخفوا تلك النظرات الخبيثة الوقحة التي في أعينهم، وقد استفزوا جميع جيرانه الذين لاحقوهم باللعنات.

صعد خالد إلى الحجرة وحمل حقائبه مودعًا المنزل كما ودع عم حامد الذي انطلقت به سيارة الإسعاف مغادرة الشارع، الذي ازدحم بالناس وسرعان ما أخذ يخف شيئًا فشيئًا حتى صار الوضع كما كان، وعادت الحياة إلى ما هي عليه وعاد الناس إلى ما هم في .

*****

- تعرف إن دي أحلى كباية شاي شربتها في حياتي؟
- ألف هنا أصل أنا ليه طريقة في عمل الشاى إنما حكاية.
- واضح بس على كده أنا هادمن الشاي بتاعك يا صبحي.
- أنتِ تأمري وأنا أعمل لك كل يوم براد شاى يا مدام سحر.
- بلاش مدام.. كفاية سحر.

كان الاثنان قد جلسا متجاورين كل منهما على كرسي وأمامهما النار التي أضفت جوًّا من الدفء على المكان.

- أنت بتشتغل عند الباشا من زمان؟

نظر لها لحظات وكلما التقت أعينهما خفق قلبه بشدة، حتى كاد يقفز من بين ضلوعه، لكن سريعًا ما يعاود ويعلق نظره على النار وهى تزداد وهجًا كلما هبت عليها نسمة هواء.. ثم قال:

– أنا باشتغل عند الباشا من خمس سنين اتنقلت فيهم بين حراسة القصر للفيلا اللي في الساحل الشمالي لحراسة الموكب بتاعه، يعني لحد ما أصبحت من أهم أفراد الحراسة عنده.

– طيب وأنت مبسوط في الشغل عنده؟

هز رأسه:

– يعني...

– يعني إيه؟

– ومين مبسوط في الشغل اللي هو فيه.

– تقصد إيه؟

– في مصر من النادر تلاقي حد عاجبه الشغل اللي هو فيه، يعني إما كان عاوز يشتغل حاجة ومعرفش فاضطر يشتغل أي حاجة، ولما يكون بيحب الشغل اللي هو فيه لكن المرتب اللي بياخده أقل كثير من المجهود اللي بيبذله، فيكون متعكنن أو يكون المرتب كويس والشغل عاجبه لكن المدير مطهق عيشته.

ابتسمت سحر ثم ضحكت بينما هو استطرد:

– أنا بقى يا ستي كان عندي طموح كبير لكن فضلت قاعد مستني الطموح لحد ما كنت هاخلل فاضطريت أشتغل حارس.

– أنت معاك شهادة إيه؟

– ليسانس آداب من عشر سنين.

– ياه وماتعينتش؟

قهقه صبحي ثم قام وأمسك ببعض قطع الخشب ورماها في القصعة لتقول سحر:

– إيه.. بتضحك ليه؟

– آسف بس عارفة دا اللي بيقوله عليه شر البلية ما يضحك، تعيين إيه هو فيه حد بيتعين في البلد دي إلا بالواسطة وحتى لو اتعين المرتب اللي هايخده مايكفيش مواصلاته على الشغل.

ساد الصمت لحظات، كان صبحي ما زال يتحاشى النظر إليها وبين الحين والآخر يخطف نظرة سريعة ثم يوجه عينيه للنار أو الأرض أو النجوم في السماء، أما هي فكانت تدقق النظر إليه وكأنه بضاعة تفحصها جيدًا قبل شرائها.

– لكن ليه مش مبسوط في شغلك؟

– أنا مش مبسوط في حاجات كتير، يعني كان نفسي أدخل كلية الإعلام ومكتب التنسيق وداني كلية الآداب، كان نفسي في حاجات كتير غير إني أكون حارس لكن الحمد لله محدش بياخد أكتر من نصيبه.

أطالت النظر إلى عينيه ثم قالت:

– ممكن أسألك سؤال؟

نظر لها سريعًا ثم قال:

– اتفضلي

– أنت ليه بتبعد عينك لما بتيجي في عيني؟

احتواهما صمت مرتبك ثم رفع رأسه وحدق فيها، وبدا له أن حرارة جسده أصبحت أسخن من حرارة النار وتدفق الدم في عروقه ورغبته فيها تكاد تمزق أحشاءه، وهى تنظر إليه والابتسامة على شفتيها الحمراوين الطريتين وتتمنى أن تذوب بين أضلعه ثم قالت في صوت خافت:

- أوضتك فيها سرير؟

هز رأسه ببطء ثم اقترب منها وأمسك يدها بين يديه وأخذ يقبلها ببطء، إلى أن أطبق شفتيه على شفتيها في قبلة طويلة حارة ثم حملها على يديه ودفع باب الحجرة برجله في قوة وألقى بها على السرير.

*****

أقبلت الدنيا على خالد فاتحة ذراعيها، حيث صار المكتب يعمل بكفاءة ويستقبل العديد من القضايا، وذاع صيت خالد عبد الرحمن المحامي، وطرأ على أثر ذلك تحسن واضح وملحوظ في النواحي المادية والشكلية، حيث اشترى سيارة حديثة وشقة فاخرة في ستة أكتوبر بعد أن كان ينام في المكتب.

كل ذلك كان لا يمكن أن يحدث بهذه السرعة، إلا إذا أصبح نموذجًا من أستاذه رفعت نصير، الذي تعلم على يديه وحذا حذوه، وقضى تمامًا على الشعرة الباقية من أخلاقه، ومن ثم الترافع في قضايا المخدرات والسلاح والدعارة، لكن هل هذا كافٍ؟ أبدًا بل أخذ

في التوسع أفقيًا ورأسيًا، بما أن المحاماة قد حققت له بجانب الربح المادي (الذي لم يرضِه) الشهرة وكانت عاملاً أساسيًّا في تكوين شبكة هائلة من العلاقات وهو الأهم بالنسبة إليه، أما الجانب المادي الذي بالقطع لم يرضِه أو يرضِ غروره ويكبح جماحه.

وجد ضالته في تجارة السلاح التي تعد أسرع الوسائل لجلب المال وتضخم الثروة، الخطوة التي ندم على أنه لم يقدم عليها منذ زمن، خاصة وأنه على دراية كاملة ومعرفة تامة بمعظم تجار السلاح في الصعيد، وها هو يأخذ طريقه إلى قرية شطورة بحضن الجبل في صعيد مصر متجهًا إلى منزل المعلم جابر التهامي، أكبر تجار سلاح (قد سبق لخالد أن ترافع عنه في إحدى القضايا وإخراجه براءة من تهمة تكاد تكون ثابتة عليه) بعد شروق الشمس بوقت قليل توقفت سيارة خالد أمام منزل المعلم جابر، منزل شاسع محاط بسور مرتفع مبني من الحجر، عندما اجتاز خالد البوابة الرئيسية تعذر عليه رؤية المنزل من النخل المنتشر بكثافة، بالإضافة إلى أفراد الحراسة المدججين بالبنادق الآلية، رجال صعايدة أشداء كالصخر يقفون في شموخ بجلابيبهم الواسعة وعممهم الكبيرة، كالأسود المتحفزة التي تحرس عرينها من أي خطر، كذلك الكلاب الشرسة التي تتأهب للانقضاض في أي وقت إذا لزم الأمر.

دخل خالد في هدوء وتؤدة خلف اثنين من الحراسة، وعندما اقترب من المنزل أخذ ينظر إليه ليجده أشبه بالمنازل الأثرية بطرازه الإسلامي والمشربيات البديعة التي تلف أركانه.

جلس خالد على الدكة (تشبه الكنبة لكنها أعرض ولها سنادة للظهر) في الشرفة التي بجانب المدخل وقال المعلم جابر بعد أن شد نفسًا من الشيشة:

- يا مرحب يا أستاذ خالد.

- ازيك يا معلم؟

- ازيك انت يا أستاذنا؟

- الحمد لله يا معلم.

- الفطور يا ولد.

ابتسم خالد وراح يمسح على جبهته بيده ثم قال:

- مالوش لزوم يا معلم.

نظر له المعلم جابر ثم قال معاتبًا:

- مالوش لزوم ازاى يا أستاذ خبر إيه دا انت راجل صعيدي وتعرف الأصول.

شعر خالد بالحرج وقال مبتسمًا:

- أنا أقصد إني فطرت في الطريق.

- يا راجل هو أكل الطريق دا أكل.

دقائق قليلة وكان الإفطار المكون من البيض المقلي بالسمن البلدي وجبنة قريش وقشطة وعسل نحل وفطير، كل ذلك وضع على صينية صاج كبيرة وقد وضعت على الترابيزة التي أمامهما.

بعد أن تناولا الإفطار أتى براد الشاى الصعيدي الحبر، أخذ خالد رشفة شاي وبدا مترددًا بعض الشيء ثم قال:

- شوف يا معلم أنا عاوز منك خدمة.

باهتمام وترحاب قال المعلم جابر:

- أنت تأمر يا أستاذ خالد دا أنت أفضالك عليا يا راجل هو أنا هانسى إنك طلعتني براءة بعد ما اتقبض عليا وأنا في إسكندرية بالسلاح.

- الله يخليك يا معلم دا برده العشم، أنت عارف إن المحاماة مهما الواحد كسب منها في النهاية مكسبها ضعيف، والزمن بقى صعب والواحد عاوز يعمل قرشين (كان المعلم جابر يسمع باهتمام وقد توجس ما يريده خالد) عشان كده أنا قررت أتاجر في السلاح أهي حاجة الواحد يتعكز عليها.

صمت المعلم جابر وأخذ يبرم طرف شاربه ثم قال:

- لكن يا أستاذ خالد دي شغلانة خطرة قوي.

كان الرد يعكس موافقة المعلم جابر، لذلك قال خالد في حماس وكأنه ينتظر ما قاله:

– أنا عارف لكن البركة فيك يا معلم وعشان كده أنا ما رُحتش لحد غريب.

عاد المعلم جابر برأسه إلى الوراء مفكرًا بعمق ثم قال ببطء:

– لكن أنت عندك زباين يا أستاذ؟

– كتير يا معلم.

هز المعلم رأسه وربت على ركبة خالد ثم قال:

– وأنا أدها يا أستاذ خالد شوف أنت إيه يلزمك وأنا عنيا ليك.

ابتسم خالد وقد انبسطت أساريره وهو يقول:

– هو دا العشم يا معلم.

*****

داخل بلكونة صغيرة وقديمة يقف الأستاذ فهمي عبد الحميد رئيس مجلس إدراة جريدة الرأي الحر، وقد أخذ ينظر باهتمام بالغ وضيق شديد للشارع المكدس تمامًا بالسيارات المتراصة حيث بدت كأنها كتلة واحدة، وإلى المارة الذين ينفذون في صعوبة من الفراغات الضيقة التي تركت لهم سواء بين السيارات أو من الرصيف الذي اكتظ بكافة أنواع البضائع المعروضة، التي وضعها أصحاب المحلات غير مبالين بأي شيء تاركين المحلات شبه خاوية.

سمع طرقًا على الباب، وهو ما زال ينظر قال:

– ادخل.

دخل سامي وقال مداعبًا:

- إيه يا أستاذ فهمي أنت لسه متضايق من الزحمة اللي تحت؟!

في آلية ودون أن يتحرك:

- دي العملية وقفت خالص لا العربيات عارفة تتحرك ولا الناس.

قال سامي ساخرًا:

- حياتنا كلها بقت واقفة.

لف الأستاذ فهمي ثم جلس خلف مكتبه وسامي أمامه الذي قال:

- إنما كنت عاوزني في إيه يا أستاذ فهمي؟

- خير إن شاء الله يا سامي أنا قررت إنك تكون رئيس تحرير الجريدة.

فوجئ سامي بالقرار لكن لم يبدِ أيه ردة فعل وقال:

- طب ويوسف؟!

تنهد الأستاذ فهمي ثم قال:

- يوسف مسافر.

- على فين؟

- بيقول لندن.

صمت سامي قليلاً حتى قال الأستاذ فهمي:

- إيه يا سامي؟

- مفيش لكن ليه اخترتني أنا مع إن في زملاء أكبر وأقدم مني؟

- شوف يا سامي إذا كان على الكفاءة أنت أكفأ واحد وزي ما أنت عارف أهم حاجة عندي الشغل وأنت هتقدر تتطور الجورنال ودا اللي أنا عاوزه.

ابتسم سامي وقال:

- متشكر على الثقة دي يا أستاذ فهمي.

ابتسم الأستاذ فهمى واضطجع ثم قال:

- أنت عارف إنك بكده هتكون أصغر رئيس تحرير في مصر!

*****

أمام قصر سعيد باشا في المعادي استقر موكب المعلم عوض البيومي، المكون من ثلاث سيارات متنوعة، في لحظات نزل المعلم عوض وسط حشد من رجاله وكان ماهر على باب القصر الذي استقبله مرحبًا:

- أهلاً معلم عوض.

رمقه عوض البيومي بنظرة غاضبة لكن ماهر امتصها سريعًا بابتسامة وقال مداعبًا:

- والله يا معلم لو كنا نعرف إنك هتشرفنا كنا فرشنا الأرض...

قاطعه ساخرًا:

- إيه رمل؟!

- لا يا باشا رمل إيه حرير.

- عليا أنا الكلام دا.. يعني الباشا بتاعك معرفكش إني جاي؟

دلف الاثنان إلى داخل الفيلا، عوض البيومي بجسده القصير السمين مرتديًا البدلة وعليها بالطو بيج وماهر الذي بدا عملاقًا إلى جواره.

كان سعيد باشا جالسًا مضطجعًا خلف مكتبه لكنه سريعًا ما وقف مرحبًا بالمعلم عوض البيومي عند دخوله وقال:

– ازيك يا معلم وحشتني يا راجل.

جلس المعلم عوض والشرر يتطاير من عينيه قائلاً في انفعال وحدة:

– أنت مش ناوي تجيبها لبر يا سعيد؟

ابتسم سعيد باشا وأخذ يلف بالكرسي وقال في هدوء متناهٍ:

– ليه بس يا معلم!

– يعني مش عارف ليه؟

– أعطى له سعيد باشا سيجارًا ثم قال:

– هدي أعصابك يا معلم تشرب معايا كاس؟

– أنت كمان بتهزر.

– أنا عاوزك بس تروق علشان أعصابك.

– مالكش دعوة بأعصابي.

أشعل المعلم عوض السيجار وأخذ نفسًا ثم نفخه بغل ومرر يده على شعره وقال:

- شوف يا سعيد الصفقة اللي أنت اتفقت عليهاماينفعش تاكلها لوحدك وكل المعلمين يتفرجوا عليك.. كده تزور.

ابتسم سعيد باشا في تهكم ثم قال:

- أنا لا يمكن أزور.

- اسمع كلامي ومتنساش إن أنا من أسباب دخولك الكار.

- وأنا مش ناسي.

- طيب أنا مش هاقولك تاخد الربع أنت التلت وأنا التلت وحمدين وعز الرجال والأسيوطي التلت كده قسمة العدل.

ابتسم سعيد باشا ثم قهقه لعدة ثواني ليتوقف فجأة ويقول في حدة:

- تلت إيه؟! بقى الصفقة كلها في إيدي وآخد التلت.

ضرب المعلم عوض بيده على المكتب ثم قال:

- أنت كده بتلعب بالنار.

أخذ سعيد باشا نفسًا عميقًا ثم نفخ الدخان عاليًا وقال في هدوء:

- أنا لعبت بحاجات كثيرة نجرب اللعب بالنار.

- اوعى تفتكر إن حد ممكن يسكت لك أنت لسه صغير أوى على كده.

- أنا قلت اللي عندي.

- لكن أقدر أعرف هتجيب السيولة دي كلها منين؟

- دا كلام يا معلم.. من البنك وحبايبنا كتير.

- دا آخر كلام عندك يا سعيد؟

هز رأسه ببطء قائلاً:

- آه.. تقدر تقول دا آخر كلام عندي.

قام المعلم عوض في انفعال وتوتر شديد، وقد أشاح البالطو ومشى بخطوات سريعة ثم أزاح بيده ضلفتا الباب بقوة ليرتجا وراءه في عنف.

*****

لكن لماذا أختار صبحي وسحر أن تتم لقاءاتهما في الحجرة الصغيرة ذات الإمكانيات المتواضعة في كل شيء؟ تاركين الفيلا وما تحويه من مظاهر الترف والرفاهية! ربما يكون ذلك لسببين: أولهما وهو الأهم كون وجود الحجرة بالقرب من الباب الرئيسي للحديقة، وهما بذلك يكونان أكثر أمنًا إذا طب عليهما سعيد باشا فجأة (من الوارد جدًّا) أو أي أحد آخر، حيث يتباطأ هو في فتح الباب متعللاً بأي شيء بينما تكون سحر تمكنت من دخول الفيلا، أما السبب الثاني: فسبب نفسي نظرًا لطبيعة نشأة كليهما في بيئة فقيرة لذلك يجدان متعة أكثر في مثل تلك الأجواء والإحساس بالآخر كما هو دون تكلف.

وهي بين أحضانه حيث ارتوت أكثر من مرة من نهر حبه وقد عادت للتألق مرة أخرى بعد أن ذَبُلت خلال الفترة الماضية، حتى أن

سعيد باشا أبدى اندهاشه من ذلك التغيير لكنها أقنعته أنها حقًّا أحبته وتشعر بالسعادة.

قبلته في صدره ثم قالت في صوت خافت:

- أنت محبتش قبل كده يا صبحي؟

ابتسم في مرارة وقال ساخرًا:

- أبقى كداب لو قلتلك إنى ماحبتش.

- طب ماتجوزتهاش ليه؟

تنهد وقال:

- عارفة يا سحر الجواز في مصر أصبح بالنسبة لكتير من الشباب، حلم زي حلم العلماء إنهم يوصلوا للنجوم، عندك مثلاً لو فكر شاب فقير إنه يتجوز أول حاجة تقابله إنه يكون عايز شقة، سكن آدمي مش بدروم لا بتدخله شمس ولا هوا أقل شقة تمليك شبه كويسة بتعدي ميه وخمسين ألف جنيه ويمكن أكثر، ولو افترضنا إنه يأجر إيجار جديد بيكون إيجار محدد بسنة أو اثنين والشهر خمسمية جنيه طيب هيكون مرتبه كام عشان يدفع مبلغ زي دا! غير الميه والنور وبعد ما ينتهي العقد صاحب البيت يبتزه عشان يأجرها بقيمة أعلى، يعني الواحد يقبل بزيادة الإيجار أو يتمرمط بحاجته في الشارع، وكل دا لو عرف الشاب يتجوز أصلاً لأن أكيد المرتب اللي بياخده من صاحب أي عمل بالكاد يكفي مصاريف، ويكون طول مدة شغله تحت رحمته، يعني لا يعرف

يحوش منه ولا حاجة.. يبقى يقدر يتجوز ازاى؟ والحاجة اللي تفطس من الضحك إنهم يقولوا إيه سبب العنوسة أو إن الشغل كتير في البلد والشباب هو اللي مش عايز يشتغل دا الشباب طهق على الآخر.

هزت رأسها قائلة:

– كلامك صح.

– مشكلتنا يا سحر إن كل واحد بيفكر في نفسه بس، لحد ما أصبح الفساد هيغرقنا، واحد زي سعيد حرامي وبيتاجر في المخدرات، لكن شوفي كام واحد شغال عنده والفلوس والعز والسلطة اللي يمتلكها، والعكس.. الشريف في البلد مش لاقي ياكل أو يتعالج ويعلم أولاده كويس.

كانت سحر تنصت له باهتمام لكنها دهشت من كلامه عن سعيد باشا حيث إنها لم تكن تعلم أنه يتاجر في المخدرات.

قالت في دهشة:

– هو سعيد بيتاجر في المخدرات؟

– أنتِ ماتعرفيش؟

– لا...

– أنتِ طيبة أوي اللي عنده كل العز دا وغير الفلوس اللي في البنوك كل دا من حلال، إيه الشغل الحلال اللي بيشتغله؟! دا أكبر تاجر مخدرات.

قام بنصفه العلوي وأشعل سيجارة، وكان الاثنان قد ارتديا ملابسهما كاملة وقد اعتادا ذلك عقب ممارسة الحب حتى يكونا على استعداد لأي طارئ.

أخذت تملس على شعره وهى تقول:

- لكن أنت اشتغلت عنده ليه وأنت عارف أنه كده؟

- أعمل إيه يعني أموت من الجوع؟ ماهو مفيش شغل وإيه عرفني إن لو سبت الشغل عنده هاشتغل عند حد شريف، ما يمكن يكون أمرّ منه يا ستي لكن أنتِ...

صمت وقد بدا مترددًا، باعد عينه عنها لتضع يدها على خده وتلتقي عيناهما وتقول:

- لكن أنا إيه؟

- أنتِ ليه قبلتي تتجوزيه؟

أشاحت بوجهها عنه وصمتت قليلاً ثم قالت بحرقة في صوت خافت:

- أنا مش متجوزاه.

حدق فيها في دهشة قائلاً:

- ازاى؟

يعني عايشة معاه كده.

هزت رأسها واغرورقت عيناها بالدموع واستطردت:

- أنا عايشة معاه غصب عني خدني بالعافية.

أخذ يجز على أسنانه واحمرَّت عيناه وهو يقول في غضب مكبوت:

- دا راجل ابن كلب.

في سخرية:

- يا ريت كان راجل.

- يعني إيه؟

- يعني شاذ قذر.

ربت على ظهرها ثم قال:

- لكن ممكن أعرف فين أهلك وحكايتك إيه؟

صمتت كثيرًا وطويلاً أخذت تسترجع الماضي وقد سالت دموعها وأطالت النظر إليه ثم قالت:...

*****

أخذ الشيخ مهدي رشفة حبة البركة واعتدل في جلسته ولمعت عيناه ثم تنحنح وقال:

- علشان كده يا أولادي ربنا يعلم مقداركما عندي وأنا مبسوط بكما وبحماسكما لنصرة الدين، وهذا ما جعلني أختاركما من بين عدة شبان لشيء مهم...

صمت قليلاً ونظر إلى كليهما كأنه ينتظر ردة فعلهما وبالفعل لم يخيبا ظنه فقد تهللت أساريرهما وقالا في صوت واحد:

- خير يا مولانا.

– خير إن شاء الله... اخترتكما لكي تسافرا إلى العراق.

لوهلة ظهرت عليهما الدهشة التي تحولت إلى سعادة وقبل أن يتكلما استطرد:

– أنا اخترتكما لسببين، الأول: طبعًا أنتما هنا تعملان لكن هناك إن شاء الله يكون مكسبكما أضعاف من اللي هنا، أما السبب الثاني: هو الأهم أن لكما إخوة في العراق محتاجين مساعدتكما لنصرة الأمة الإسلامية على أعدائها بل أستطيع أن أقول إنهم في أشد الحاجة لكل شاب مسلم، وأنتما من خيرة الشباب التقي الورع الذي لا يخشى إلا الله ولا نزكي على الله أحدًا.

أخذ رشفة حبة البركة وأطال النظر إلى كليهما ثم قال:

– وبذلك يكون المكسب مضاعفًا في الدنيا والآخرة حيث الرزق الحلال الطيب والأجر الذي ينتظركما في الآخرة.

ابتسم هاشم قائلاً:

– والله يا مولانا أنا في غاية السعادة لأنك اخترتني وطالما تمنيت أن يكون لي دور في خدمة الإسلام.. ربنا يجازيك كل خير.

ابتسم الشيخ مهدي وقد انبسطت أساريره من كلام هاشم ثم قال:

– وأنت يا شيخ سيد؟

– زي ما قال هاشم إحنا في أشد الحاجة لخدمة الإسلام والمسلم الحق هو الذي لا يخشى إلا الله.

همَّ الاثنان ليعانقاه وعلت السعادة وجوه الجميع وقال الشيخ مهدي:

- بارك الله فيكما إن شاء الله قريبًا نجهز كل شيء للسفر.

*****

- عاوزة أقابل الأستاذ خالد.
- حضرتك علشان قضية؟
- يعني.
- طيب لو عشان قضية ممكن تنتظري حضرتك شوية يكون محمد الوكيل جه.
- أنا لا عاوزة أقابل وكيل ولا غيره باقولك الأستاذ خالد ضروري.
- يا افندم ماهو لازم...
- لازم إيه ادخلي قولي له سميرة عايزة تقابلك وإلا أدخل أنا.
- خلاص يا افندم.

كانت سميرة ترتدي عباءة سوداء وإيشارب أسود وتبدو في حالة اضطراب وتوتر.

دخلت شيماء السكرتيرة التي من الواضح أنها في أوائل العشرينات من خلال ملامحها الصغيرة الرقيقة وجسدها النحيل الضئيل وعادت بعد لحظات قائلة:

- اتفضلي يا مدام.

بمجرد أن دخلت سميرة بدا على خالد الوجوم وتظاهر بأنه مشغول وأخذ يقلب في مجموعة من الأوراق التي أمامه ثم قال دون أن ينظر إليها:

- اتفضلي.

لم تجلس إنما لفت لتقف إلى جانبه وأخذت تمسح على شعره وقالت:

- دي مقابلة تقابلني بيها بعد دا كله.. إيه موحشتكش؟

رفع رأسه وأخذ يحدق فيها وحاول أن يحتفظ بهدوئه، وقال فى خشونة:

- اتفضلي اقعدي إحنا هنا في مكتب محترم.

أشاحت بوجهها عنه قائلة في غضب مصطنع:

- إيه المقابلة اللي زي الزفت دي. ثم جلست على الكرسي.

لم يتمكن من كبت غضبه أكثر من ذلك حيث قال في حدة:

- زفت إيه وبتاع إيه أنا مش عارف...

قاطعته:

- مش عارف إنك خلتني أحبك! أنت ليه بتعمل معايا كده؟

- يا ستي أبوس على إيدك أنا مش فاضي ورايا شغل.

- شغل!!

امتلأت عيناها بالدموع ولم تتكلم واحتواهما صمت متوتر ليقول بعد أن استعاد هدوءه:

– ممكن أعرف عرفتِ العنوان ازاى؟!

– أنت كل اللي يهمك تعرف ازاى عرفت العنوان اللي يسأل مايتهوش يا أستاذ.

ما إن قالت جملتها حتى قامت وقد أخذت ترمقه بنظرات شرسة قائلة في لهجة حادة مهددة:

– دى آخر مرة أتذل فيها ليك مش سميرة اللي تتاكل لحم وتترمي عضم.

في غضب وانفعال:

– بتهدديني؟! أنت مش عارفة بتتكلمي مع مين؟

في سخرية:

– لا عارفة... وعارفة كويس يا خالد بيه.

مشت بخطوات بطيئة وقبل أن تصل إلى الباب لفَّت وقالت في هدوء الواثق:

– مش هاديلك مهلة كبيرة، بعد كده هتشوف مني اللي مش هيخطر لك على بال.

*****

كان سعيد الشيمي خبيرًا محنكًا في تسييس الأمور وتطويعها وإدارتها بحرفية، فهو لا يعادي أحدًا سواء كان أقل منه شأنًا أو أعلى، إلا إذا فرض عليه ذلك العداء حينها يتحول إلى مقاتل في منتهى الشراسة يستخدم كافة الأساليب المتاحة وغير المتاحة

للقضاء على أعدائه وحسم الصراع لصالحه، وكان غريبًا أن يفتعل هو الصراع ومع من! كبار تجار المخدرات أصدقاء وشركاء الأمس، لكن الطمع والغرور والإحساس بالتفرد، عندما يجتمعوا على أحد فإنه غالبًا ما يدفع نفسه دفعًا إلى النهاية، وها هم قد سيطروا تمامًا عليه وتملكه شعور بالنشوة والزهو عندما خرج عوض البيومي يشتعل غيظًا.

أخذ يدخن السيجار المحشو بالحشيش ويحتسي الويسكي حتى دخل عليه ماهر قلقًا مترددًا وهو يقول:

- فيه إيه يا باشا؟

أطال النظر إليه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة بلهاء قائلاً:

- اقعد يا ماهر.

- ليه المعلم عوض خارج شايط يا باشا؟

- سيبك منه.

- علشان الصفقة.

ساخرًا:

- عاوز نقسِّمها مش عارف إن دي صفقة العمر، اللي كنت مستنيها طول عمري. أخرج ماهر علبة السجائر وأشعل سيجارة وقد امتلأت الحجرة بدخان كثيف.

- عارف يا ماهر.

- أيوه يا باشا.

- الصفقة دي هتخليني فوق.. فوق أوي أنا بسببها بعت كتير من الأسهم وأخذت قرض كبير من البنك بضمان كل العقارات اللي أمتلكها.

في تردد وهو يأخذ نفسًا عميقًا:

- لكن يا باشا الصفقة مضمونة؟

- طبعًا.. جرى إيه يا ماهر هو أنا تلميذ واللا إيه هي أول مرة؟ أنت شكلك هتبوظ الدماغ اللي أنا عاملها بكلامك دا.

- مقصدش يا باشا بس أنا خايف.

- لا ماتخافش أنت مش عارف بتشتغل مع مين واللا إيه؟

- يا باشا دا أنا باشتغل عند صاحب الدماغ الجبارة.. والتسليم امتى؟

- بعد شهر.. بس المهم عاوزك تصحصح قوي أنت والرجالة.

- مصحصحين يا باشا وجاهزين لأى حاجة.

*****

كانت كافيتريا "مرمرة" المكان المفضل لدى سامي، حيث اعتاد الجلوس فيه خاصةً عندما يكون على موعد مع أحد، أو عندما يريد أن يكتب مقالاً وتكون الأفكار مضطربة لديه، يجلس في أبعد ركن عن المدخل حتى يتمتع بأكبر قدر من الهدوء والخصوصية، الذي بالفعل تحظى به الكافيتريا، يحتسي كوب البرتقال، وعندما يستغرق في الكتابة يبدأ في احتساء أكثر من فنجان قهوة، تكون الأفكار

تدفقت عليه بغزارة أيضًا فهو على علاقة مميزة بالعاملين في الكافيتريا، خاصةً بسيوني الجرسون الحاصل على دبلوم صنايع الذي أحيانًا كثيرة لا يجد غضاضة في أن يبدي آراءه في كتابات سامي، ويتبادل معه الضحكات والقفشات ويتفاخر دائمًا أمام أصدقائه بأنه صديق الكاتب الكبير سامي سراج، الذي كان يثني على الوعى الكبير الذي يتمتع به عندما يتناقش معه بنديه كاملة، وداعبه في إحدى المرات قائلاً: (إيه رأيك يا بيسو تيجي تشتغل معانا في الجورنال؟) كان رد بسيوني: (يا أستاذ سامي أنا هنا باخد قد اللي ممكن أخده منكم مرتين وبعيد عن وجع الدماغ بتاعكم).

كان سامي يرتدي بنطلونًا وقميصًا على قدر كبير من الأناقة، فهو عادة لا يرتدي البدل إلا في الضرورة، كذلك النضارة الطبية عند القراءة أو الكتابة.

أخذ يتصفح الجرائد ومن حين لآخر ينظر إلى الباب، حتى أطل خالد وقد بدا كنجم سينمائي مرتديًا بدلة كاملة بدون رابطة عنق، ليقول سامي بعد استقبال حار بالأعناق:

- فينك ياعم خالد مفيش مرة تتصل دا إحنا صداقة أربع سنين جامعة.

- مشاغل يا سامي.

بعد نظرة سريعة فاحصة وابتسامة صادقة:

- واضح.. تشرب إيه؟

- شاي وشيشة.

في دهشة:

- بقيت تشيّش يا خالد؟

أخذ يضحك وعاد بظهره للوراء واضطجع:

- نعمل إيه يا سامي التطور الطبيعي للسجاير.

ضحك الاثنان ونادى سامي على بسيوني:

- والله زمان يا خالد.. أخبارك إيه؟

- تمام الحمد لله.. ودي أيام تتنسي يا ريت ترجع تاني والله يا سامي أنت كنت وما زلت أعز صديق بس إيه المقالات الجامدة دي؟

أخذ نفسًا عميقًا ثم أطلق تنهيدة حارة:

- أهو بنحاول نعمل حاجة لكن واضح أن المكتب شغال كويس واللا فيه شغل تاني؟

- ربنا بيرزق.

وضع بسيوني الطلبات أمامهما ليأخذ سامي رشفة قهوة ثم قال:

- عمومًا إن شاء الله زواجي يوم الخميس تشرفني.. إحنا عاملين فرح على الضيق في البيت.

في سعادة:

- ألف مبروك يا سامي.. ودي تبقى مين؟

- زميلة في الجرنال.

- بجد ألف مبروك وربنا يتمم لك بخير.

– أنت مش ناوي واللا إيه يا خالد؟

أخذ نفس شيشة ثم وضع إصبعه على المبسم وقال:

– ادعي لي ألاقي بنت الحلال. بس أنت مش هتعمل الفرح في قاعة فندق ليه بتوفر واللا إيه يا سامي؟

ضحك سامي:

– أنت عارف إن المظاهر مش مهم بالنسبة لي فيه حاجات تانية أولى من فرح يكلف آلاف والشقة الحمد لله كبيرة والمدعوين مش كتير أنت الوحيد من أصدقاء الجامعة وبعض الزملاء في الصحافة.

– يا سيدي ربنا يتمم لك بخير.

سادت فترة من الصمت كانا قد فرغا من احتساء الشاي والقهوة، وأخذ سامي يرمق خالد ببعض النظرات محدثًا نفسه (لا يمكن أن يكون كل ما أصبحت فيه من عمل شريف هل هذا هو الشاب الفقير المعدم الذي أتى من الصعيد؟!) حتى قال خالد:

– رُحت فين؟

– لا مفيش ياللا بينا.

– على فين؟

– نتمشى شوية.

نادى سامي على بسيوني وأعطاه الحساب وبقشيشًا كالعادة ثم خرج الاثنان من الكافيتريا، وقال خالد:

- تعالَ في عربيتي يا سامي.

وافق سامي لأنه غالبًا سوف يعود ثانيةً إلى الكافيتريا ويحتاج إلى السيارة فلا مانع من تركها أمام المقهى استقل الاثنان سيارة خالد الذي قال:

- تحب تروح فين يا سامي.

- المكان اللي كنا بنروحه دايمًا أيام الجامعة.

هز خالد رأسه ببطء وتنهد وكأن الكلمات تخرج من أعماقه:

- دي كانت أيام جميلة يا سامي لا يمكن تتعوض رغم بساطتها النهارده الحياة كلها صراع ومشاكل والواحد علشان يعيش كويس لازم يكون زي الديب ينام مفتح عين ومغمض عين.

- إحنا يا خالد اللي صعبنا الحياة على أنفسنا بالطمع والأنانية والغرور مع إن الحياة جميلة وبسيطة العيب فينا يا صاحبي.

هز خالد رأسه موافقًا على مضض.

- بس ياريت يا خالد تكون فعلاً مقتنع بالكلام.

نظر خالد وكأنه يحاول أن يفهم مقصده:

- تقصد إيه؟

- أقصد إن أحيانًا الإنسان يقول كلام عكس اللي بيعمله.

صمت قليلاً وقد وصلا إلى كوبري قصر النيل ركن خالد السيارة وأخذا يسيران حتى وصلا إلى منتصف الكوبري ووقف الاثنان ينظران إلى النيل وقال خالد:

– ماكملتش يا سامي تقصد إيه؟

– أقصد يا خالد إنك شاب ذكي ومن أصل طيب لكن للأسف أخذت الطريق الخطأ.

أطال خالد النظر إليه وقد اضطرب قليلاً لكن ما لبث أن استعاد ثقته:

– الكلام دا غير صحيح.

– غير صحيح.. ازاى؟ يعني أنت عاوز تفهمني إن كل اللي أنت فيه دا من مكتب المحاماة؟! يا خالد دا أنا رئيس تحرير وكل أخبار المجتمع عندي ولو افترضنا إن كل دا من المحاماة هل كل شغل المحامين سليم؟

انفعل خالد وبدت عليه بوادر الغضب:

– دا حقد بقى يا سامي!

في هدوء وفي لهجة نصح صادقة:

– بالعكس ربنا يعلم أنا أتمنى لك كل خير، وأنت عارف كدا كويس وعارف كمان إن الفلوس ماتهمنيش، علشان أحقد عليك كل الحكاية إنك صديق وأنا كنت متوسم فيك خير، أنا خايف عليك لو مش من عقاب الدنيا من عقاب الأخرة اللي لا بتفرَّق بين غني وفقير.

أخذ خالد ينظر إلى النيل وقد عاد له هدوءه وبدا متأثرًا من كلام سامي وقال:

– أنا آسف يا سامي لكن أنا كمان خايف عليك، أنت عارف أنا عمري ما احترمت حد أو غِرت منه أكتر منك، أنت الوحيد اللي كنت باحس إني صغير أوي قصاده، وأحيانًا كنت بتضايق من نفسي لما أشوفك، علشان كده أنا تعمدت بعد التخرج إني أقطع الصداقة رغم إنى والله باعزك جدًّا واحترمك، لكن يمكن لأنك هتخليني أحتفظ بالمثاليات ودا ضد طموحي، ولتاني مرة باقولك أنا خايف عليك، اوعى تفتكر إن الناس اللي أنت بتهاجمهم هيسكتوا عليك، أنت ما تعرفهمش كويس ولا يمكن تغير الكون لوحدك، وبعدين مش كل حاجة في البلد سودا في حاجات كتير كويسة.

– معاك حق أنا لا يمكن أغير لوحدي، لكن واجب عليا أنور الناس وأوعيهم، وأنت اللي مش عاوز تشوف إلا اللي عاوز تشوفه وبتغالط نفسك، إيه الكويس في البلد؟ السرقة والفساد والنهب في ثروات البلد، دا حتى الهوا سمموه ومش كده وبس حتى عقول الناس سرقوها، التدمير والتخريب اللي حصل في عقلية البسطاء في الشعب المصري جريمة لن تغتفر.

– يا سامي أنت بتدافع عن ناس هي مش بتفكر في أي حاجة، غير إنها تاكل وتشرب ويربوا العيال ويوم الخميس يعملوا الواجب وراضيين وقانعين والعملية زي الفل.

– الناس دي مش عايشة كدا بإرادتها، الإعلام الموجه والفقر والجهل والتهميش هي اللي عمل فيهم كدا، وواجب كل واحد مثقف

إنه يدافع عنهم ويساعد في توعيتهم مش يساعد على تغفيلهم وسرقتهم وإفقارهم، وجعلهم عايشين في معاناة على طول علشان مايفكروش غير في اللي بتقول عليه.

في حماس:

– وأنا هاستفيد إيه من كده يا سامي، إحنا في بلد مابتحترمش غير اللي معاه فلوس أو منصب، واللي أنت بتقول عليهم دول لو أنت مامعكش حاجة من دول وبتدافع عنهم مش هايحترموك، أنا عشت في حرمان كتير يا سامي ولا يمكن أرجع ليه تاني مهما حصل، حتى لو دست على كل الناس، يا أخي دا البنت الوحيدة اللي حبتها ماتجرأتش أصارحها بحبي، عارف ليه؟ عشان كنت عارف إن لا يمكن أملا عينها لأني فقير.

– لو كل واحد قال وأنا مالي وفكر في نفسه بس، كانت الدنيا انتهت من زمان، ماكنش حد اخترع حاجة أو أكتشف دوا لأي مرض، وكان البشر انقرضوا زي الديناصورات، التاريخ مابيذكرش الأغنياء اللي كل همهم تكنيز المال لكنه بيخلد المناضلين والعلماء والمخترعين اللي بيخدموا البشرية.

– جايز لكن أنا باحب الواقع وماليش في التاريخ.

في أسى أخذ سامي يتمتم:

– يا خسارة يا خالد.

ساد الصمت لحظات ثم ألقى خالد نظرة أخيرة على سامي:

– أنا ماشي تعالَ علشان أوصلك.

– مع السلامة أنت... أنا قاعد شوية.

مشى خالد بضع خطوات ثم التفت للوراء وقال بصوت عالٍ:

– سلام يا صاحبي وماتزعلش مني أنا نتاج مجتمع عانى سنين طويلة.

نظر له سامي وقال:

– مستنيك في الفرح.

***

كيف لأحد كان يومًا أحد صبيانه أن يعامله بتلك الغطرسة، هذا ما كان يردده المعلم عوض على مدار الأيام التي كلما توالت زادت من توتر أعصابه، وكان عليه أن يفكر جديًّا في إيجاد طريقة يقضي بها على سعيد باشا، لكن سريعًا ما تعود أفكاره إلى نقطة الصفر لتعود ثورته أشد من ذي قبل، حتى أنه لم يكن يسلم أحد من رجاله وممن يعملون عنده من انفلات أعصابه ونيله قسطًا وفيرًا من التعنيف لأتفه الأسباب، حتى كانت تلك الليلة التي خرج فيها من حجرة نومه إلى البار أخذ يدخن السيجار ويحتسي الويسكي بشراهة، حيث استبد به الغضب واليأس لتنهض زوجه بعد أن تأرقت لأرقه قائلة في حنان وهي تمرر أصابعها على ظهره:

– إيه يا عوض هدي أعصابك.

في حدة:

- أهدي أعصابي ازاى واحد كان صبي عندي ياكل مني السوق يقعدني في البيت زي الولايا.

- ما أنت بقالك أسبوع بعد ما اتكلمت معاه ولسه مالقتش حل.

- لازم ألاقي حل دا لا عاش ولا كان أنا عوض البيومي.

أخذت تشاركه الشراب ثم قالت:

- طب ما تهجم عليه بالرجالة وتقتله.

ساخرًا:

- أهجم عليه إيه يا هانم هو إحنا فين، في حاجة اسمها قانون الطوارئ وبعدين هو كمان عنده رجالة.

لمعت عيناها وكأنها أمسكت بطرف الخيط قائلة في حماس:

- لكن مالوش نقطة ضعف؟

بفقدان صبر ويأس:

- مالوش.

- ازاي؟ أي واحد لازم يكون ليه نقطة ضعف.

في ضيق وضجر:

- أهو دا اللي حصل.

- هو أنت مش كنت قلت مرة إنه بتاع نسوان.

نظر لها وهز رأسه ببطء:

- آه حصل لكن دا ما له.

- ازاى يا حبيبي هو دا السلاح اللي هتقضي عليه بيه.

- ازاى؟

بدأ يستهويه الحديث ويفوق من سكره.

قالت في حماس وكأنها تكشف عن سر خطير:

- شوف إحنا نعرف مين الستات اللي بيروح عندها ونختار واحدة هانديها قرشين كويسين وهى تسهل لنا قتله.

أطال النظر إليها ثم دفع كأسًا مرة واحدة في حلقه وقال:

- الكلام دا عاوز فنجان قهوة سادة علشان افوق.

قالت في سعادة وهى تتجه ناحية المطبخ:

- أنا هاجهز لك أحلى فنجان قهوة وبنفسي.

دقائق وكانت أعدت القهوة وهو لا يزال شارًد يفكر وقد بدأ يهدأ قليلاً. أخيرًا أمسك بالخيط ولا بد أن يخطط للأمر جيدًا لتكسر هي شروده قائلة:

- ها يا حبيبي فكرت.

تناول منها فنجان القهوة وقد بدا صامتًا متسغرقًا في التفكير ثم هز رأسه ببطء وقال في صوت خافت:

- عارفة أنتِ خلتيني أحط إيدي على السلاح اللي هيخلصني منه.

في سعادة ومرح:

- علشان تعرف قيمتي يا حبيبي.

قبل وجنتيها ثم قال:

– أنتِ قيمتك عندي كبيرة أوي.

– ماقلتش إيه اللي بتفكر فيه؟

نظر لها وأخذ يداعب طرف شاربه:

– هو حاليًا مصاحب بنت كانت رقاصة، عايشة معاه في فيلا في الشروق تقريبًا غصب عنها، هي دي اللي ممكن تكون سلاحنا، لكن اللي أنا بفكر فيه ازاى نوصل لها من غير ما يعرف وازاى نخليها توافق؟

– ما تروح ليها أنت والرجالة وهو مش موجود.

– لا مينفعش لأن أكيد في حراسة على الفيلا، ولو عرف يبقى خلاص كارت واتحرق وطبعًا أكيد هيعرف، لازم يكون بسرية تامة وهى اللي تيجي هنا، ودا ماينفعش إلا عن طريق حد تكون البنت واثقة فيه وهو دا اللي أنا بافكر فيه.

صمت كثيرًا وطويلاً تنهد ووضع كفه على فخذه ثم ضرب بالأخرى على البار، وفجأة ومضت عيناه قائلاً:

– لقيتها...

*****

– طلقني يا عادل.

قالت سميرة هذه الجملة، ولم يكن مضى سوى بضعة أيام على مجيء زوجها من السفر، حيث كانت في حالة شجار دائم معه، وقد أصبحت لا تطيق فكرة وجوده، كم كانت تشعر بثقله كلما حاول أن

يضاجعها وتقشعر عندما يلامس جسده جسدها وتشمئز من أنفاسه اللاهثة المتقطعة حيث أصابه الوهن، حتى كلامه صار يزعجها وكأنه صرير يكاد يصم أذنيها.

كان وجوده يسبب لها توترًا شديدًا ويضغط على أعصابها المنهارة بالطبع بعد أن فقدت خالد الذي صار وجوده في حياتها سرابًا، أما زوجها ذلك البائس التعس الذي يكاد يأتي إليها (بلبن العصفور) لكي يرضيها ولم يستطع يقابل حدتها وغضبها ببرود شديد واستسلام تام، كأنه مسحور وواقع تحت تأثير مخدر قوي المفعول، حتى الجيران كانوا على موعد دائم صباحًا ومساءً مع صياحها وسبابها له، وما كان منهم إلا أن يتأففوا ويتعجبوا من ذلك الرجل الذي يتمسك بامرأة ساقطة خائنة سليطة اللسان، لكن سريعًا ما يبدون تعاطفهم معه ويشفقون عليه داعين الله أن يخلصه منها.

أخيرًا طلبت منه الطلاق صراحةً، لم يعد باستطاعتها تحمله أكثر من ذلك قائلة في حدة وعصبية:

– طلقني يا عادل.

لم يكن يسمع كلمة الطلاق حتى هوى على أحد المقاعد قائلاً:

– بتقولي كده ليه دا آخرة حبي ليكِ؟!

في غضب وصياح:

– مش طايقاك فارقني مش عاوزة أشوف وشك.

وهو لا يزال جالسًا على المقعد في سكينة وهدوء وقد تضاءل جسده وخفت صوته:

- اهدي يا حبيبتي شوية.

- كمان بتقول اهدي.

جرت مسرعة إلى غرفة النوم حيث كانت قد جمعت له ملابسه في حقيبة أمسكتها وقالت وهى تقذف بها من البلكونة:

- فارقني بقى هدومك وبره.

هوت الحقيبة على العديد من الجيران الذين تجمعوا أسفل المنزل كالعادة، الذين يطلون من النوافذ والبلكونات كأنهم يتابعون مسلسلاً يوميًّا ينتظرون نهاية حلقاته ما بين الشماتة والحزن.

جرجر في أقدامه باتجاه باب الشقة قائلاً:

- أنا هاسيبك كام يوم تكوني هدِّيتي أعصابك.

*****

صبحي ليس حارس أمن فقط، بل يعتبر حارس أمن وجنايني في آن واحد، ليس جنايني بالمعنى الحقيقي، لكن كان من بين المهام الموكلة إليه من قبل سعيد باشا، العناية بالحديقة وذلك ليس بالأمر العسير.

كل ما كان يؤديه من سقاية الزرع وتقليم الشجر وقص النجيلة إنما يؤديه باستمتاع أكثر منه عمل، على الأرجح كان يشعر أنه يؤدي شيئًا له معنى خلال اليوم الطويل، الذي يمر بطيئًا رتيبًا وبدا

الأمر أكثر إمتاعًا عندما بدأت علاقته بسحر، حيث كانا يؤديان ذلك سويًا يلهوان بالمياه ويركضان خلف بعضهما وغالبًا ما ينتهي بسقوط أحدهما المفاجئ في حمام السباحة.

كان صبحي يضع الاكل للكلاب وسحر ممسكة بخرطوم المياه ترش الحديقة حتى سمعا صوت صافرة سيارة، لكن ليس من عادات سعيد باشا أن يأتي في مثل هذا الوقت من اليوم، لم يمضِ على اندهشهما أكثر من ثواني، حتى أشار لها صبحي أن تصعد سريعًا إلى الفيلا، وذهب هو إلى حجرته أخرج الطبنجة واضعًا إياها بين طيات ملابسه، وبعد أن تأكد أنها صعدت فتح الباب ليجد أمامه فتاة جميلة ترتدي جيبًا قصيرًا وبدي انحسر عن بطنها.

في صرامة:

- مين حضرتك.

بدلال وهى تبتسم:

- أنا بسمة.

- بسمة مين؟

- أنا صاحبة سحر وعاوزة اقابلها.

وهو يغلق الباب:

- مفيش حد اسمه...

سريعًا قبل أن يغلق الباب:

- صبرك يا سيدي أنا بسمة صاحبتها وكنت باشتغل معاها في الكباريه قلها بس.

وهو لا يزال ممسكًا بضلفة البوابة وقد أخذ يرمقها بنظرات الريبة قال:

- بتقولي إيه؟

وهى تداعب شفتيها بطرف لسانها قائلة في صوت خافت متهدج:

- بسمة... بسمة يا قمر.

تنهد ونفض رأسه:

- طيب استنني شوية.

أطلقت ضحكة عالية خليعة:

- أنت تأمر بس ما تتأخرش عليا.

أغلق البوابة واتجه سريعًا إلى الفيلا ليعود بعد لحظات وقبل أن يتكلم قالت:

- أدخل ولا لسه خايف مني.

وهو يبتسم:

- لأ.. اتفضلي.

دلفت إلى الداخل ثم قبلت أصبعها ووضعته على فم صبحي، الذي سابت أعصابه، وقد تهلل وجه سحر عندما رأتها ثم تعانق الاثنان في قبلات محمومة، كانت سحر سعيدة بلقاء بسمة، لكنها

السعادة التي يشوبها القلق خوفًا من أن يأتي سعيد باشا لكن بسمة قالت بسرعة وكأنها تركض:

– شوفي بقى يا ستي مفيش وقت أنا جاية من طرف واحد مهم أوي عاوز يقابلك ضروري، علشان حاجة مهمة جدًّا والمقابلة هتطلعي من وراها بمبلغ كويس، وقبل ما تقرري المقابلة مش هتاخد أكتر من ساعة.

ازداد قلق وخوف سحر ولم تعد تعرف بماذا تجيب، بلعت ريقها في صعوبة وقالت: مين اللي عاوز يقابلني؟

– واحد من كبرات البلد مسنود أوي أوي.

– طيب وعاوزني في إيه؟

– أنا ماعرفش بس شكله موضوع مهم وأنتِ مش هتخسري حاجة بالعكس هتستفيدي.

– لكن أنا مقدرش أسيب الفيلا.

– ما تخافيش ساعة بس وكل حاجة مترتبة كويس محدش هيعرف حاجة.

– طب وسعيد باشا؟

– سعيد باشا كل تحركاته وتحركات رجالته مرصودة، ولا يمكن هيعرف أو ييجي هنا وأنتِ مش موجودة باقولك دا راجل كبير أوي لا سعيد ولا غيره.

بدا التردد على وجه سحر لكن كلام بسمة بدا مقنعًا، ولأنها تدرك جيدًا أن بسمة تكره سعيد باشا جدًّا، وكانت لا تطيق مجرد ذكر اسمه أمامها، كذلك كانت علاقتهما جيدة خلال الفترة القصيرة التي عملتا فيها سويًا في الكباريه.

قبل أن تتكلم قالت بسمة في لهجة صادقة:

- يا سحر أنا عمري ما هاضرك وأنتِ عارفة دا كويس صدقيني.

هزت سحر رأسها وسريعًا قبلتها بسمة وضمتها قائلة:

- أيوا كده شوفي بقى يا ستي أنتِ هتيجي معايا في العربية.

- متأكدة يا بسمة.

- والله كل حاجة تمام يااللا بقى غيري هدومك بسرعة.

صعدت سحر سريعًا إلى حجرة النوم، ثم أخرجت بسمة الموبايل وأجرت مكالمة قبل نزول سحر، التي طلبت منها أن تسبقها إلى السيارة لتكلم صبحي، اتجهت بسمة إلى السيارة وهى ترمق صبحي بنظرات إعجاب وهيام وهو لا يزال في حالة ذهول تام مما يحدث، لتقترب منه سحر وتخبره بما حدث لكنه صمم على الذهاب معها قائلاً في حسم:

- إحنا مع بعض على الحلوة والمرة، وأنا لا يمكن أسيبك تروحي لوحدك، ولم تجد سحر إلا أن ترضخ وهى سعيدة من خوفه عليها وقد تأكدت من حبه لها، وعندما رأته بسمة قادمًا مع سحر قالت مداعبة:

– أهلاً.. أنت هتيجي معانا يا قمر؟

*****

نشأ الأستاذ فهمي عبد الحميد في وسط محب للقراءة وخاصةً الصحف، وكأي موظف محدود الدخل يعمل ألف حساب لأي خطوة قد تكون محفوفة بالمخاطر عند إنفاق أموال في غير الاحتياجات الأساسية للمنزل، رغم ذلك كان يقتطع أبوه كل يوم ثمن الجريدة من راتبه المحدود حتى توفاه الله، وكان يردد دائمًا أن الجريدة سلاح خطير ممكن أن تنهض بأمم، إذا كانت حرة جريئة معبرة عن واقع الشعب ترصد آلامهم وأحلامهم وتؤدي للتطور والتغيير، ومن الممكن أن تخسف بأمم إلى مستنقعات الجهل والفساد، إذا كانت خجولة ومنافقة ومأجورة تكتب ما يُملى عليها. كانت أعظم أمانيه أن يرى جريدة حرة كما أراد، وعاش الحاج عبد الحميد أكثر من سبعين عام ومات دون أن يرى حلمه النور، وعندما فتح ربنا على نجله فهمي سارع بتحقيق حلم أبيه، وقام بتأسيس جريدة الرأى الحر وأخذ عهدًا على نفسه أن تكون كما تمنى أبوه، مهما كانت العواقب لكن أحيانًا يكون التيار أعتى من أن يظل الإنسان صامدًا في مواجهته.

كان سامي جالسًا خلف مكتبه وأمامه الأستاذ فهمي الذي يبدو عليه التوتر والاضطراب وهو يقول:

– هدي اللعب شوية يا سامي.

- ليه بتقول كدا يا أستاذ فهمي؟!

كدا ممكن يقفلوا لنا الجريدة الأحسن إننا نهدي شوية اليومين دول.

في مزيد من الثقة:

- شوف يا أستاذ فهمي أنا لا يمكن أتخلى عن مبادئى وأسكت عن الفساد مهما حصل.. وأنت عارف كدا كويس.

بمزيد من الرجاء قال الأستاذ فهمي مستعطفًا:

- عارف وأنا كمان مايرضنيش إننا نسكت عن الفساد لكن سايق عليك النبي تهدي شوية اليومين دول الأيام جايه إن شاء الله كتير.

قام سامي عن كرسيه ثم جلس أمام الأستاذ فهمي وقال:

- أنت حد كلمك يا أستاذ فهمي؟

- لا محدش.

- أمَّال إيه التوتر اللي أنت فيه دا؟!

- شوف يا سامي أنا فيه ناس حابيبي حذروني، وقالوا لي أن الجورنال ممكن يتقفل لو سامي استمر على مهاجمة رجال الأعمال والمسئولين، وأنت مايرضكش إن الجورنال يتقفلل ونتشرد كلنا.

- يا عم فهمي أنا كان ظني بيك دايمًا مناضل.

- يا أستاذ سامي أنا هافضل طول عمري أقول كلمة الحق، ولا يمكن أقول غيرها بس خلينا واحدة واحدة علشان لو اتقفل الجورنال لا هنعرف نقول كلمة حق ولا غيرها.

عاد سامي بظهره للوراء وتنهد:

- أنت ليه خلتني رئيس تحرير يا أستاذ فهمي؟!

- لأني كنت متأكد إنك هتطور الجورنال ودا حصل والحمد لله.

- يعني الجورنال اتطور وزادت نسبة المبيعات.

- الحق بقى يوزع أكتر من الأول والبركة فيك.

ربت سامي على ركبة الأستاذ فهمي قائلاً في لهجة بين الجد والمداعبة:

- وأنا ماقدرش أوعدك بأكتر من كده.

*****

بدا كل من سيد وهاشم شخصين مختلفين، تغيرا تمامًا، حيث قاما بحلق اللحية وارتديا البنطلون والقميص بديلاً للجلباب، وكان ذلك بناءً على توجيهات الشيخ مهدي، وكانا في بداية الأمر متضررين، لكن ما لبثا أن تقبلا الأمر بعد أن أقنعهما الشيخ مهدي بأنه للصالح العام، وعندما يكونان في العراق يعفيان اللحية مرة أخرى، وقد أصبح قريبًا جدًّا، حيث إنها إجراءات لا بد منها قبل السفر، وانتظرا كثيرًا حتى أتى ذلك اليوم، عندما كانا في صحبة الشيخ مهدي في إحدى السيارات الملاكي التي تسير بهم في طرق شبه خاوية، وقد أخرج لهما التذاكر وجوازات السفر وبدت عليهما الدهشة والمفاجأة، عندما رأوا أن الجوازات بأسماء غير أسمائهما،

وقبل أن يتكلما قال الشيخ مهدي الذي يجلس بجوار السائق غير الملتحي أيضًا:

– السفر إن شاء الله يوم السبت هذه أسماؤكما الجديدة كان لا بد من ذلك لكي تستطيعا السفر كل واحد يحفظ البيانات اللي بالجواز جيدًا.

قال سيد في تردد:

– افرض يا مولانا الواحد نسي أو غلط لو اتسأل في المعلومات يحصل إيه؟

قال الشيخ منفعلاً:

– لا يوجد شيء اسمه افرض.. المعلومات تتصم يا شيخ... أنت راجل متعلم ودول كلمتين.

قال هاشم في حماس وثقة:

– اعتبرنا صميناهم يا مولانا.

امّن سيد على كلامه:

– إن شاء الله تتصم يا مولانا.

– الكلام الذي سأقوله يحفظ جيدًا وينفذ بالحرف الواحد، أنتما سوف تسافران على طائرة واحدة، لكن كل واحد لا يعرف الآخر أو حتى ينظر إليه، منذ أن يتحرك من البيت وحتى يصل إلى الشيخ خليل في السعودية، هذا الكلام لا بد أن ينفذ بالحرف الواحد مفهوم؟

قال الاثنان في نفس واحد:

- مفهوم يا مولانا.

أخرج الشيخ مهدي من جيبه ورقتين وأعطى كلاً منهما ورقة وقال:

- كل واحد يحفظ العنوان الموجود في الورقة صم زي البيانات اللي في الجواز أمامكما. خمس دقائق في صمت تام إلى أن قال الشيخ:

- العنوان اتحفظ؟

قال الاثنان:

- اتحفظ يا مولانا.

- طبق يا هاشم الورقتين واشعل فيهما النار ثم القيهما من نافذة السيارة.

فعل هاشم ما قاله الشيخ مهدي.. واستطرد الشيخ في صرامة وهما يستمعان بإمعان:

- كل واحد فيكم يأخد تاكسي إلى المطار، ويكون بينكم وقت لا يقل عن نصف ساعة، وعندما تصل الطائرة الرياض يأخذ باص غير الذي يأخذه الآخر إلى مكة، وعندما يصل إلى مكة ويكون متأكدًا إن كل شيء على ما يرام ولم يحدث أي شيء أو يتبعه أحد، يأخذ تاكسي للعنوان الذي حفظه، وعندما يصل ويفتح له الباب يسأل عن الشيخ خليل، وأيًّا كان الرد سواء كان موجود أو غير موجود أو من أنت يقول (أبو عمار).

عندما تصل إلى الشيخ خليل سوف يكون كل شيء على ما يرام، وتكون مهمتك انتهت والشيخ خليل سوف يقوم باللازم، وإن شاء الله أخباركم تكون عندي أول بأول، عاوز كل واحد فيكم يحتفظ بالهدوء ويثق في أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

صمت برهة ثم عاد يقول وقد علت نبرة صوته وكأنه نسي شيئًا مهمًّا:

- المفروض إن الواحد ذاهب يؤدي عمرة، إن حدث شيء مفاجئ وأحس أنه مراقب أو فيه شيء مريب يتصرف بشكل طبيعي جدًّا يذهب إلى مكة، وهناك فنادق كثيرة ينزل في أي فندق ويؤدي العمرة وبعد أن يطمئن أن الأمور صارت على ما يرام تذهب إلى العنوان الذي يكون في ذهنك دائمًا.

أخرج نقودًا من حافظته وأعطى كلاً منهما مبلغًا متساويًا ثم قال:

- أظن هذا المبلغ كافٍ.

قال الاثنان وقد بدا عليهما قلق بسيط:

- بارك الله فيك يا مولانا إن شاء الله نكون عند حسن ظنك وكل شيء يتم على خير.

- أهم شيء تنفذوا الكلام جيدًا وإن شاء الله كل حاجة تتم كما أردنا.

نظر للخلف ومد يده يصافحهما ويقبلهما وقد بدا التأثر على وجوه الجميع، ثم قال الشيخ مهدي في لهجة أبوية:

- كنت أود أن أودعكما لكن ما باليد حيلة صحبتكما السلامة سوف تنزلان هنا.. اقف على جنب يا شيخ محمد.

*****

(9)

أصبحت سميرة مثل النار عندما تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله، كانت تحترق كل يوم من الشوق إلى خالد، لكن عندما تتذكر قسمات وجهه العابس والشرر يتطاير من عينية صائحًا فيها (إنها صارت بالنسبة إليه ماضي، صفحة وانطوت) تلعنه وتلعن اليوم الذي رأته فيه، كم كان هذا قاسيًا عليها بعد أن أيقظ بداخلها الكائن المتمرد المفعم بالشهوة، الذي ظل في بيات شتوي سنين طويلة منذ بداية علاقتها به، الآن قد تحرر حيث عادت أكثر فجورًا من ذي قبل، كانت تبحث عنه في كل شاب يضاجعها لكن ما تلبث أن تثور في وجهه سريعا وتتهمه في رجولته، وقد احتار معظم هؤلاء الشباب في تلك المرأة التي تجرهم إلى علاقة لم ينتظروها ثم تنتفض وتصرخ وقد وضعت وجهها بين يديها (عاوزة خالد) وقد ظن بعضهم أنها مجنونة أو ممسوسة ليغادر وهو ساخط ناقم يضرب كفًّا بكف ناعيًا حظه.

جلست تلك الليلة تبكي كما لم تبكِ من قبل، وتحدث نفسها في غل وسخط (لا بد أن أقتله لا يمكن أن أتركه يحيا في سلام أبدًا بعد ما فعله بي). وبعد أن أعياها البكاء وجفت دموعها توجهت إلى

حجرة نومها، استلقت على السرير واضعة ذراعيها وراء ظهرها محدقة في السقف تتأمل حياتها، ثم بدأت تستغرق في النوم وما هي إلا دقائق حتى أرقت وأخذت تتقلب يمينًا ويسارًا، تنهدت ولوهلة استرعى انتباهها صوت مكتوم، وكأن باب الشقة يفتح حاولت أن تسترق السمع وقلبها يكاد يقفز من شدة الخفقان، لكن الصوت اختفى تمامًا إلا من أنفاسها اللاهثة، ظنت أنها تحلم أو تتوهم بسبب سوء حالتها النفسية، وقبل أن تستوعب ما يحدث وقعت عيناها على مقبض باب الحجرة الذي أخذ يتحرك ببطء، شعرت بأن جبلاً جاثمًا على صدرها من شدة الخوف، تلعثم لسانها فلم تستطع أن تتكلم.. وفجأة انفتح الباب.. وإذا بضوء هائل يوجه على السرير، حاولت أن تصرخ لكن صوتها خرج ضعيفًا وفي أقل من ثانية كان الضوء استقر على وجهها تمامًا، وأخذ من يحمل الكشاف في الاقتراب منها وقبل أن يصلها تعثر للحظة، ليبتعد ضوء الكشاف عن وجهها وصعقت عندما التقت عيناها بعينيه إنها تعرفه... تعرفه جيدًا، وقبل أن تتكلم وجه لها الطعنات.

*****

أضفت بسمة جوًّا من المرح خفف كثيرًا من الرهبة والقلق المسيطرين على سحر وصبحي، حيث كان الأمر بالنسبة إليهما أشبه بمن ينتحر هربًا من حكم بالإعدام. أمام فيلا عوض البيومي توقفت سيارة بسمة وقبل أن يدخلوا قالت:

- ممكن يا صبحي تستنى هنا مع الحرس علشان سحر بس هي اللي هتدخل.

في حدة:

- أنا هادخل معاها.

في هدوء وحزم وكأنها تحولت إلى كائن آخر:

- هي مطلوبة لوحدها متخفش مش هايحصل لها حاجة.

هنا اقترب منهم فرد أمن وقال:

- المعلم في انتظاركم.

هزت بسمة رأسها وهى تبتسم ثم أمسكت بيد سحر ودخلتا سويًا إلى الفيلا، ووقف صبحي مع فرد الأمن الذي أخرج علبة السجائر وأعطى سيجارة لصبحي، الذي زاد قلقه واضطرابه.

في خطوات يشوبها كثير من الخوف والحذر دخلت سحر إلى الفيلا في صحبة بسمة، كان المعلم عوض البيومي جالسًا في البهو وقد تهللت أساريره وقال:

- اتفضلي يا سحر.

نظرت له سحر في ريبة قبل أن تقول في صوت خافت:

- مين حضرتك؟

قهقه المعلم عوض ثم قال:

- مش مهم. المهم تعرفي أنا عاوزك ليه يا جميل.. شوفي باختصار إيه رأيك في نص مليون جنيه؟

- وإيه المقابل؟

- قبل ما أقول لك إيه المقابل الحارس اللي معاكي دا نظامه إيه؟

بسرعة:

- ماتقلقش منه.

- يعني مش ممكن يقول لسعيد؟

- لأ اعتبر أنا وهو واحد.

قهقه وأخذ يرمقها بنظرات وقحة:

- شوفي يا حلوة باختصار أنا عاوزك تقتلي سعيد وهتاخدي نص مليون جنيه.

حدقت سحر في ذهول ليستطرد المعلم عوض:

- أنا عارف أن الموضوع مفاجأة ليكِ لكن كل حاجة مترتب لها كويس.

أخرج زجاجة صغيرة من جيبه ثم أكمل:

دا سم قوي جدًا كام نقطة منه في أي حاجة تقتل أجدع بني آدم في لحظات، وعلى فكرة السم دا ليه ميزة عجيبة، إنه حتى لو تم الكشف على الجثة لا يمكن يظهر إن الوفاة جنائية، يعني يا حلوة لا من شاف ولا من دري، وبعد ما تقتليه هتكوني في حمايتي ولا يمكن مخلوق يمس منك شعرة.

أمّنت بسمة على كلامه وهى تنظر إلى سحر التي ما زالت مذهولة قائلة:

– طبعًا يا معلم هو في حد يتجرأ إنه يفكر يعمل حاجة في حد في حمايتك.

اضطجع المعلم عوض وقال بثقة وزهو:

– قلتِ إيه يا حلوة؟

أخذت سحر تنقل عيناها بين المعلم عوض وبسمة ثم قالت في صوت خافت:

– مش عارفة بس سعيد باشا ورجالته...

في سرعة وحسم قاطعها منفعلاً:

– سعيد فاكر نفسه مافيش زيه لكن عاوزك تعرفي وتتأكدي إنه مجرد سمكة قرش وسط حيتان كان صبي عندي. اسمعي.. الفرصة بتيجي مرة واحدة فكري كويس.

قالت بسمة في حماس:

– يا معلم تفكر إيه؟ دول نص مليون جنيه.

قالت سحر في تردد مصطنع:

– طب لو قلت لأ؟

رمقها بنظرة نارية ثم ابتسم وهو يقول:

– من حقك.. لكن في الحالة دي هتخسري كتير.

صمت لحظات، أشعل سيجارة وأخذ نفسًا، ثم استطرد:

- على فكرة المقابلة اتصورت، والشريط ممكن يكون عند سعيد وساعتها هو اللي هيقتلك.

قالت في ثقة وقد تغيرت نبرة صوتها وتحررت من أي ضغوط وبادلتهم ابتسامة أكثر بهتًا:

- أنا هاخد مليون جنيه.

وجه نظرات ثاقبة إليها ثم مسح على جبهته وداعب طرف شاربه ثم قال:

- موافق هتاخدي نص مليون دلوقتي والنص التاني بعد التنفيذ.

- والتنفيذ أمتى؟

- في أقرب فرصة.

أخرج ورقة صغيرة ثم أعطاها لسحر.

- بعد التنفيذ تبعتي رسالة على الرقم الموجود في الورقة، فيها كلمة واحدة (تم) وتنتظري في الكيلو 40 طريق مصر السويس الصحراوي، هيجيلك واحد من رجالتي بباقي المبلغ.

- طب افرض ماعرفتش آجي؟

- أنتِ ما تبعتيش الرسالة إلا بعد ما تكوني وصلتِ للمكان ودقايق هيكون عندك الراجل بتاعنا.. فيه أي استفسارات تاني؟

- طب ليه في الطريق الصحراوي مصر السويس؟

- علشان الفيلا جنب الطريق وبعيد عن العيون.

- ممكن تساعدنا لو احتجنا نهرب من البلد أو في أي حاجة تانية.

وهو يبتسم:

- طب قولي لها أنتِ يا بسمة.

في سرعة:

- أنتِ لو عاوزة لبن العصفور المعلم يجبهولك.

*****

نستطيع أن نقول بل ونجزم، أن فكرة قتل سعيد باشا كانت مسيطرة تمامًا على عقل سحر وصبحي، خاصةً بعدما تغلغل الحب داخلهما، وإن كان لم يتجرأ أحدهما أن يبوح بذلك أو حتى مجرد التلميح، وعندما طلب منها المعلم عوض قتله ذهلت من المفاجأة ولوهلة شعرت أنه يقرأ أفكارها، وتخيلت أن سعيد باشا هو الذي يتكلم قائلاً: (هل تظنين أنكِ حقًّا قادرة على التفكير في شيء دون أن أكون على علم به)، لكن عندما أفاقت من المفاجأة واستردت وعيها حيث جاء الكلام بالنسبة إليها في وقت مناسب جدًّا، كم كانت تبغض ذلك الرجل محدثة نفسها (لا بد أن ينال عقابًا على كل ما فعله بحق أي أحد حتى وإن كنت أنا السيف الذي يقضي عليه وأقتص منه عن كل لحظة إذلال عشتها معه)، كذلك لم يكن لديها خيار آخر غير قتله، إن رفضت وأرسل المعلم عوض الشريط، بالفعل سوف يقتلها سعيد باشا يسحقها بقدمه مثل الحشرة.

عندما أخبرت صبحي كل ما دار بينها وبين المعلم عوض بدا شاردًا ولم يبدِ أي رد فعل لدرجة أنها شكت في أنه سمع ما قالته.

– رُحت فين؟!

في نظرات حائرة:

– مافيش بس الموضوع مش سهل زي ما أنتِ متخيلة.

– إزاى يعني؟

في لهجة يشوبها قلق على غير المتوقع من سحر التي ظنت أنه سيطير فرحًا:

– الناس دي يا حبيبتي وحوش ومحدش يقدر يعرف بتفكر في إيه.

في سرعة ولهفة:

– يا حبيبي كل حاجة مترتبة كويس أنا هاحطله السم في الويسكى ويموت وناخد الفلوس ونتمتع ونعيش حياتنا.. ليه بقى القلق دا؟

– بالسهل كده في حاجة أنتِ مش واخدة بالك منها ازاى هنخرج بعد ما نقتله؟ ماهر هيسيبنا نخرج؟ لو عرف ماهر إنك قتلتيه هنحصله في ساعتها.

بلعت سحر ريقها في صعوبة وقد فطنت لصعوبة المهمة:

– طيب وبعدين ما إحنا لو منفذناش برضه هنموت!

وضع صبحي يده على جبهته ثم نظر إليها:

– دا غير حاجة مهمة لو عرفنا نلاقي طريقة ونخرج إيه عرفك عوض البيومي اللي اتفق معاكي بيفكر في إيه!

في دهشة:

– أنت تعرفه؟

هز رأسه:

– آه أعرفه.

– ازاى؟

– هو أنتِ ناسية إني بشتغل من فترة عند سعيد باشا وياما شفتهم مع بعض والمهم إيه عرفك إنه هديلك النص مليون التانية.

– نص مليون بالنسبة ليا ولا حاجة.

– لكن علشان أنتِ تاخديهم هيبقوا حاجة.. وبعدين إيه ضمنه إننا مش هنبتزه؟

– تقصد إيه؟

– أقصد إن الموضوع مش سهل ولازم نفكر كويس علشان إحنا خلاص دخلنا عش الدبابير وياريت تعملي لنا شاي ونفكر سوا.

هزت رأسها وقامت لتعد الشاي، وفرد جسده على السرير وبدا مفكرًا بعمق، حتى جاءت سحر بالشاي وجلست في مؤخرة السرير، وسادت فترة من الصمت لا يتخللها إلا أصوات نباح الكلاب بين الحين والآخر ورشفة شاي من أحدهما، وبعد تفكير عميق أطال

النظر إليها وأخذ نفسًا عميقًا ثم تنهد، وهمت أن تتكلم حتى تهلل وجهه بالسعادة وقال بسرعة:

- شوفي يا ستي الخطة كالآتي...

*****

- المعلم أبو النواس عاوز يقابل حضرتك.

- خليه يدخل.

ترك خالد ما في يده ثم وقف يستقبل المعلم أبو النواس الذي دخل وفي حفاوة بالغة تصافح الاثنان وقال خالد وهو يشير له بالجلوس:

- شرفتنى والله يا معلم.

- الله يخليك يا أستاذ خالد بس أنا واخد على خاطري منك.

بانزعاج واضح:

- ليه بس يا معلم دا أنت خاطرك غالي أوي عندي.

- يعني يا أستاذ خالد من ساعة ما سبت الشارع محدش شافك تاني مافيش مرة تزورنا دا ماكنش عيش وملح؟

- والله يا معلم مشاغل أنا لا يمكن أنسى الأيام اللي قضيتها معاكم في الشارع.. قل لي تشرب إيه؟

- مش ضروري.

- مش ضروري ازاى.

رن الجرس لتفتح شيماء الباب ليقول:

– عصير مانجه بسرعة يا شيماء للمعلم اللي نورنا النهاردة.

– الله يبارك فيك.. شوف يا أستاذنا عاوزك ترفع لي قضية علشان اطرد ساكن عندي في البيت منشف ريقي في دفع الإيجار.

أبتسم خالد وقال:

– دا إحنا ننشف ريقه وريق اللي جايبينه اعتبره اتطرد يا معلم مش كفاية إنك مسكنه عالم معندهاش دم ولا ضمير.

في غيظ مكبوت:

– دا أنا لميته من الشارع ماكنش لاقي سكن، أجرت له شقة أوضتين وصالة بمنافعها وبأقل من سعرها قُلت أكسب فيه ثواب هو وعياله لكن صحيح خيرًا تعمل شرًا تلقى.

– يا معلم اتقِ شر من أحسنت إليه.. لكن ولا يهمك بكرة ارجعهولك الشارع تاني.

– طول عمرك بريمو يا أستاذ خالد.

أخرج نقودًا من حافظته وقبل أن يتكلم أزاح خالد يده:

– فلوس إيه دي يا معلم؟!

– الأتعاب.

معاتبًا:

– عيب يا معلم دا إحنا عشرة عمر.

– تشكر يا أستاذ خالد صحيح ابن أصول.

دخلت شيماء بالعصير لتضعه أمام المعلم الذي أمسك بالكوب ثم قال:

- من يد ما نعدمها.

ابتسمت شيماء في خجل.

- رفع المعلم أبو النواس كوب العصير على فمه ولم ينزله إلا وهو فارغ ثم مسح فمه وشاربه بالمنديل القماش. كان خالد قد اضطجع ثم ابتسم وقال:

- ازي أهل الشارع يا معلم؟

هز المعلم أبو النواس رأسه في أسى قائلاً:

- مش سميرة اللي كانت ساكنة معاكم في بيت عم حامد اتقتلت!

في ذهول وفزع:

- يا ساتر يا رب.. حصل امتى دا؟

- من كام يوم.

- ياحول الله يا رب.

- ياللا دي آخرة المشي البطال.

- لكن اتقتلت ازاى؟

- لقيوها مدبوحة في أوضة النوم

في جزع وغضب:

- إيه دا فيه بني آدمين كدا.. لكن معرفوش مين اللي قتلها؟

– لأ معرفوش.. في ناس بتقول جوزها خصوصًا إنها اتشاكلت معاه قبل الحادثة ورمت له هدومه من البلكونة، وفيه ناس بتقول واحد من اللي بتمشي معاهم وفيه ناس شافتها مع شاب في شارع جامعة الدول قبل الحادثة واللي قتلها سرق الشقة كمان.

– يعني القتل كان بسبب السرقة؟

– أنا قلت كده لكن البوليس بيقول إن اللي قتلها أكيد يعرفها كويس.. وحكاية السرقة ممكن تكون عشان تضليل البوليس.

– طب وأنت تفتكر مين يا معلم؟

صمت لحظات ثم هز رأسه:

– مش عارف يا أستاذ خالد بس أنا باقول واحد من الصيع اللي تعرفهم.. وأنت تفتكر مين؟

– أنا باقول جوزها.

في حسم:

– لأ مش معقول جوزها دا غلبان لا يعرف يهش ولا ينش.

– يمكن.

– بس عارف يا أستاذ خالد كويس إنها غارت، دي كانت شابهة الشارع وكمان عينها بجحة تبقى لسه جاية من مشوار من إياهم، ولو حد استجرى يكلمها أو يبص لها تمسخره وتبهدله.

قال خالد وهو يهز رأسه في أسى:

– نعمل إيه يا معلم البلد معدش فيها أخلاق ولا حياء.

*****

حمل هاشم حقيبتة فارًا من الثأر الذي يطارده حتى في أحلامه، وقد كان هذا أحد أهم أسباب قبوله السفر للعراق، وقبل أن يغادر شعر بصداع وقد اعتاد على أن يداهمه من وقت لآخر، وضع يده على رأسه ثم قال:

- مفيش حاجة عندك للصداع؟

وضع سيد المصحف جانبًا ثم نظر إلى هاشم وقال:

- هو لسه الصداع مارحش؟!

- مش قادر راسي هتتفرتك.

- أنزل أشتري لك أي حاجة من الصيدلية.

- لا أنا هاشتري بعد ما أنزل.. مع السلامة.

خرج بعد أن ودع سيد الذي استعد هو أيضًا، وقد جهز كل شيء وكان عليه الانتظار كما هو متفق عليه من النزول بعد هاشم بنصف ساعة، جلس يقرأ القرآن وبعد مضي فترة نظر في الساعة ثم حمل حقيبته وخرج إلى الشارع واستقل تاكسي. كانت الأفكار والمشاعر تتصارع داخله، ما بين خوف من المجهول وسعادة السفر، بعد لحظات توقف التاكسي، بسبب زحام شديد أمام الصيدية التي في أول الشارع وأفاق سيد على صوت بعض الناس التي تقول جريمة قتل، نزل سيد يرى ما حدث وقد أحاطه الذعر والاضطراب، شعر أن رجليه لا تقويان على حمله، لا يمكن أن يكون هو، لكنه

في صعوبة شق الزحام وارتعشت يده عندما أزاح ورق الجرائد الذي غطى الجثة وصرخ قلبه عندما رآه.

قتل هاشم، اقتص منه بعد كل هذه السنوات، وبعد أن كان على بُعد ساعات ويكون هناك بعيدًا وقد ظن أنه ودع الثأر بلا رجعة لكنها كانت الدنيا وبثلاث رصاصات في صدره.

لم يستطع سيد أن يحبس دموعه وانسابت رغمًا عنه، ليقترب منه أحد المتجمهرين وسأله إذا كان يعرفه، لكن سيد هز رأسه نافيًا وقال في صوت خافت بأسى: (بس صعب عليا).

ركب بجوار السائق الذي قال:

– والله حرام لسه شاب يلعن أبو التار وكمان محدش مسك اللي قتله.

كان سيد في دنيا أخرى بدا شاردًا يفكر في هذه الحياة، التي لا يمكن أن يأمن فيها الإنسان على نفسه ولو ثواني، وابتسم في سخرية عندما تذكر ما كان يخطط له مع هاشم عندما يسافران إلى العراق، ها هو هاشم قد سافر لكن إلى عالم آخر ليس فيه ظلم أو ثأر والكل فيه سواء.

أطال السائق النظر إليه في دهشة ثم قال:

– يا أستاذ وصلنا!

نفض سيد رأسه ثم نظر إلى السائق الذي قال في تعجب ودهشة:

- رحت فين يا أستاذ؟ وصلنا المطار.

بعد معاناه شديدة أنهى إجراءات السفر، متغلبًا على نظرات الشك والريبة التي لاحقته بالهدوء كما هو متفق عليه، وبعد وقت قصير تم النداء على المسافرين للتوجه إلى الطائرة.

اعتلى سلم الطائرة ثم التفت إلى الوراء وألقى نظرة سريعة خاطفة، ثم هز رأسه وتنهد وما هي إلا لحظات حتى انطلقت الطائرة، وشيئًا فشيئًا أخذت ترتفع حتى اختفت تمامًا وسط الضباب والغيوم.

*****

كل شيء يبدو طبيعيًّا..

لا يوجد ما يوحي بأن شيئًا خطيرًا سوف يحدث في العادة كان سعيد باشا لا يمكث في فيلا الشروق إلا عدة ساعات وذلك في بعض الليالي المحددة من كل أسبوع، وقد جاهدت سحر نفسها حتى لا تظهر أية مشاعر سلبية على وجهها قدر الإمكان، حيث رسمت ابتسامة صفراء باهتة على شفتيها، وهى تنظر إلى سعيد باشا الذي جلس على الأرض وأمامه عدة زجاجات ويسكي، كذلك السيجار الذي لا يفارقه إلا أثناء النوم، رمقها بنظرات نهم وشراهة وداعب نهديها المتفجرين، ليتدفق فيهما الدم حتى حدثت لهما اهتزازات طبيعية، ثم طلب منها الرقص، وعلى الفور لبت طلبه كالعادة، أدارت جهاز التسجيل، ثم أخذت ترقص في خفة ونشاط كما لم ترقص من قبل، وبين الحين والآخر تملأ كأس ويسكي ثم تداعب

حافه الكأس بلسانها وتأخذ رشفة، ثم تعطيه له فيدفع به إلى أمعائه في لحظات، استمرت على هذا الحال إلى أن بدأت دماغه تثقل ويهتز، وكانت فرصتها حيث وضعت خلسة نقاطًا من السم في الكأس، وأخذت تداعب حافته بلسانها، هذه المرة ارتجف قلبها عندما أعطته له، ومرت عليها لحظات كالدهر حينما أمسك الكأس ولم يحتسِه سريعًا مثل سابقيه، وأخذت تفكر (مستحيل أن يكون رآني أو كان على علم) لكن الحقيقة أنه كان قد شرب كثيرًا وبدا أنه اكتفى، تمالكت نفسها وبسرعة اقتربت منه وقالت هامسة:

- إيه يا حبيبي أنت هتنام لسه بدري أنت واحشني أوي النهاردة.

وجه إليها نظرات ناعسة ثم قذف بالكأس في فمه واستند على الكرسي ليزغرد قلبها فرحًا وتلمع عيناها وراحت ترقص وتتمايل، ثواني قليلة وبدأ مفعول السم يسري في جسده، حيث امتقع وجهه ووضع يده على بطنه وحاول النهوض والصياح لكن خانته قواه هذه المرة، التي طالما غرته وافترى بها على عباد الله، أخذ يحدق فيها ويتمتم بكلام غير مفهوم، ثم استلقى على الأرض وتقلب يمينًا ويسارًا محدثًا ضجة إثر ارتطام جسده بالكئوس، وانساب سائل أبيض من فمه وانتهى كل شيء، وقد صار جثة هامدة تنتظرها المواكب، لكن هذه المرة مواكب الدود في القبر.

بعد أنا تأكدت من موته مسحت وجهه جيدًا، وبذلت مجهودًا مضنيًا وعانت أشد المعاناة في جرجرة جسده الثقيل ووضعه فوق

السرير، ثم غطتها بالبطانية ليبدو وكأنه نائم وسريعًا غسلت الكأس تحسبًا لأى شيء، ورتبت المكان ونظفته جيدًا، بعد ذلك ارتدت عباءة سوداء ولفت شعرها وفي هدوء وثقة، خرجت ممسكة بحقيبة يدها التي وضعت بها زجاجة السم.

عندما رآها ماهر الذي جلس في المقعد الأمامي لإحدى السيارات في حالة استرخاء، دعك وجهه سريعًا ثم خرج من السيارة وقبل أن يتكلم قالت سحر في هدوء وهى تبتسم:

- أنا خارجة اشتري شوية حاجات من السوبر ماركت.

ارتاب ماهر قليلاً من الكلام وحدق فيها لكنها سريعًا قالت في ثقة:

- أصل الباشا عاوز يتعشى حمام وأنا قلت اشتري كل حاجة بنفسي علشان الحارس مش هيعرف يشتري اللي أنا عاوزاه وأنا هاخد صبحي معايا.

نظر لها ماهر وطأطأ رقبته ثم رمقها بنظرة خبيثة قائلاً:

- طب الباشا...

من على طرف لسانها:

- الباشا هينام شوية لحد ما اكون اشتريت الحاجة وعملتها مش هنتأخر.

- أنا آسف يا هانم بس أنتِ عارفة.

في حماس:

- طبعًا ربنا يخليك لينا يا ماهر دا إحنا عايشين في أمان بحسك.

في زهو:

- شكرًا يا هانم.

ثم صاح:

- صبحي.

أتى صبحي مسرعًا ثم قال:

- أيوه يا ريس.

في لهجة آمرة:

- مع الهانم للسوبر ماركت وفتح عينك كويس.

- تمام يا ريس.

جلست سحر في المقعد الخلفي وانطلق صبحي بالسيارة المرسيدس خارج الفيلا، كانت الطرق خالية تمامًا، وبمجرد أن ابتعدا عن الفيلا راحا في نوبة ضحك وصياح، وشبت سحر إلى المقعد الأمامي بجانبه، وفجأه ظهرت سيارة جيب سوداء وراءهما بعشرات الأمتار، تغيرت ملامح صبحي وصمت تمامًا عن الكلام وقالت سحر بعد أن اضطربت:

- فيه إيه؟

- بصي كده.. فيه عربية ورانا.

نظرت سحر وتأكدت من وجود سيارة ثم قالت في دهشة:

– لكن دي فيها حاجة!

– يعني الشوارع كلها فاضية بالعقل كدا صدفة إن العربية تمشي ورانا؟

في صوت خافت وقد بدأت تختلج خوفًا:

– تقصد إن في حد أطرنا؟

– أيوه.

– يكون ماهر أو أي حد من الحرس؟

وهو يهز رأسه نافيًا:

– بصي كويس العربية دي مش من بتوع سعيد.

– يعني...

– أيوه اللي كنت عامل حسابه دول رجالة عوض البيومي كانوا مراقبين الفيلا وبمجرد ما خرجنا اتأكدوا إن التنفيذ تم.. باقول لك إيه اربطي الحزام كويس

أسرع صبحي بالسيارة وعينه على المرآة وسحر تنظر للوراء في خوف ورعب وانطلقت السيارة التي وراءهما في سرعة جنونية لتصرخ سحر:

– صبحي بسرعة بسرعة.

كان صبحي قائد سيارات ماهر جدًا، في هدوء وكأنه داخل في سباق سيارات وليس مطاردة قال:

– ماتخافيش هما اللي جابوه لنفسهم.

أخذ يستعرض مهاراته الفذة في القيادة منطلقًا بأقصى سرعة، وقد أجبر السيارة التي تطاردهما أن تكون خلفه في نفس الحارة، ولم يجدوا إلا أن يطلقوا الرصاص عليهما ليصيح صبحي بحدة في سحر، التي أخذت تصرخ من الفزع بالنزول في الدواسة لتظهر سيارة قادمة من شارع جانبي، وقبل أن يرتطم بها انحرف من جانبها بطريقة فجائية، وحدث التصادم لكن بالسيارة التي تطاردهما، ليصيحا فرحين وتقفز سحر مرة أخرى للمقعد وتنظر للخلف وتصيح في سعادة وتطبع قبلة على خده.

انبعث دخان كثيف من أثر التصادم العنيف، وبعد لحظات ظهر من بين الدخان أحد أفراد السيارة التي كانت تطاردهما وبه أثر جرح في جبهته ويبدو علية الإعياء، أخرج الموبايل وعيناه معلقة بالسيارة التي بها سحر وصبحي والتي أخذت في الابتعاد قائلاً:

- ألو أيوه يا معلم.

- ... ...

- لا عملنا حادثة وهربوا مننا.

- ... ...

- ولا يهمك يا معلم هايروحوا مننا فين رجالتنا في كل المحافظات ولو راحوا المريخ هنجيبهم.

في طريق صلاح سالم غادرا السيارة، ثم استقلا تاكسي وهما في غاية السعادة والمرح، ليتوقف بهما أمام محطة مصر نزلا من التاكسي ثم أخذا يركضان ونظرت سحر إلى صبحي وقالت:

– لسه قد إيه على ميعاد القطر؟

نظر صبحي في الساعة ثم قال:

– حوالي ساعة إلا ربع.

جريا سريعًا إلى أمانات المحطة وأخرج إيصالاً من حافظته ثم أعطاه لأحد الموظفين، الذي أعطى له حقيبة تبدو كما لو كانت نفس الحقيبة التي أخذتها سحر من عوض البيومي، أخذاها ثم ذهبا إلى قطار النوم المتجه إلى أسوان بعد أن دخلا الكابينة نظرت له سحر ثم قالت وهى تكاد تطير فرحًا:

– أنت عبقري يا حبيبي الخطة تمت زي ما قلت.

في سعادة وزهو:

– عيب دا كل حاجة كانت مدروسة، وعلى فكرة أنا اخترت أسوان علشان نقضي شهر العسل هناك، خاصةً إننا في الشتا وعلشان محدش هيفكر إننا هناك وبعد ما الأمور ما تهدى نبقى نفكر براحتنا نعمل إيه.

نظرا إلى بعضهما وتعانقا عناقًا طويلاً حارًّا، ثم فتح صبحي الحقيبة وأخذا يحدقان في النقود ثم أمسك كل منهما بضع رزم وأخذا يقفزان ويصيحان.

*****

كانت تبعات موت سعيد باشا (ثبت في المحاضر الرسمية أن الوفاة طبيعية) وخيمة على نادر، حيث تسبب له في صدمة لم تكن على البال أو الخاطر، وفجأة بعد أن كان محاطًا بسياج من الرفاهية والاهتمام، شيئًا فشيئًا انفض عنه كل من حوله بداية من الحرس الذين تبخروا فجأة ولا يعرف أحد أين ذهبوا، مرورًا بماهر الذي اختفى تمامًا بعد أن استولى على كل الأموال السائلة والمشغولات الذهبية الموجودة في خزينة القصر، نهاية بالأصدقاء الذين أظهروا خسة ونذالة نادرة خاصةً بعد أن علم الجميع أنه أصبح مهددًا بالإفلاس والحجز على كل ممتلكاته، التي بالفعل كانت لا تغطي قيمة القرض الكبير الذي أخذه سعيد باشا، وقد أعطى له مدير البنك (الذي أخذ رشوة من سعيد باشا حتى يوافق على القرض بدون ضمانات كافية) مهلة شهر إن لم يسدد قيمة القرض سوف يتم الحجز على كل شيء، بل ومن الممكن أن يدخل السجن والآن صار حطامًا. بدا شاحب الوجه محمر العينين، وقد أحيطتا بهالة سوداء، ذا لحية طويلة بعد أن امتنع عن حلاقتها كعادته كل يوم، منفوش الشعر رث الثياب، عندما تراه تكاد تجزم أنه إنسان آخر، وقد تلاحظ أيضًا اهتزاز أعصابه التي تظهر بوضوح خاصةً عندما يكون ممسكًا سيجارة يدخن، كذلك كلامه الذي لا تفهم منه الكثير وكأنه فقد القدرة على التعبير فجأة أو نسي الكلام.

لكن ما دمره تمامًا وقضى على البقية الباقية منه، المعاملة السيئة التي صار يلاقيها من نادية، وها هى تقف أمامه في تحدٍّ وتوجه إليه نظرات ساخطة ناقمة ثم قالت:

- طلقني أنا خلاص قرفت منك.

قال بتهتهة وهو يكاد يرتعش:

- مش هاطلقك.. أنتِ.. هتفضلي.. معايا.. غصب.. عنك...

في سخرية وتحدٍّ:

- يا أخي اعرف اتكلم الأول داأنت أراجوز أنا هاتطلق وهنشوف.

أمسك كأسًا من التي أمامه وقذف بها وبنفسه حيث شق الكأس طريقه إلى نادية التي تفادته ليرتطم بالجدار ويهوي على الأرض "فتافيت"، أما نادر فقد انكب على وجهه فوق الترابيزة التي أمامه يهذي غير قادر حتى على أن يرفع جسده.

كانت نادية قد أعدت حقائبها وجمعت كل متعلقاتها ومجوهراتها، لتفارقه بعد أن صار لا قيمة له إلى بيت أبيها، الذي عاتبها كثيرًا لأنه كان غير راضٍ عن تلك الزيجة بينما هي التي أصرت عليها، لكنه سريعًا ما يقول بطيبته المعتادة (قدر الله ما شاء فعل)، كذلك نصحها كثيرًا بأن تقف مع زوجها في محنته، وأن تعينه على تقبل الوضع الجديد، خاصةً أنه أبدى تمسكه الشديد بها، لكنها أكدت له أن ذلك ليس السبب الوحيد لطلبها الطلاق، بل لأنه لا يصلح أن يكون زوجًا لأى امرأة، وقد تحملته كثيرًا وطويلاً ولن تستطيع أن

تتحمله أكثر من ذلك، أما أمها الحاجة سنية فكانت محفزة لها على الطلاق قائلة وهى تلوي شفتيها:

- لازم تطلقي منه يعني لا فلوس ولا راجل.

وكان ثمة شيء واحد يمكنها من التخلص منه، حيث كان عليها أن تذهب إلى محامي يرفع لها قضية خلع.

*****

ومرت الأيام ودارت الأيام...

هكذا ردد خالد محدثًا نفسه عندما أخبرته شيماء السكرتيرة أن نادية شوقي تريد مقابلته، أخذ يصلح من هندامه وشيماء تنظر له في دهشة من فرط الاهتمام الزائد الذي ظهر عليه بعد أن كانت تظن أنه سخر حياته للعمل.

بعد طرق خفيف على الباب دخلت نادية، وقد بدت في كامل أناقتها كاكتمال الشمس واكتمال القمر معًا، وتلاقت الأعين، ولا يوجد من الكلمات ما يستطيع أن يصف مشاعر وأحاسيس خالد، حيث قفز قلبه وغمره نهر من السعادة حتى قالت نادية وهى تبتسم في صوت رخيم عذب:

- إزيك يا خالد؟

في صوت خافت ولا يزال محدقًا فيها:

- إزيك انتِ يا نادية.. اتفضلي.

جلست نادية واضعة رجلاً على رجل ثم قالت:

- مبروك.

- الله يبارك فيكِ.. بس على إيه؟

- على النجاح الكبير اللي حققته.

في ثقة وزهو وقد تألق من السعادة:

- دا كان تحدي بالنسبة لي.

وهى تبتسم وقد لمعت عيناها:

- طول عمرك واثق من نفسك.

في ابتسامة هادئة وتسبيل عيون قال:

- لكن عارفة أنتِ زي ما أنتِ السنين ماغيرتش فيكي حاجة بالعكس بقيتي أحلى وأجمل بكتير.

مداعبة:

- أيام الجامعة ماكنتش جميلة؟

ضحك الاثنان ثم قال خالد:

- أنتِ طول عمرك زي القمر.

هزت رأسها وقالت في لهجة يشوبها الأسى:

- لكن مافيش حد يقدر.. قليلة البخت.

في دهشة وسخرية:

- ليه هو نادر بيه بخيل واللا إيه؟

- نادر بيه إيه دا خلاص افتقر واتشرد.

- لكن ازاى دا حصل.

- دي حكاية طويلة، أنا عاوزاك ترفع لي قضية خلع.

- ليه مش عاوز يطلقك.

- لا.

في ثقة وهو يبتسم:

- خلع إيه.. دا لازم يطلق.

وكأنها تريد أن تتأكد مما قاله:

- باقولك مستحيل يطلقني.

- وأنا باقولك هيطلقك ورجله فوق رقبته وبعد ما يطلقك هاتجوزك.

ضحكت نادية ثم قالت:

- إيه الثقة دي طب منا اتطلق وبعدين أوافق.

- يا ستي أنا وافقت بالنيابة عنك.

قام.. وقال مداعبًا وهو يمد يده إليها:

- ممكن سمو الأميرة تسمح لي أعزمها على الغدا.

*****

في لوكاندة متواضعة بوسط البلد انتهى الحال بنادر حيث تم الحجز على جميع ممتلكاته، وبعد أن كان ينزل في أفخم الفنادق صار الآن نزيل حجرة مترين ونصف في ثلاث أمتار داخلها سرير حديدي صغير وترابيزة متهالكة وكرسي خشبي، كانت أشبه ما يكون بحجرة في أحد السجون من تهالك للسراير والمراتب والبطاطين التي

في منتهى القذارة والحوائط المتآكلة التي تعد ملجأ للبق والحشرات، كان وجود نادر بين رواد اللوكاندة أشبه بوجود نعامة بين مجموعة ذئاب، وكالعادة منذ إقامته كان يجلس في استقبال اللوكاندة، أمامه كوب شاي وعلبة سجائر محلية الصنع حائر النظرات مهزوز الأعصاب، يوجه نظراته من وقت لآخر إلى مدخل اللوكاندة لتقع عيناه على خالد، الذي دخل في خطوات متئدة واثقة، مرتديًا بنطلونًا وقميصًا ورابطة عنق طارحًا جاكت البدلة المطوي على ساعده الأيمن استكمالاً لمظاهر الأناقة والوجاهة، يرمق جميع من استقبلوه استقبال الأمراء بنظرات كبرياء وغرور وقد تغلبت رائحة عطره الزكية على رائحة اللوكاندة العفنة.

بضع خطوت وكان أمام نادر الذي اضطجع محاولاً أن يبدو متماسكًا، وأخذ ينظر إلى خالد الذي وقف يحدث الموظف الذي لا يزال يسير وراءه في لهجة آمرة وقد أخرج خمسين جنيهًا وأعطاها له:

- سيبنا لوحدنا وياريت محدش يهوب هنا.

جلس خالد واضعًا رجلاً على رجل يرمق نادر بنظرات ازدراء، ثم أخرج علبة السجائر المستوردة، وأشعل سيجارة ثم أخذ نفسًا ونفخه لأعلى قائلاً في لهجة يشوبها التشفي والسخرية:

- دا المكان الطبيعي لأمثالك.

بانفعال وحدة لاهثًا:

– أنت عاوز إيه؟ الله يرحم أيام ما كنت بتمشي عشرة كيلو عشان توفر أجرة الأتوبيس.

في لهجة رصينة متهكمًا وكأنه يحدث طفلاً صغيرًا:

– هدي أعصابك خلي شوية تقدر تصلب بيهم حيلك أحسن تبقى زي كوم الزبالة ما تلاقيش حد يشيلك.

– صحيح واطي.

صاح خالد في حدة وصرامة وقد اربدَّ وجهه إلى العبوس فبدا قاسيًا فظًّا:

– اخرس أنا ممكن أوديك ورا الشمس لكن أنت أحقر من كده.

أخذ نفسًا من السيجارة ونفخه في غل وكأنه ينفخ غضبه، أما نادر فقد انكمش في نفسه حتى بدا كأن جسده تضاءل فجأة.

قال خالد بعد أن استعاد هدوءه:

– شوف باختصار علشان أنا معنديش وقت أضيعه معاك عاوزك تطلق مراتك.

بلع نادر ريقه في صعوبة وكاد أن يصيح لكن الكلام انحشر في حلقه، فخرجت منه كلمات لا تكاد تسمع:

– بتقول إيه؟!

في لهجة الناصح:

- لو ماطلقتش هنرفع عليك قضية خلع، وأكيد هنكسبها أحسن لك تحفظ الشوية الباقيين من كرامتك. وعلى فكرة هي مش عاوزة منك حاجة يعني أنت اللي هتكون كسبان.

وضع نادر كفه على جبهته ونظر في الأرض محاولاً إخفاء انكساره والدموع التي ملأت عينيه قائلاً في صوت خافت:

- هي اللي قالت لك كده؟

- أيوه.

هز رأسه ببطء:

- هاطلقها هاطلقها.

قام خالد في نشوة وزهو ثم قال:

- تمام أنت كده حفظت كرامتك

***

أبدًا لم تمحَ صورة نادية من ذاكرة خالد منذ الانتهاء من الجامعة، كانت دائمًا ساكنة عقله وقلبه.

كان دائمًا على يقين بأن يومًا ما سوف تكون من نصيبه وتؤول إليه، لذلك أعرض عن الزواج فترة طويلة على أمل أن يحدث ذلك، كذلك لم يلتقِ بمن تخطف قلبه وتكون جديرة به، واحدة فقط كانت تستحق ذلك "نادية". عندما علم بموت سعيد الشيمي شعر أن الأمل بات قريبًا، وكان عليه التريث والترقب جاهزًا للانقضاض في الوقت المناسب.

كان الهدوء يخيم على قاعة الاحتفالات الرئيسية بأحد الفنادق الكبرى، إلا من بعض الهمسات الصادرة من بعض العاملين، وهم يضعون اللمسات النهائية في تجميل وتزيين القاعة، وشيئًا فشيئًا بدأت تدب الحركة وتحدث ضجة خافتة، عندما بدأ المدعوون في الظهور مجموعة تلو الأخرى، كانوا معظمهم صعايدة، الرجال يرتدون الجلباب البلدي والنساء بملابسهن التي يغلب عليها الألوان الزاهية جميعهم من أقارب خالد جاءوا خصيصًا من الصعيد لحضور الفرح، ومن وقت لآخر يدخل بعض أقارب نادية، حتى بدا المكان أقرب إلى لوحة فنية متداخلة الألوان، وقد حدث فصل تلقائي غير مقصود بين كلتا العائلتين حيث تجمعت عائلة خالد في جزء، وعائلة نادية في جزء آخر، أما الأصدقاء من الجانبين فكان وجودهم بمثابة العامل المحايد كالحكم في مباريات الكرة.

بدأت تعم القاعة ضجة وصخب من أثر الأحاديث الجانبية بين كل مجموعة والضحك والقهقه التي تعلو من وقت لآخر، حتى انطلقت الزغاريد وسيطر الحماس على الجميع في عاصفة من التصفيق عندما بدأت الفرقة الموسيقية تزف العروسين وقد التف الكثير من المدعوين حولهما يعانقون العريس ويقبلون العروس اللذين شقا طريقهما إلى الكوشة.

عزفت الفرقة مقطوعة رومانسية وأخذ العروسان يرقصان حيث تألق وجه خالد حتى بدا كنجم سينمائي، كذلك نادية كانت كالبدر تشع حيوية وجمالاً.

وما كادت تنتهي الفرقة الموسيقية حتى علت الزغاريد والتصفيق عند دخول فرقة الطبل البلدي بمزمارهم ليلتف إخوة خالد وأقاربه حوله على شكل دائرة، وأخذوا يرقصون بالعصا وكل منهم يستعرض مهاراته الفذة في التحطيب، وأمسكت بعض المدعوات بنادية وأخذت ترقص وتتمايل على المزمار وسط التصفيق والزغاريد.

كانت الفرحة تعم الجميع رغم الاعتراض والتأنيب الذي واجهه خالد عندما أخبر أمه وإخوته بنيته الزواج من نادية، لأنها ليست بكرًا وكبيرة في السن، ولطالما طالبته أمه بالزواج، وقد رشحت له العديد من فتيات النجع سواء من أقاربه أو من العائلات الأخرى، معظمهن جميلات ولا يتعدى عمر الواحدة منهن الثامنة عشرة، لكنه كان يرفض متحججًا بأنهن غير متعلمات أو أن الجواز قسمة ونصيب، حتى يئست أمه وحزنت كثيرًا على تأخره في الزواج، وعندما أخبرها قالت له في حرقة: (تصوم وتفطر على بصلة أنت اللي عندك المال والجاه اللي يخليك تتجوز بنت العمدة). لكن بعد عدة محاولات نجح في كسب رضاها، عندما أكد لها أنه لن يكون سعيدًا إلا بزواجه منها وذلك لن يتم إلا برضاها ومباركتها، وكأي أم على الفطرة لا تتمنى إلا سعادة أبنائها سلمت وفرحت أيضًا. وها هو

الآن أسعد إنسان في الدنيا وقد انتهت الزفة وذهب خالد ونادية إلى عش الزوجية.

صعد خالد إلى شقته حاملاً نادية بين ذراعيه ولا يخلو الأمر من المداعبة... دخل الشقة وأغلق الباب بقدمه، ثم دخل بها إلى حجرة النوم ذات الإضاءة الخافتة التي تنتظر بلهفة وشوق لقاءهما الأول، ألقى بها على السرير وقد لمعت عيناه وقال في صوت لاهث من فرط الحماس والرغبة بعد أن أطلق تنهيدة حارة:

– أخيرًا جت اللحظة اللي كنت مستنيها من أول ما دخلت الجامعة.

*****

ضاقت عليه الأرض بما رحبت، أظلمت الدنيا أمامه لتصبح كثقب إبرة، وسدت عليه كافة المنافذ، حتى من النقود القليلة التي كانت آخر ما تبقى له من مملكة أبيه، صارت في طريقها للنفاذ، وبعد أن طلقت منه نادية التي أحبها بصدق وتعلق بها كما يتعلق الطفل بأمه، لم يعد لديه ما يحيا لأجله، وقد صار جليس حجرته الضيقة الرطبة باللوكاندة أيامًا، يحتسي كئوس البيرة بشراهة ونهم الاكتئاب، يسترجع ذكريات الماضي القريب، التي كان فيها أشبه بملك متوج، أما الآن فيشعر بأنه في كابوس مزعج جاثم على صدره.

هتف هاتف "أين الأصدقاء والأحباء؟!" الذين كانوا يضحكون لضحكه ويفرحون لفرحه ويأرقون لأرقه، كانوا يلتفون حوله كما

يلتف النمل حول قطعة السكر ذهبوا جميعًا وفي غمضة عين انفضوا من حوله.

قام في صعوبة ومشى بخطوات متعثرة مضطربة، ثم صعد على كرسي متهالك وضع في منتصف الحجرة، وقد أخذ جسده في الاهتزاز نظر لأعلى وأمسك بحبل غليظ رُبط في حلقة حديدية بسقف الحجرة، لف الحبل حول رقبته وربطه جيدًا اهتز الكرسي بشدة ثم سقط على الأرض ليتدلى نادر وقد صار جسدًا بلا روح.

*****

(10)

حدث ذلك بعد مرور عدة سنوات على زواجهما، كانت الحياة تمر هادئة لا يوجد ما يعكر الصفو، يتنقل خالد من نجاح إلى نجاحات ولا يفوت فرصة بالليل أو بالنهار إلا وينهل من جسدها الفائر، ولا يرتوي منه أبدًا وأخيرًا شعر بتمام وكمال السعادة، وما بعد التمام إلا النقصان، أما نادية فكانت تقرن سعادتها دائمًا بوجود المال وقد توفر لها ذلك، لكن أبدًا لم يهنأ قلبها أو يخفق إلى الآن، كان خالد بالنسبة إليها لا يختلف كثيرًا عن نادر كلاهما زكيبة ممتلئة بالمال تنهل منها كما ينهلان من جسدها.

استيقظت من النوم على ألم شديد داهم أسنانها، أزاحت البطانية عنها ليظهر جسدها البض العاري تمامًا إلا من قميص قصير جدًّا، قامت بنصفها العلوي واضعة كف يدها على خدها الأيمن، ليدخل خالد مرتديًا لباسًا فقط وممسكًا بالفوطة ينجفف وجهه ورأسه لتقول ناديه:

- أسناني هتموتني من الوجع.

التفت خالد إليها ثم قال:

- إيه اللي حصل؟ أنتِ كنتِ زي الفل!

– مش عارفة صحيت من النوم لقيتها بتوجعني.

في اهتمام بالغ اقترب منها وأخذ يمسح على شعرها ثم طبع قبلة على جبينها:

– ألف سلامة عليكِ يا حبيبتي.

صمت قليلاً واستطرد وهو يرتدي ملابسه:

– فيه دكتور أسنان كويس كنت رفعت له قضية.. خدي عنوان العيادة وروحي وأنا هاتصل بيه وأحجز لك.

كتب العنوان في ورقة ثم أعطاها لها.

– أنت مش هتيجي معايا؟

– لا أنا ورايا محكمة واليوم كله تقريبًا مش فاضي هبقى أطمن عليكِ بالتليفون.

****

كانت العيادة مكتظة في ذلك الوقت، في تؤدة دخلت نادية ونظرات عينيها تحيط بكل من في العيادة في ثقة وكبرياء وكأنها موكب رسمي يتقدمها، وما لبثت أن دخلت حتى أسرعت الممرضة تستقبلها بابتسامة واسعة وترحاب بالغ، باقتضاب شديد وابتسامة باهتة قالت نادية:

– فيه حجز باسم مدام نادية خالد.

بسرعة وكأنها تنتظر ما تقوله:

– أيوه يا افندم تقدري حضرتك تنتظري لحظات تكون الحالة اللي جوه خرجت.

أومأت نادية برأسها ثم جلست واضعة رجلاً على رجل، وقد لفتت انتباه جميع الموجودين، خاصةً النساء اللاتي امتعضن وبدا عليهن الاستياء الشديد، عندما أذنت لها الممرضة بالدخول بعد أن أخبرت الدكتور، وقد حدث نقاش حاد مع الممرضة التي وقفت تشرح لهن في هدوء طبيعة الموقف.

أغلقت الممرضة الباب ولوهلة شعرت نادية أن حجرة الكشف خاوية، وقبل أن تخطو خطوة للأمام، وقعت عيناها عليه، وشعرت أن شيئًا يتحرك داخلها لم تكن تعرفه من قبل، عندما أطل عليها بقامته الرشيقة ووجهه الذي يشع حيوية وعينيه الباسمتين وشعره ذي الخصلات الصفراء المصفف للوراء، وقبل أن تفكر التقت عيناهما وخفق قلبها بشدة ولأول مرة، وكأنه لم يخفق من قبل متمردًا على الماضي باحثًا عن الحب الذي طالما اشتاق إليه ولم يجده، اقترب منها ببطء وهو يلفها بعينيه وقد تسمرت نادية في مكانها، مد يده يصافحها ولا تزال عيناهما تتلاقيان ولا يزال يحتويها بين عينيه.

وضعت يدها بين دفء يده، ليقول في صوت عميق:

– مدام نادية شرفتِ العيادة.

*****

- ألو مين؟
- ... ...
- آه.

تهلل وجهها ثم اتكأت على الأريكة مرتدية شورتًا وحمالة صدر فقط، صمتت قليلاً أخذت تحرك ساقيها وتداعب خصلات شعرها، وقد فتحت السماعة الخارجية منتشية عندما تسمع الطرف الآخر الذي يقول في صوت خافت لاهث:

- ألو.. رُحتِ فين يا نادية؟؟ على فكرة أنا حبيت أطمن عليكِ أرجوكي ردي.

ضحكت نادية ثم قالت:

- يعني دا سبب اتصالك! لو دا السبب أنا كويسة.

في لهفة وفرح:

- ياه أخيرًا اتكلمتِ.. تعرفي إن ضحكتك تجنن؟

ضحكت نادية بصوت عالٍ:

- لا أنا ماقدرش على كده.
- قول لي بقى أنت اتصلت ليه يا حسام؟
- تعرفي أول مرة أعرف أن اسمي جميل كده، الحقيقة أنا فعلاً عاوز أطمن على أسنانك، لكن مش دا السبب الحقيقي، أنا مش عارف إيه اللي حصل لي من أول ما شفتك.

وهى تضحك وقد انتشت جدًّا من الكلام:

– طب بالنهار وعرفنا لكن بتفكر فيا وأنت نايم ازاي؟

– باشوفك حتى في أحلامي.

– ياه للدرجة دي؟! دي حالتك بقت صعبة أوي.

– أوي.. أوي.

– بس مش خايف أحسن أقول لخالد؟

أخذ يضحك ثم قال:

– لأ.. لأن قلبي بيقول لي إنك بتبادليني نفس الشعور علشان كده أنا مستعد أعمل أي حاجة علشان تكوني ليا.

ابتسمت وقبلت الموبايل من بعيد وعضت بأسنانها على شفتها السفلى وهمست:

– إيه دا كله! دا حب بقى؟

– حب بس تقدري تقولي حب وعشق وكل حاجة.

– من أول نظرة؟!

– هو إيه؟

– الحب؟

– من أول وآخر نظرة أول ما عنيكِ جت في عنيا طبيت.. وأنتِ؟

ضحكت ثم همست:

– أنا إيه؟

– حبتيني؟

– لأ.. مش بسرعة كده.

- بجد قولي.

- شوف يا سيدي تقدر تقول إني استلطفتك.

- بس؟

- وكمان أُعجبت بيك.

- مش أكتر من كده؟

وهى تضحك:

- أنت تحمد ربنا إنك وصلت لكده.

- دا كده ميت فل لكن ممكن أطلب منك طلب بس ما تكسفنيش؟

- على حسب...

- عاوز أشوفك.

- بس كده شوف أي كازينو كويس.

في تردد:

- مش في مكان عام.

ضحكت ثم أخذت تمسح بيدها على فخدها:

- آه..

- آه إيه؟

صمتت قليلاً وأخذت تداعب شفتيها بلسانها ليقول في حسم:

- على فكرة ماتفهمنيش غلط بس علشان نكون على راحتنا وبعيد عن عيون الناس.

ضحكت وقالت مداعبة:

- يا حرام أنا كنت هافهمك غلط.

صمتت لحظات ثم قالت:

- إديني العنوان.

* * *

كان قد تزين وتجمل وأخذ وقتًا في إعداد كل شيء للقاء المرتقب، وكأنه على وشك الدخول في معركة حاسمة من أجل إثبات الوجود، ومن حين لآخر يغني ويدندن وينظر في المرآة ثم ينظر إلى الساعة فى توتر، وما إن رن جرس الباب رنات خافتة متقطعة حتى اختلج قلبه وتهلل وجهه بأقصى آيات السعادة، في سرعة وخفة متناهية فتح الباب، لتتسمر قدماه محدقًا في دهشة، حيث كانت تقف أمامه سيدة ترتدي النقاب والإسدال، كاد أن يغلق الباب في وجهها حتى خرج منها صوت هامس وهى تدفعه إلى الداخل:

- أنا نادية يا حسام.

أغلقت الباب وراءها سريعًا، وكانت لا تزال الدهشة تسيطر عليه، لتقول وهى تخلع النقاب والإسدال وتبتسم:

- كان لازم أعمل كده.

أخذ يصفق بصوت خافت مطلقًا عبارات الإعجاب والثناء، بعد أن خلعت النقاب والإسدال، حيث كانت ترتدي تحتهما فستانًا أحمر يكشف عن معظم نهديها وينحسر عن ستر معظم فخديها، وقد بدت

مثل فرسٍ جامحة غاية في الروعة والجمال، اقترب منها ثم طبع قبلة على يدها قائلاً في صوت خافت:

- أنا أسعد واحد في الدنيا.

أخذت تلتفت يمينًا ويسارًا ثم قالت:

- شقة مش بطالة.

أخذ بيدها ثم جلسا متجاورين على الأريكة، وأخذا يحتسيان الشمبانيا ويتحدثان في مواضيع غير ذات معنى، حتى بدأ صوتهما يخفت وتلهث أنفاسهما وبعد لحظات صمت مفعمة بالرغبة والشهوة، اقترب جدًّا منها حتى التصق جسده بجسدها تمامًا وهمس وهو يضع وجهها بين يديه: باحبك.. كانت تضع يدها على صدره تتحسس جسده. تلامست شفاههما وشعرت بأنها تذوب بين يديه.

*****

ما إن خرج سامي من مسجد السلطان حسن بعد أداء صلاة الفجر، وقبل أن يدخل سيارته رن الهاتف المحمول، وكأن الذي يطلبه يراقب كل تحركاته، كانت من عادة سامي (التي يؤنبه الكثيرون عليها) عدم الرد مطلقًا على أي رقم غريب لكن شيئًا ما دفعه إلى الرد هذه المرة:

- ألو

- ... ...

- مين معايا؟

- ... ...

- مين؟!

أخذ سامي ينظر إلى الرقم حيث بدا الصوت غير واضح تحرك من مكانه بضع خطوات وفتح السماعة الخارجية ثم قال فى حدة:

- مين معايا؟!

- أتى صوت بعيدًا وعميقًا:

- مش مهم..

- يعني إيه مش مهم.. شوف لو مقلتش أنت مين وعاوز إيه أنا هاقفل

- اعتبرني سنترال رمسيس، عاوز إيه هو دا المهم لازم تعرف إن كل شيء وليه حدود وإحنا سايبينك بمزاجنا علشان تطري شوية على قلبك وتنفس عن الناس وبيرطموا شوية وخلاص، أنت واللي زيك مش أكتر من فاترينة عرض لكن تتجاوز الحد المسموح بيه أهو دا اللي يزعلنا.. وإحنا زعلنا وحش.

في حدة وصرامة:

- أنت فاكر إني هاخاف؟

بنبرة هادئة وقد بدأ الصوت يزداد عمقًا:

- مش مهم تخاف المهم تشوف.

صمت لحظة ثم أطلق ضحكة عالية، عالية جدًا وكأنها آتية من الجحيم ولأول مرة خرجت من سامي رجفة... رجفة خوف.

*****

– مش ممكن تكوني لحد تاني.

– أنا كمان مش عاوزة أكون لحد غيرك.

كانا عاريين تمامًا في الفراش وقد أخذت تمسح بأصابعها على صدره وتقبله بحرارة، ثم قالت في حزن وحسرة وكأنها تذكرت ما أنساها الحب إياه:

– طب وهنعمل إيه في خالد؟

أطلق تنهيدة ثم مسح على شعرها في حنان وقال:

– مش عارف أنا باتجنن لما أعرف إنه لمسك.

هزت رأسها وقالت في حرقة:

– أنت عارف أنا باكره نفسي لو...

قبل أن تكمل وضع يده على فمها ثم قال:

– ماتقوليش حاجة الكلام دا بيضايقني.

قبلت يده ثم فمه وهمست:

– أنا آسفة يا حبيبي.. لازم نشوف حل.

– اطلبي منه الطلاق.

قامت بنصفها العلوي وهزت رأسها:

– لا يمكن يوافق يطلقني بسهولة، وأكيد هيمنعني من الخروج، أنت ما تعرفش بيحبني أد إيه وبكده هاخليه يشك فيا.

بعد لحظات صمت متوترة استطردت:

– اليومين دول بقى متوتر على طول وبيتعصب على أتفه الأسباب.

– ليه؟!

– الظاهر في مشاكل في الشغل وخسر قضية كبيرة يعني.. كمان مابيديش سره لحد، إيه رأيك نرفع عليه قضية خلع وأسيب البيت بعد ما أكون أخدت حاجتي.

– ....

صمت وبدا شاردًا يفكر بعمق ثم قال بهدوئه الواثق من الحل:

– الخلع هياخد وقت ودا محامي كبير وشاطر يعني الموضوع مش هيكون سهل.

نظر إليها وقد ظهرت على وجهه ابتسامة غامضة ثم استطرد:

– أنا لقيت حل أكيد هيجيب نتيجة سريعة ويخلصنا منه.

*****

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.

هكذا كان حال خالد الذي صعد نجمه بسرعة الصاروخ لكن في أقل من أسبوعين تهاوت على رأسه المصائب الواحدة تلو الأخرى.

بدايةً من فقد صفقة سلاح بالملايين بعد مداهمة الأمن للسيارة التي كانت تحمل السلاح، وليس هذا فحسب بل وإلقاء القبض على كمال أحد رجاله المهمين، منما اضطره إلى دفع مبلغ كبير له نظير إسكاته، وحتى لا يزج باسمه في التحقيق ويشيل القضية بمفرده،

وكما يقولون "خبطتين في الراس توجع" بالإضافة إلى تخبطه في مجال المحاماة بعد خسارة قضية مهمة، كان موكلاً فيه وبالتالي خسارة الأتعاب التي كانت كبيرة جدًّا، والأهم أنه فقد الكثير من سيطه وسمعته كمحامٍ لا يشق له غبار.

كان يجلس في مكتبه شارد الذهن في حالة ضيق وكدر حتى أفاق على صوت شيماء وهى تقول:

- الدكتور حسام رشاد يا افندم.

نظر لها وقد بدا أنه لم يسمع ما قالته ليقول:

- بتقولي إيه؟

- الدكتور حسام رشاد عاوز يقابل حضرتك.

أخذ يفرك عينيه ويمسح بيده على وجهه ثم قال:

- خليه يدخل واعملي كباية شاي.

جاهد نفسه لكي يرسم البسمة على وجهه، وهو يستقبل الدكتور حسام الذي صافحه بفتور، دون أن يغلق يده على أصابعه، ثم جلس وقد بدا الأمر غير مألوف لخالد الذي انتقل إليه الإحساس بالجفاء، خاصةً بعد تلك المصافحة وقال في لهجة جافة بعد أن رمقه بنظرة عميقة متفحصة:

- خير يا دكتور حسام فيه قضية جديدة؟

رمقه بنظرة خبيثة ثم قال فى هدوء:

- القضية ممكن نرفعها بعدين دا يتوقف عليك أنت.

ظهرت الدهشة والتوتر على وجه خالد واحتواهما صمت ثقيل وقبل أن يتكلم دخلت شيماء بالشاي ليقول في نبرة روتينية جافة:

- شوفي الدكتور يشرب إيه؟

- لأ شكرًا.

- طيب اخرجي أنتِ يا شيماء.

أخذ رشفة شاي ثم نظر إليه مليًّا وأراح ظهره للخلف، ثم قال فى هدوء مصطنع:

- أقدر أعرف إيه المشكلة؟!

في حسم وثقة:

- شوف باختصار أنا عاوزك تطلق مراتك.

فى حدة منفعلاً:

- مرات مين؟!!

ببرود غير طبيعي:

- نادية... طلق نادية.

فى حدة وهو يكاد يرتعش من فرط الغضب والانفعال وجسده ينبض بذرات النار:

- أنت بتقول إيه؟!

- اللي سمعته ودا أحسن لك لأننا باختصار هانتجوز.

جن جنون خالد وشعر أنه يحلم أو يهلوس:

- بتقول إيه يا كلب يا ابن...

في حدة وصرامة قبل أن يكمل:

- إياك تغلط على فكرة لو مطلقتش هنرفع قضية خلع، وأنت محامي وعارف إننا أكيد هنكسبها، يبقى أحسن تحفظ كرامتك وتطلق بهدوء وهى مش عاوزة منك حاجة، ودا آخر كلام عندي قدامك يومين بس، لو مطلقتش سيرتك هتبقى على كل لسان يا أستاذ يا كبير.

كان الكلام مثل طلقات النار التي أصابت جميع أهدافها، حيث وضع خالد يده على جبهته وأحس أن آلة الزمن عادت به للوراء، حينما ذهب إلى نادر وقال له نفس الكلام، ها هو يتعرض لنفس الموقف ليقول في حرقة وأسى وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

- ياه... دنيا حقيرة بشكل..

*****

مشهد البداية...

نفض خالد رأسه وأخذ يمسح وجهه ويفرك عينيه، حيث يشوبهما احمرار بالغ، ثم نظر في ساعته كانت قاربت على الواحدة بعد منتصف الليل، كان قد مضى على غفوته أربع ساعات، استعاد فيهما ذكريات خمسة وعشرين عامًا مضت، قام عن الكرسي وأخذ يجمع الأوراق المتناثرة في الحجرة، ثم اتجه إلى النافذة وراح ينظر إلى الأمطار التي بدأت تخفت إلا من بعض الرذاذ الخفيف الذي ما زال يتساقط، وقد بدت الشوارع شبه خاوية على غير العادة، أشاح

بوجهه عن النافذة ثم نظر مليًّا إلى أحد أدراج المكتب ليفتح الدرج ويخرج طبنجة ثم وضع الخزنة بعد أن تأكد أنها ممتلئة محدثًا نفسه (لابد وأن تموت تلك الشيطانة التي فعلت من أجلها الكثير). ثم صاح بغل: (نادية هتدفعي الثمن آخر يوم في حياتك النهاردة). ارتدى جاكت البدلة وطاقية صوف ووضع كوفية على كتفيه وأدخل الطبنجة في جيب الجاكت وخرج من الشقة وقد حسم أمره، استقل سيارته وضغط على دواسة البنزين بكل قوة وغل لتنطلق السيارة بأقصى سرعة، ممسكًا بعجلة القيادة بكلتا يديه متحفزًا والغضب يهزه حتى النخاع.

قطعت السيارة المسافة بين شقته والشقة التي تقطنها نادية في صحبة الدكتور حسام رشاد في دقائق معدودة، لكنها مرت عليه كالدهر زادته اضطرابًا وحنقًا، قبل العمارة بمسافة ليست بعيدة أوقف السيارة، ثم دلف إلى العمارة التي بدت خالية تمامًا من أي حركة حتى من البواب الذي على ما يبدو أنه احتمى بجدران حجرته من لسعة البرد.

توقف المصعد في الدور السادس، وفي لحظات كان أمام أحد أبواب الشقق، التي وضع عليها لافتة صغيرة مكتوب عليها الدكتور حسام رشاد. مرت عليه لحظات توتر عصيبة بعد أن ضغط على زر الجرس، وبمجرد أن فتح الباب أطلق النار.

*****

بلع سامي ريقه بصعوبة ومرارة، لقد أحس بالخوف لأول مرة في حياته، أخذ يمشي شاردًا محبطًا يفكر في ضميره الذي رفض الفساد والنفاق ووقف حائلاً أمامه في أن يصبح نجمًا مدعومًا من الحكومة، يحظى بمميزات هائلة يغرف من المال على قدر استطاعته، وها هو بعد أن اختار طريق النضال والكفاح يجني التهديد والتضييق والخوف، يا له من ضمير!! وفجأة ظهرت سيارة مبهرة الأضواء قادمة نحوه في سرعة جنونية، ولم يداخله أمل بأنه سينجو وقبل أن تصدمه انحرفت محدثة أصوات وضجة عالية، بفعل احتكاك كاوتش العجلات بالأسفلت والفرامل التي تكبح بشدة.

وقف سامي للحظات مذهولاً وعندما نظر للوراء كانت السيارة "فص ملح وداب" واصل سيره بعد أن أدرك اللعبة ووصلته الرسالة جيدًا كان قد اقترب من هضبة المقطم، عندها استوقفه شاب في العشرينات من عمره لديه كشك لبيع السجائر وقد تهلل وجهه ومد يده قائلاً:

– أستاذ سامي.

نظر له سامي في دهشة ومد يده ليصافح الشاب الذي قال فى سعادة غامرة وحماس بالغ:

– والله أنا سعيد أوى علشان شوفت حضرتك.. أنا باشتري الجورنال مخصوص علشان أقرا المقالات بتاعتك.

ابتسم سامي وهز رأسه وقال في صوت خافت:

- شكرًا.

- إن شاء الله هييجي اليوم اللي نثور فيه على الظلم والفساد، ويدي الشعب كارت أحمر لكل المفسدين اللي فى البلد.

ابتسم سامي ثم صافح الشاب وقال:

- أنا اللي سعيد إنى قابلتك.. الأمل فيك وفي الشباب اللي زيك المكافح الواعي.

مشى سامي بعد أن صافح الشاب ثم صعد على هضبة المقطم، كان ظلام الليل بدأ ينسحب، وألقى نظرة طويلة على القاهرة، وقد بدت مختلفة وأخذ يملأ صدره من الرياح التي بدأت تهب، رياح مختلفة لم يشعر بها من قبل، وتنامى إلى مسامعه صوت خافت، وشيئًا فشيئًا أخذ يعلو ويعلو ويعلو وأخذ سامي يتمتم: إذا الشعب يومًا أراد الحياة... فلا بد أن يستجيب القدر... ولا بد لليل أن ينجلي... ولا بد للقيد أن ينكسر...